لَا النسوة

دار أثر للنشر والتوزيع 1436
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
عبد الحميد، فاطمة
ة النسوة/ فاطمة عبد الحميد- الظهران 1436
(272) صفحة 14.5 ×21.5 سم
ردمك: 978-603-90722-2-5
1 - القصص العربية- السعودية أ. العنوان
ديوي 813,039531 رقم الايداع 1436/8949
الطبعة الأولى 2014/1435
ردمك:

المملكة العربية السعودية– الدمام
تلفون : 00966505774560
الموقع الالكتروني : www.darathar.net
Email: **info@darathar.net**

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا االكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

فاطمة عبد الحميد

تاء النسوة

روايـة

كان صادما لي حين عرفتُ أن الشجرة صمّاء. كل الحكايات التي قلتها، وأنا أتكِئُ عليها وهي تهزُ أوراقها مؤيدةً طوال الوقت... ذهبت لمن إذا!؟

بــين الاثنين اللذين يقترعان بعملــة معدنية يقذفها أحدهما للأعلى، يكون نصيبي دائما الوجه السفلي من العملة. فأنا من تخسر في أي رهان مهما دارت العملة في الهواء.
تلك القطعة المعدنية المهملة، التي تُلزمنا احترام مشيئتها، حين نقرر فجأة أن نفتش عنها في جيوبنا وحقائبنا، لتحســم لنــا خياراتنا المتعارضة... بالنســبة لي لم تأتِ يوما لصالحي، فلطالما تعاملــتْ معي، هي و الحياة، كبــاب دوار كلما دخلت من جهــة، أعادتني الأقــدار، وربما خياراتي السيئة، لجهة أولى لم أغادرها.
– أيٌّ منا ستحضر القهوة وقطع « الكوكيز» بعد ثلث ساعة من الآن؟
دارت ودارت العملة المعدنية في الهواء، وكالعادة وقع الاختيار علي.
عبرت طابــور الأحذية في مصلى «المول». رأيــتُ كل الظهور المنحنية والواقفة، تحاشــيت النظر إلى الأرداف الراكعة، وجلســت في الصف الأخــير خلف امرأة تصلي على كرسي، أراقــب انتهاء صلاتها الفردية، رغم حضور كل هذه الجماعة:
– سبحان ربي العظيم، ســبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظيم، الله أكبر، الله أكبر...
ثم بســجود لا يختلف عن الركوع إلا بميلان خفيف نحو الأســفل، رمقتني الســيدة بنظرة جانبية، تزامنت مع وصــول نغمة هاتفي حين وصلتني رسالة من غالية:

-«أنتم داخل السوبر ماركت»؟
صوت الاستغفار وحرف «السين» المتكرر يذكرني بصوت «صوص» العصفور، لذا وحدي أبتسم هنا .
كنت أراقب المرأة التي تصلي على أحد كراسي المسجد وأتساءل: كيف تلف هذه السيدة ممرات «المول» الطويلة و أدوراه الفسيحة مشيا على قدميها، ثم تصلي قاعدة ؟ نفضت رأسي بقوة، فأنا لا أستطيع أن أتوقف عن طرح الأسئلة ما لم أقم بهذه الحركة. بدأت بعض السيدات في الخروج من المصلى على وقع الرنين الآلي الذي يليه دائما إعلان من إدارة المول ، والإعلان الآن جاء متبوعا بنداء موجه لأسرة طفلة مفقودة:
«الرجاء من أسرة الطفلة بتول عبد الله البادي مراجعة إدارة المول للأهمية».
غيرت مكاني ووقفت في أقرب ممر باتجاه الأحذية. أحيانا في هذا المكان، تقف بعض النساء وهن يضعن يدا على الحائط، ويرفعن سيقانهن للخلف، لتنزلق القدم بسهولة داخل الحذاء بمساعدة بسيطة من اليد الأخرى، فأصبحُ أمام باب المصلى، عرضة لأن تلامس أكتافهن صدري، فيصيبني هذا بالقشعريرة، ولا أعرف لمَ!
مرت سيدة على عباءتها بقايا حليب جاف فوق صدرها، تعثرتْ في حذاء أبيض رياضي لأنها كانت مشغولة بمراقبة المرأة التي كانت تصلي على الكرسي، وتستند الآن على يد سيدة أخرى لتقف، و أظنني قرأت في عينيها السؤال نفسه الذي يشغلنا معا:
- أهذه نزلة التسوق الأخيرة في حياة هذه المرأة؟
حسنا أنا أقل وقاحة من هذه السيدة التي تفكر بهذه الطريقة، لذا كنت سأسأل:
- هل أنت متأكدة أن ما جئتِ لشرائه اليوم، ليس موجودا من قبل في

بيتك؟
استدرت لأنظر لسيدة تنقر كتفي بحرارة، وبدا واضحا من عينيها أنها تطلبني معروفا:
– يا أختي امسكي بنتي من فضلك بالله!
ناولتني السيدة رضيعتها. أعادت شد طرحة رأسها حول وجهها جيدا، وتأكدت بفزع من شيء تظن أنها فقدته من محفظتها. قلبت الجيوب الصغيرة في كل اتجاه، وعيناها تكادان تسقطان في حقيبة يدها لفرط ما بعدت المسافة بينها وبين رأسها.
– خير .. خير !
قلت لها مدعية القلق، هكذا كما يقتضي الذوق العام، دون أن انظر حتى لابنتها.
– شكرا لك، شكرا أختي...
هزت رأسها باستعجال، وهي تسحب غطوتها التي لم أنتبه أنها مرمية على عجل فوق الرضيعة، ثم حملت سريعا طفلتها من بين يدي. يبدو أن العجلة طبع فيها، فقد قذفت بمحفظتها في عتمة حقيبة يدها، ونسيت إغلاق سحابها ومضت .
لا أعرف لمَ ذكرتني طريقتها السريعة في تقليب محفظتها، بطريقة أمي في تقليب محفظة أبي وهو يتوضأ؟ تسأله عن أمر ما، ثم إذا انهمك في الكلام صارت تقلب الجيوب والمحفظة وهي مطمئنة للمسافة التي تفصلها عن صوته. تجاريه في الموضوع الذي شجعته ليرويه، وتتحكم بحركتها في النبش بناء على مستوى صوته البعيد أو القريب بحسب انحناءات رقبته، وحين تنتهي من مهمتها تبتعد عنه وعن ثوبه المعلق دون أن تكترث إن كان أنهى كلامه أم لا؟! تخبئ غنيمتها في حمالة صدرها السوداء بوجه يحضر في بالي الآن كصورة مشوهة تنعكس على

ظهر ملعقة.
نعم هي هذه الصدرية الســـوداء... لم أر على أمي سوى هذا اللون حتى مات أبي فخلعت السواد، وأدخلت الألوان جميعها إلى المنزل.
عدتُ لعادتي الأثيرة مع المصليات اللاتي لم يكملن صلاتهن بعد، وهي مقارنة أكياســـهن المكدســـة أمام مواقع ســـجودهن. أحصي المحلات الأكثر شـــعبية من خلالها وأراقب نظرات النســـاء صاحبات الأكياس القليلة، إلى النساء اللاتي يكومن الكثير من الأكياس والماركات الثمينة أمامهن.
الأكياس لافتة جدا، فمثلا هذه ستة أكياس من ماركة انجليزية يسوّقها فلبينيون في الـــدور الأرضي، هؤلاء لا علاقة لنا بهم، حتى في محاولاتنا المضنية لصرف الخمسمئة. هو موقف أخذناه منهم بشكل عام، وليس أمرا شخصيا بالمناسبة.
هناك أربعة أكياس... واحد ماركة و ثلاثة هي حصيلة من العم راضي في محل ملابس الأطفال. يا ألله لو تعرف السيدات كم يحب هذا الرجل الأطفال، وبـــأي طريقة يعبر عن حبه لهم، لمـــا خرجن من محله بكيس واحد ولو كان فارغا حتى، ولما ترددن في البصق عليه وعلى مبيعاته.
هذا كيس أحمر لصالح أحذية أبو نجاة، العم اللطيف في الدور الثالث.
لمَ لا ينصبّ الحظ على محلات الطيبين أمثاله؟ وهذه الخمســـة الأكياس تعود لمحل عـــمار ومحمد... هما معنا في الدور الثـــاني، وهذه تنزيلات الموسم لديهم، قبل مواسم التخفيضات كعادة الأنذال !!
ذلك كيس واحد يعود لمحل العبايات في الدور الثالث، والذي تبيع فيه جواهر زميلتنا. أتذكر أن العاملات كلفنها في المول أن تتحدث بالنيابة عنهن أمام إدارة الســـوق، لرغبتهن الملحة في وجود غرفة استراحة لهن أثناء أوقات الصلاة، عوضا عن المشي في الممرات أو التكدس في المصلى

مع المتســوقات وأطفالهن في المــول، ثم أثناء الاجتــماع تُركت تترافع وحيدة أمام المدير ونائبه، وحــين التفتت إلينا صمتنا كلنا. أظنه ليس جبنا منا بقدر ما هو ســوء تنظيم، فلم نعرف من ســتتكلم مباشرة بعد جواهــر. خرجنا من الاجتماع، وتركناها خلفنــا توقع ورقتين: واحدة كضمانة لســلوكها، وأخرى لفت نظر على تقصيرها في عملها، وتضييع وقت العاملات والمدراء في المول.

أعرف أنك تســمعني، ويمكنك أن تجلس بقربي هنا كل يوم، وسأكون ماهرة هكذا في ملء وقتــك ووقتي بالكلام. تسرب الحكايات الكثيرة من فمي لا علاقة له بنابي المعوج، هو طبع ليس إلا.

بعض الكلام يصعب قوله للآباء مباشرة. لن أستطيع أن أتحدث به مع رسمة القبر في دفتري... أنت تعلم بالطبع أنني لا أستطيع زيارة قبرك! حسنا يا أبي... ليس كل من تجول في المول تائها، فأنا الفتاة الممتلئة التي ستراها تتجول أمامك، تلك التي تدمع عيناها، ويصبح صوتها طفوليا إذا ما تناقشت مع أحدهم. أنا لا أعرج لكنها ركبتي اليمنى، تلك التي تطقطق بعــد كل فترة جلوس طويلة، لذا أبــدو أحيانا وكأنني أعرج.

أنــا أيضا تلك التــي تحتضن تحت ذراعها كتبــا لتطوير الذات وبعض المجلات، متعمدة إخفاء الإعلانات في الصفحة الأخيرة عن أعين المارة، فأنــا بخلافك لن أقدم ولو إعلانا واحدا بدون مقابل! أنا المكتوب على عباءتها من الخلف، وباللون الأزرق «ســدرة»، وإذا استدارت نحوك فســتجد فوق القلب مباشرة، قطعة معدنية ذهبية مكتوبا عليها باللون الأسود:

« أزهار»

هذه ليست أنا ، فأنا لا أشبه الأزهار كما كنت تأمل... هذا اسمي فقط.

البارحة قبل أن نغلق المحل أنا ورنيم بربع ســاعة، دخلت امرأة لم يكن يتصاعــد الدخان منها، لكن نظرتها المتراخية وتلك الهالات الســوداء حول عينيها، أخبرتني أن شيئا في داخلها يحترق:
– هاي بنات.. أحتاج فواحة برائحة قوية... النوع المسكن للأعصاب... يساعد على الاسترخاء والتوهان.. قوية و.. وأأ..
كانت تحرك رأسها يمينا ويســارا مكرمشة عينيها، تضرب بكفيها على صدرها وكأنها غوريلا في أحد الأفلام الوثائقية. كانت مســتفَزَّة جدا، وكأنها تبحث عن كلمة دقيقة لا تجدها، لوصف فراغ جاثم في صدرها .
ضحكتُ لها وأنا أهز رأسي موافقة على فهمي لكلامها، خوفا من تمادي عصبيتها تلك في الشرح:
– أعرف أن كلامي غير مفهوم، قوية، واسترخاء، لكن قصدت فواحة من النوع الـ أأأأأأ مريح...
عــادت لفتح يديها في محاولــة منها لشرح أدق، لكننــي أوقفتها بيدين مرفوعتين:
– فهمتك... فهمتك .
ابتســمتُ لها لأوفر عليها عناء الكلام، كما لقنــوني في الدورة التدريبية للتعامل مع الزبونة.
فهمت منهــا أنها لا تعرف ما تريده. ناولتهــا فواحة خزفية يمكنها أن تختار من بين عشرة ألوان ما يناســبها منهــا، ومع ذلك الحزن المتواري

خلف ابتساماتها الكثيرة والغير مبررة، فضلت لها زيتا برائحة الكاكاو.
لمَ تذكرتها الآن؟ بالطبع تذكرت البارحة و السيدة الغوريلا من عيني هذه السمراء المنقبة العصبية التي تقف أمامي الآن أمام محل سايمون، وتنتظر قهوتها وعصير ابنتها، وتتلفت كثيرا برقبة تحتاج أن يزيت مزلاجها لكثرة ما تطقطق.
يفتح سايمون محل قهوته الأقل من عادية بعد صلاة المغرب مباشرة، وأحيانا إن كانت السماعات تبث أغنية في أذنه يفقد تركيزه ويفتح قبل التسليمتين. يلبس "يونيفورم" أزرق ويعقد مئزرا أبيض حول خصره النحيل، ثم يقول بصوت آسيوي حاد ومتعثر:
- إيس في طلب مدام!؟
قهوته ليست من النوع الذي تفتقده على كل حال، وليس لها نكهة خاصة لتقارنها بغيرها، إذ أنه يطبخ السمك والموز المقلي والبيض المسلوق وقت الغداء في المحل ذاته، و بمقلاة صغيرة يخبئها في أحد الدواليب تحت آلة صنع القهوة!
"سايمون صليب الذهب"، وهذا اللقب الذي أطلقته عليه ، إذ أنه يرتدي صليبا يخشى أن يخلعه فيُغضب المسيح، وبنفس الوقت يخاف رجال الهيئة، لذا يربط منديلا أبيض اللون حول عنقه، يلف به السلسلة، ولا علاقة له بالأناقة إطلاقا، فيما يحتاط في محله بمصحف أحمر مبطن بالقطيفة، ليشهره عند الضرورة .
ورغم مساوئ قهوته، فهذا المحل مزدحم دائما، لذا أحرص على أن أرفع له يدي من الخلف، ليرى ساعتي فهو لا يعرفني إلا بها، فيمرر على الطاولة الجانبية لمكينة الصرف عنده طلبي الذي يعرفه مسبقا. أحاسبه في وقت لاحق، وأحيانا أمد يدي و أحشر العشرين ريالا في جيب صدره لأعود مسرعة لمحلنا. أعترف أنني أفعل هذا أحيانا لأبدو

للناس بأنني جريئة، والحقيقة أن نظراتهم تقول إنني أنجح في ذلك.
هــذه التي مــرت مسرعة الآن بنظــارات طبية وأنــا في طريق عودتي لســدرة، هي خيرية البائعة في محل "زينتي" تأتي للمول مشيا، وترتدي تحت العباءة بجامتها، هي لا ترى في هذا خللا لأن لديها ذلك الجواب الجاهز: "كلاهما بيتي".
ليس بالوقت الطويل ذلك الذي أقضيه بعيدا عن ســدرة، لكنه وقت يمضي ليشجع إحداهن لتقول بثقة:
- تأخرتِ يا أختي... ورانا مشاغل!!
متى تفهم المتسوقات أنني أقاسي مثلهن ضيق الوقت بين صلاة المغرب والعشاء ؟!!

– أُأمريني..!
– عفوا... عندك" قلوســات" تدوم لوقــت طويل، وبنفس الوقت لا تكون من النوع الذي يجفف الشفاه أو يقشرها؟
ســيدة من النوع الذي يحب المصافحة، سلمت بيدها، ثم سألت وهي تدور في المحل. أرى أن امرأة تعرج كهذه، لابد وأن كعبها الضيق يحتك بعقبها ويسبب لها ألما. رفعت غطاء وجهها، وأشارت نحو شفتيها وهي تريني أثر القشور النافرة، لتؤكد لي أنها تعاني من شفة حساسة تجاه أقلام الشفاه. كان وجهها من النوع الشرير الذي كنا نميزه في أفلام الكرتون، قبل أن يتكلم أو يخبرنا عنه أحد.
عرضت عليها لونين في البدء، ولكن لم يناسبها من اقتراحاتي إلا اللون الوردي الدافئ. الآن أُخرج الصــوت الآلي المربح الذي أبيع به عادة، لأبدأ في ملء خزينة سدرة طالما فهمت ذوق الزبونة:
– عندنــا هنا "بــلاشر" خفيف لنفــس الماركة ويعطي توردا بســيطا للخدين، بالمناسبة له رائحة عطرية خفيفة!! وعندنا لوجهك الناعم هذا قلم كحل أزرق رفيع، ويعطي مظهرا ناعما يناسب عينيك الواسعتين، لحظة... هذا للجميلات المهتمات بأيديهن فقط. لون مناكير مأخوذ من لون زهرة التوليب البارد. يبدو من هيئتــك أنك مطلعة، وتعرفين أثر انعكاس هذا اللون على اليد يا عزيزتي!!
غمزت لها وكأننا صحبة قديمة.

ابتســـمت بارتباك وهي تنظر لنابي المعوج، لذا سارعت بإرخاء شفتي عليه. أعادت نقابها على وجهها وهي تقول:
– فعلا أنا أهتم جدا بالألوان وتأثيرها على نفسيتي.
– ممتـــاز... ممتاز. كما توقعت، هذا أيضا ســـيمنحك لون أظافر طبيعية جدا مائلة للوردي، وهو بالمناسبة الأكثر مبيعا عندنا.
أنا متأكدة أنني رمشـــت بعيني مرتين فقط، أثنـــاء دوران هذا الشريط المسجل والصاعد من حلقي.
– شكرا لك... فعلا أنا أهتم بهذه التفاصيل الصغيرة.
تأكدت بنظرة سريعة من محتويات سلة مشترياتها التي تضخمت قليلا. منحني هـــذا المزيد من التقديـــر والثقة، لذا أنا جاهزة لشـــحن صوتي للتمادي من جديد:
– طبعا كل هـــذه الورديات، عليك أن تتوجيهـــا يا عزيزتي بمجموعة "روز" وهي عبارة عن لوشـــن وكريم يدومـــان أطول وقت ممكن مع عطرهما المميز بنعومته وإحساس النظافة المعروف.
وحين رأيتها تحاول قراءة المكتوب على العبوة، ســـحبت لها وجه الممثلة الهندية على غلاف مجلة سدرة الدعائية:
– "راني موكيرجي"!! من لا يعرفها بالله عليك!!
وحين تأكدت من دهشة السيدة، فلعلها لا تعرفها بالأساس، أكملت:
– كـــما تلاحظين هي أيضا تجد الوردي خيارا مناســـبا لها مثلك، وهذا ليس مجـــرد إعلان مدفوع، فلن تغامر ممثلة بحجمها لأجل شركتنا، لذا ثقي بمنتجاتنا...
ضحكت الســـيدة بارتباك مجاملـــة لي، وضحكت معهـــا الجميلة راني موكيرجـــي على الغلاف حـــين ثنيت المجلة، وضحكـــتُ معهما بدون سبب:

– أممـ... يوجد شبه بينكما بالمناسبة، هل سبق ونبهك أحد لهذا؟
التفتت السيدة باتجاه المرآة عن يميني، وعادت تحدق في غلاف المجلة.
بهذه الطريقة أستطيع أن أقنع زبونة حتى لو كانت منقبة، بأن لها إطلالة تشبه "بينيلوبي كروز" لو رغبتُ، وذلك لأن عينيها الظاهرتين سوداوان وحادتا الزوايا.
أرأيتَ! لا يتطلـــب الأمر أكثر من أن تفهم نوعية الزبونة التي تأتي هنا، ثم ســـتبدأ الخزينة في الامتلاء. ناولتني خمسمئة ريالا، وأعدت لها خمسة عشر ريالا. انتهى الأمر، لكن قهوتي بردت!
قبل سنة، وجدت اســـمي مكتوبا في ورقة بها أســـماء موظفي سدرة، بجميع أفرعها بجدة. حاولت بنظرة سريعة، أن أعرف عائلات وقبائل الموظفات. كنت أشير لنهاية كل اسم، بســـبابة مقضوم ظفرها، حيث أننـــي في حينها، لم أكن قد بدأت أولي يديّ أي اهتمام. تحركت بشـــكل عمودي، لأقرأ الألقاب في ذيل كل اســـم، قبل أن يسحب مني كشف الأسماء الكلي هذا، بعد توقيعي في مستطيل صغير، ضمن بقية ما وقعت من أوراق في ذلك اليوم.
سبقها أطول وقت انتظار مررت به، حين أُجريت معي مقابلة شخصية، ســـئلت فيها أســـئلة ســـخيفة، يبدو أن الغرض منها، كان فقط التأكد من ســـلامة نطقي. وقعت عقد موظفة في ســـدرة، براتب أربعة ألاف وخمسمئة ريالا، مع إجازة يوم أسبوعية، وشهر في السنة، ونسبة ترافق الفواتير المسجلة باسمي، وتأمين طبي جيد. لكنني لم أستفد منه إلى هذا الوقت، إذ أن المرض في جسدي، يفضل أن يصطاد في الأماكن المظلمة، وما من تأمين على هذا الشق الروحي فينا. أما عطلة نهاية الأسبوع، فهي بالتناوب بين الزميلتـــين في العمل وبالاتفاق بينهما، ولا علاقة للشركة بها. وبما أن رنيم كانت مصممة على النسيان، فغالبا ما كانت تتخلى عن

يوم إجازتها، وتقول وهي تجعد أنفها، وتلوي وجهها، وتنفق الكثير من الدلع على الجملة:

– لن أشـــيب من الـــدوام كل يوم، أنـــا أدخر إجـــازاتي مجتمعة لليوم «الإيادي».

لهذا كنت أتقبل تأخيرها طوال الأسبوع، بروح جيدة أحيانا.

محل ســـدرة مثلنا. أحيانا ينقبض فلا تمر أكثر من ثلاث زبونات بالفترة الواحدة، وأحيانا يكون ســـبب هدوء المحل أنني أداوم لوحدي في يوم إجازة صديقتي رنيم، وما لم أســـعف نفسي بمجلة من تلك التي تحوي قصصا قصيرة عربية ومترجمة، فسيصبح يومي طويلا وكأنه يجلس فوق كتفـــيّ، ولا يكفيه هذا بل يحيط عنقي بيديـــه الطويلتين وكأنه يريد أن يخنقني. يصبح أقســـى حين لا تمر غالية، صديقتنا التي تعمل في متجر الملابس الداخلية النسائية.

– « غسق»... لا أظن أنك قد سمعت به من قبل! ؟

هو المحل المقابل لسلالم الدرج العادية، ما إن تتجاوز درج الدور الثاني، وتصـــير خلفك صورة جدارية لزوج أحذية دعائية، فإنك ســـتجده في وجهك. فاترينات لدمى بيضـــاء ترتدي قمصان نوم، وتحمل في أيديها سراويلها الداخلية.

– بووووووم!!

ضحكة عالية تلت صوت وقع قفزة الكعب على الأرض.

– أخفتك!! تأخرت عليك يا زهورة! بردتْ قهوتي؟

هذه رنيم تزاحمني بأســـئلة كثيرة متتالية، وتنتزعني من شرودي، وربما لكوني شـــاردة الذهن هكذا، صرت ملائمة أكثر من غيري لصحبتها. الحقيقة قد يمـــضي اليوم كله وأنـــا و رنيم نتجادل كمســـافرتين للتو التقيتا بعد إجـــازة صيفية طويلة، ولديهما الكثير من الأخبار والقصص

لترويانها... ليســت رنيم ســوى كومة حكايات مغطاة بعباءة منقوشة الأكمام، لو نفخت الآن في فتحة كمها ســتتطاير رمادا يلون الهواء، ثم ســتختفي كروائح العطور المجربة على قصاصــات الورق بعد مغادرة السيدات من سدرة.

– كل هذا التأخير يا رنيم، وتسألين إن كنت قد تأخرتِ أم لا!!

بحركة يتصف بها بــرج القوس اللعين تلتف علي رنيم، تقبلني وتعتذر وهي تحضنني وتشــد كفي وتنخرط للأرض وكأنها تتوســل. أحاول ألا أضحك وأنا أرى كيف فزعــتْ فجأة، حين رأتْ مقص الحواجب مفتوحا على الرف، فهي تؤمن ببعض الخرافات ومن بينها أنه إذا نظرت إلى المقص وهو مفتوح، فإنك ســتجلب لنفسك الفقر. تناولته بسرعة، أغلقته وألقت به بعيدا، وهي تظن أنني لم ألحظها، لذا دارت بكل بساطة لتكمل اعتذاراتها التي بدأتها رقصا.

– بالمناســبة... ليس أسوأ من تجاهلك المستمر لتنبيهاتي بألا تطوفي بعد المغرب على جواهر وغالية و خيرية و بقية البنات في محلاتهم، إلا تصنع اهتمامك العارض هذا بغضبي!

قلت لها هذا وأنا أنقر كتفها بســبابتي، وأتصنــع ملامح الحدة، وأعيد للأرفف أقلاما جربتها الزبونة قبل قليل.

– صليت يا أزهار وأجريت مكالمة سريعة...

تقولها وهي تعض على شــفتيها، وتلصق السبابة بالإبهام وكأنها تمسك خرزة.

– بعدها وصفت لســيدة حامل طريق دورة المياه، وتاهت المسكينة في وصفي، فقدتها بنفسي إلى هناك، وطبعا تعرفين بطء مشية الحوامل!

فزرت ظهرها للخلف وأخذت تمشي في سدرة كحامل، وتلهث أيضا مثلهن.

-وبعدهـــا وفي طريق رجوعي، مررت على غالية لأســـلمها حســـاب الجمعية فقط، وجئت إليك مسرعة!
تقول مسرعة وتطلق يديها متوازيتين كطفلة تقلد حركة القطار...
هذه رنيم، طفلة في جســـد امرأة مغربية. لا أعرف أقوى من هذه الكلمة فمعجـــم المجلات التي أقرؤها محدود، وربـــما قراءتها تزيدني بلاهة كما تصفني أمي دائما.
- كاذبة، ونفس العذر في كل مرة !
- لا... المـــرة الماضية اســـتوقفني طفل يبكي و فتشـــت له عن أمه! لا تخلطي الأمور!!
كنت قد بدأت أبتســـم بالفعل، لكنها لم ترني فقد كان رأسها منخفضا يفتش لنا عـــن أغنية في هاتفها. هي ممن يصعب عليهم الجلوس بمكان لا تُســـمع به الأغاني، وأما إذا كنا خارج ســـدرة فتقوم بالغناء بنفسها، وبطريقة لطالما لفتت أنظار المارة إلى حركة فمها، فهي تكشـــف وجهها بخلافي.
- أبعتذر عن كل شيء... إلا الهوى ما للهوى عندي عذر...
هكـــذا تعتذر رنيم، تختار لنا أغنية تشـــبه ما يجول في رأســـها، وتجعلها تتحدث بالنيابة عنها. أما أنا فعكسها في هذا، أخجل من الغناء بصوت مســـموع، لكنني أكتفي بالهمهمة معها. حاولـــت تجاهلها وهي تغني وتسابق اللحن بالكلمات وتقدم عرضا تمثيليا للأغنية، وفي عز تظاهري بالانشـــغال المصطنع عنها وعن طرق اعتذارها الخاصة، خبطتُ بكفي زاوية إحـــدى العلب المعدنية التي تضم منتجات أملاح الاســـتحمام، فجلســـتُ على الكرسي أفرك يدي لتحمر أكثر فجلدي لا يتأثر بسرعة، وأبالغ بالتأفف وتجاهل رنيم أيضا.
ابتســـمتْ بعـــد أن دارت دورتين اختتمت بهما رقصهـــا. وقفت أمام

الكرسي الذي أجلس عليه، وفردت يديهـــا كفراش أمام وجهي وهي ترفع كفيّ إليها، وتنفخ عليهما. اقتربتْ فصعدت رائحة التفاح الأخضر من ذاك الكريم اليدوي الذي جربته أثناء اعتذاراتها قبل قليل:

– قلنا آسفين يا زهورة!!

كانت لذيذة وشـــقية وهي تعتذر وتطمئن خلسة على يدي، لذا وقفت أمامها وكنت أطول منها طبعا وتجهمت وأنا أقول لها :

– علي أن أتأكد أن يديّ لازالتا تعملان!!

خنقتها بيدي وأنا بمواجهـــة الباب. أظن أن ضحكنا والألم الذي تتقن رنيم تمثيلـــه وهي تصرخ وتطلب النجدة، هو مـــن جذب هذه الزبونة القادمة إلينا بعد أن كانت قد تجاوزت سدرة ببضع خطوات.

– هه... الحمد لله وأخيرا وصلت لســـدرة، تهت بـــين الأدوار قليلا يا بنات.

أشارت الزبونة بيدها للخلف وهي تضع الأخرى على صدرها وتلهث من التعب، أو أنها تمثل هذا.

– إذا ستحصلين على عرض خاص من سدرة لأنك تعبت قبل الوصول إلينا.

قالـــت لها رنيم هذا، وهي تقودها لداخل المحل ولركن «وصل حديثا» بالتحديد.

أصـــوات الأدوات المنزليـــة التي ابتاعتها الســـيدة في أكياســـها بدأت تتصاعد، يبدو أنها هي الأخرى فرحة بالعرض:

– يخليكم ربي، سمعت أن عطر «إكليل سدرة» نزل الأسواق؟

تحمســـتُ وقمت من مكاني حيث كنت أفرك يـــدي على أمل أن تحمر، وقلت للسيدة التي صارت بمواجهتي:

– أهاا... صحيح نزل بدبي، أما عندنا فسيكون متوفرا خلال أسبوعين

تقريبا. تفضلي هذا كرت سدرة إذا رغبتِ أن تتصلي قبل مجيئك في المرة القادمة، لتوفير وقتك وجهدك .. ونحن بالخدمة.
ملمس يدها كالخيش وهي تأخذ الكرت من يدي.
تجاوزتني رنيم ووقفتْ أمام السيدة بعد أن تلقفت زجاجة من أحد الرفوف، أشك أنها نظرت إليها حتى، وهي تقول:
- لا لا ... لن نسمح لك بتفويت العرض الذي منحتك إياه سدرة، لا يعقل أنك سمعت بإكليل سدرة ولم تسمعي بعطر زهرة الفريزيه!!
- أأأ..ممم .. سمعت أنه خفيف، ويختفي أثره سريعا!
حقيقية تلك المعلومة التي قالتها السيدة، إلا أن رنيم ابتسمت بتعجب، وهي تبخ على يد الزبونة بعضا منه، وتقول بكل ثقة:
- خفيف !! هههه... خذي لفة بالسوق وارجعي إلينا بعد أربع ساعات أو بكرة حتى، مهم جدا أن ترجعي إلينا، وأؤكد لك أنك سترجعين، وفي هذا الأثناء سأجهز لعودتك عبوتين منه، وهدية تعبك فوقها.
لا أعرف لمَ اكتفيت أنا بطلب السيدة الغير موجود وناولتها كرتا، ولمَ تصر رنيم على إقناعها بسواه!! ولماذا تنجح دائما في إقناعهن بما تريد هي، لا ما جئن سدرة من أجله؟

(من أين للبشر كل هذا اليقين بأن من يرونه لا يراهم!! حسنا سأحاول تجنب الحديث عن مآسي مرايا الحمام أمام فضول البشر المهلك تجاه أجسادهم، تكفيني مأساتي أمام ناب أزهار المقلوب ووجهها المتعكر كل صباح، ووجوه الزبونات المتعرقة، والحواجب الخفيفة الغير متوازية. وكل الألوان البشرية المتنافرة... ولولا وجه رنيم الأحب من بين كل ما ينعكس عليّ، لكنت الآن مصابة بشروخ أكثر من جراء ما أرى.
الوجه الجميل يجعل بصيرة المرآة أوضح، وعمرها المصقول أطول، لذا نحرص أن نحتفظ به، بينما نترك الوجه القبيح يمضي متبوعا باللعنات.
هذا ليس كلامي وحدي، هذه قاعدة مشتركة بيننا نحن معشر المرايا.
رنيم ينطبق عليها ذلك، عيناها خضراوان، جسدها ممتلئ قليلا من الأسفل، لديها بطن صغير لا يظهر إلا حين تجلس، صدرها متوسط الحجم يشبه صدور العارضات على صفحات هذه المجلات في سدرة، هي أقصر من أزهار قليلا، طولها قرابة مرآة دولاب ملابس متوسط الحجم، من تلك الدواليب التي التقيتها في أيام وصولي إلى الميناء. سيقول البعض أنني أتلصص على أجساد العاملات والزبونات في سدرة، لكن قبل أن يسوء الظن بي أكثر، على البعض أن يعرف أن الأمر معكوس تماما، هن من يملن إلي حتى وهن معصوبات الرؤوس بذاك السواد، وكلهن... أقول كلهن يخبئن أطفال المرايا في حقائبهن.
رنيم تحب التمثيل، تقف أمامي وهي تحمل زجاجة عطر طويلة،

وتتصنع كلاما وحوارات عن شـــخص ربح جائزة كبرى في مســـابقة، تفعـــل هذا حين تكون لوحدها في يوم إجازة أزهار، لذا لا يســـعني إلا مراقبتها والتولع بحركاتها أكثر .

دخول أزهار هنا كان لعنة علي، فقد شُـــطبتُ يوم وصولها، و لولا طبقة طلاء الحماية الأزرق المتمدد على ظهري، لتوسع الشطب ولأصبحت في وقت قصير زجاجا متناثرا في مكب ما. كما أنها كلما وقفت أمامي تتعمد إلصاق قصاصات ورق صغيرة وملونة أعلى جبهتي، لتذكرها بأمورها التافهة، لم لا تلصقها بجبهتها طالما هي من شؤونها الخاصة!!

تعرفـــت أزهار على رنيم قبل عام تقريبا، عام واحد ليس قليلا مع دوام ســـتة أيام في الأسبوع، وثمان ساعات في اليوم، في محل لا يزيد طوله عن أربـــع مرايا يافعـــات، وعرضه عن خمس مرايا من ســـني. وقت طويل لزميلتين تؤجلان شهر إجازتهما السنوية، بانتظار حدث شيق قرب مرآة عجوز.

أتذكر الآن أول صدمة تلقتها أزهار من رنيم هنا في سدرة، تلك المرة التي أوشـــكت أن أقع لولا حفظ الله لي، وذلك حين عادت أزهار بمؤخرتها الكبيرة واصطدمت بدولاب جديد لم تثبت أرجله بعد بالأرض، خطر ببالي فورا قصة تلك المرآة التي تشظت في الميناء أمام جمع من المرايا...

اللعنـــة... اللعنة، هذا ليس وقت اســـترجاع تلك الأيـــام!! فقط حين أكـــون جاهزة للحديث عن تلك الفترة في المخازن ســـأفعل. لكن مهما يكن ما حدث لي في ذلك اليوم من تشـــويش، لا يمكن أن أنســـى ذلك الشاب الوسيم الذي دخل سدرة، هو أجمل من أن تفكر أزهار بفتح زر واحد أمامه لا قدر الله، وإن قدر وحدث أتمنى ألا أكون موجودة معهما في نفـــس المكان، أو ليت المكان يكون حينهـــا مظلما. يومها كانت تقف زوجته إلى جواره، وكانت مقبولة قياســـا بأزهار، أما هو فكان ساحرا.

تناقشا حول هدية تبدو لقريبة لها، واتفقا على واحدة من هذا الرف الذي على يميني. كان في حينها مخصصا لمستلزمات العرائس، دفعت هي قيمة الهدية، وغادرا بعدها.

يومها جرب مشـــطا ريثما تجيز الشـــبكة عملية الـــشراء لزوجته، جربه أمامـــي، لكنني مرآة عجـــوز توقفتْ عن الإعجـــاب بالرجال. التفت بعدها إلى البنات وهو يعيد المشـــط لمكانه وغمـــز في تلك الجهة، فخلع قلب أزهار ورنيم بنظرة واحدة.

حين غادر الرجل وزوجته، قفزت رنيم إلى المشـــط الذي جربه، وقالت وهي تنزع طرحة شـــعرها، وتجلس على الأرض بـــين الرفوف، كي لا يراها المارة من أمام سدرة:

– متى توفرت لكِ الفرصة، سرحي شَعركِ بمشطه، أمّنِي لرائحتكما على الأقل هذا العناق!

كان مشـــهدا صادما بالنسبة لي، أن تنزع طرحة شـــعرها التي تتمسك بها إناث البـــشر، ثم تصرح بإعجابها برجل رحـــل مع زوجته، والذي بالصدفـــة لاحظتُ أن أزهار تغار عليه من رنيم، ثم فكرة أن يخطر ببالها أن تستخدم مشطا قام هو بتجربته، وأن تعلن عن هذا العناق هكذا أمام صديقتها... يالهذا الجيل، يا لهؤلاء البشر!! لا أذكر أن مرآة من ســـنها سبق وأعلنت عن إعجابها بهذا الشكل، رغم ما عرف عن جرأتنا نحن المرايا.

شَـــمّته قبل أن تهبط به وسط شعرها الأسود الكثيف، وبدأت تمرره من أعلى رأسها حتى آخر شعرة منه، سمعت صوت احتكاك المشط بفروتها وشـــعرها الغزير، وهي مغمضة العينين تتنفس بصوت مسموع. كان واضحا أنها تجلس معه في مكان آخر، أســـتطيع أن أقسم على هذا بكل بلورة في زجاجي. الأرجح أن أزهار التي ابيضت شفتاها وهي تراقب

رنيم، قد رأت ما يجول في خيال رنيم وهي تمشط شعرها بتلك الطريقة، لذا كانت ترمش ببطء وبلسان ثقيل يظهر رأسه اللامع من بين شفتيها:
-كفاية... قطعت شعرك كـ فـ ا يـ ة!
لماذا تأمرها بالتوقف وهي مستمتعة بهذا؟ أعترف أنني لم أفهم النساء يوما.)

أثناء وقفة رنيم أمام المرآة، بعد أن غادرت السيدة المضحوك عليها بشراء عطر«زهرة الفريزيه»، تذكرت المرة التي دخل إلى المحل شاب برفقة زوجته العجوز، غمز لنا وهو يسرح شعره، نسيت وجهه الآن ولم أنس طريقة تقليد رنيم له بعد خروجه، ومحاولتي البائسة لتقليدها حين عدت إلى البيت وتحدثي مع أحلام طوال الليل عن هذا الموقف. ورغم أننا لسنا مقربتين جدا كما يحدث عادة بين الأخوات، لكنني كنت بحاجة لأن أعيد تمثيل ما رأيت وإلا سأنفجر في نومي.

وصفت ما حدث لأحلام... أعدت تمثيل حركات رنيم، جلست على أطراف أصابع قدمي وكعبي للأعلى. ألصقت ساقي بظهر فخذي، وكان هذا مؤلما جدا، شددتُ حمالة صدري ليبدو شبيها بصدر رنيم الأصغر حجما، أخذت مشطي المتآكل الأطراف من فوق تسريحتنا البنية، وقلدت حركاتها في التمشيط، وأنا أحك فروة رأسي بقوة، لأكرر نفس ذاك الصوت في سدرة. أغمضت عيني وملأت نقصي بصورتها في خيالي فصرت هي لثوان. قبضت شفتي، وأطلقت ابتسامة لئيمة جهة اليسار، وبللتهما بريقي لتلمعا كشفتي رنيم، وتنفست كمخنوقة لا كمستلذة، إذ أنني أخت كبرى لهذه المراهقة، ولا يصح أن أفعل هذا أمامها. كان مشط قدمي يوشك أن يتمزق من جلستي المعلقة، لذا فتحت عيني لأنهي ذاك العرض وأنا أعود للخلف وألقي بثقلي كله فوق مؤخرتي على الأرض. لم يزعجني أن أحلام كانت ملتهية بهاتفها

منذ البداية ولم تلق بالا لكل لتلك المسرحية المعادة. ولا للخلل الطارئ في قدمـــي، ما أزعجني حقا بعد هذا العرض، هو أن قاع مشـــطي كان متكدسا بشعر رأسي الخفيف والمتساقط بغزارة.

نغلق سدرة في العاشرة والنصف مســـاء، أمر بالمحلات المجاورة أثناء نزولي للـــدور الأرضي، وأي باب مفتوح أهز رأسي للأعلى هزة واحدة باتجاه البائع أو البائعة فيه بمعنى«تصبح على خير». في ساعات الصباح تـــأتي نفس الهزة بمعنى«صباح الخير». في بعـــض الأوقات أهزه مرتين من اليمين لليســـار لأقول:كيف هي الأمور اليوم؟ أما إذا رفعت يدي للأعلى وفركت أصابعي فهذا يعني ببساطة: «عندك صرف»... هي لغة تعلمتها في السبعة شهور الماضية، وأصبحتْ أقل صعوبة مما بدتْ عليه، حين كنت أراقب رنيم وغالية وهما تقومان بها.

قبلها... لم تبهجني صحبة رنيم ولم تضجرني،كنت متحفظة جدا، وكانت هي أبعد القريبين مني، ربما لأنني أكبر البائعات اللاتي أعرفهن هنا، فأنا في السادسة والعشرين، أحضر معي إلى سدرة في الفترتين أكلي ومجلاتي، وأشـــغل وقتي بالتفكير في هامش الربح الذي يعود للمحل، والنســـبة والنقاط التي تعود لي، وأمور بسيطة كنت أفعلها كي لا أضطر لمشاركة زميلاتي البائعات مشـــيهن في المول أثناء وقـــت الصلاة، أو ثرثرتهن في المصلى، كان هذا قبل أن تفيض رنيم علي وتغلبني على نفسي:

– جريك من البوابـــة رقم واحد صعودا من الدرج العادي وصولا إلى هنا، دون أدنى التفاتة أكسبك تسمية خطيرة يا أزهار!

كنت متوترة من كســـل نطقها وهي تلفظ كلمة خطيرة، دامت اللحظة وقتا طويلا وهي تحرك نظرها فوق عشرين ســـنتمترا من أرضية سدرة،

لكنني تظاهرت بعدم الاهتمام، قبل أن أرد:
– تسمية؟ حلو، حلو... متفقتان إذا. أنا أيضا لي تسمياتي.
لا أظنها سمعتني بوضوح فقد كنت أتكئ على قبضتي، وخدي يأخذ وضعية الملكوم.
– هههه... هذه ملامح الضجر أو القلق؟
أصابني أمر تافه حين قالت رنيم هذا، ليس بدون سبب كما تظن، بل لأجل ضحكتها.
لرنيم حركة لاحظتها منذ أول لقاء بيننا، فهي قبل أن تضحك، تضم شفتيها للأمام وتطلق ابتسامة مائلة لليسار، تلف رأسها جهة اليمين وتنظر من زاوية وجهها اليسرى بعينين خضراوين ضاحكتين، تحدقان بزاوية حادة. يصبح وجهها في هذا الوضع مكيدة لذيذة، وكأنها توشك أن تصور إعلانا تلفزيونيا عن خبث النساء.
– باختصار يهمك أن تعرفي ماذا يطلق عليك حراس الأمن والصديقات في المول؟!
– عرفيني حضرتك بما يسمونني يا رنيم؟ لن أستغرب أن يكون للاسم علاقة بكوني لا أساهم في تهريب الشباب«العزابية» إلى المول، في أيام العطل... صح؟
لم يكن لدي ما أفعله في ركن المرآة، لذا قمت من مكاني باتجاهها، وفي طريقي لاحظت أن يديّ ترتعشان، فأعدتهما للخلف وعقدتهما أسفل ظهري.
– معصبة؟ أنا أمزح معك يا عزيزتي، ثم أنا أساعد من يستحق وعليه علامات الرقي، وهذه موهبة تحتاج وقتا طويلا قبل أن تكتسبيها، لذا لا يلومك أحد على هذا!
– أعرف، أعرف أنك تمزحين... أنا مواليد برج الجدي يصعب علي أقناعك

بأنني مرتاحة حتى لو كنت مرتاحــة، لكن بجد أحب أن أعرف لقبي بين البنات، أنا مثلا اسميك بيني وبين نفسي «حلاوة قطن».
– حلاوة قطن!!
للتــو ابتكرت لهــا هذا الاســم. صحيح صرفت بعض الأســماء على الموظفين هنا وهناك... لكن هذه الرنيم لم أكن قد سميتها قبل الآن.
صفّرت رنيم بشــفتيها أغنيــة تملكتني رغبة بأن أعرفهــا، لأفهم الأثر الذي تركه كلامي عليها فألهمها إياها، في هذه اللحظة بالتحديد، لكنها تجاهلت غباء نظراتي.
قامت لتبــدل أماكن عبوات العرض والتجريــب، في رف هرمي أمام الباب مباشرة. تنزل من كان مصفوفا في الأعلى للرف الأوسط، وترفع من كان في الأسفل للرف الأعلى. تذلها كما تذلني وهي تتمهل بالرد على سؤالي، تنقر بأصابعها أغطية العطور، وتتردد فيمن سيرافق يدها لمكرمة الوقوف في الأعلى:
– في كل شــجر عائلات تدليلي المتفرعة من جدة، للمدينة، للرياض، لم يعجبني اسم كهذا «حلاوة قطن».
كانت ترده بهــدوء، وكأن تلك الحلوى الوردية تذوب وتســيل بين شفتيها.
– من فضلك... أصر أن أعرف اللقب الذي أطلقتموه علي؟
هــذا بالضبط ما قلته لها، لذا لا مبرر لضحكتهــا المصطنعة إلا إرباكي أكثر. التفتــت نحوي، وحاجباها مندهشــان وكأنني شــتمتها للتو!
اقتربت كثيرا حتى صار الأمر محرجا لي:
– مــن فضلك! قلتِ... من فضلك!! خذي برج الجدي وحدّتك هذه لأقرب مخرج طوارئ بالمول، وارم بها من هناك يا أزهار!
قالت هذا وهي تشير لجهة مخرج الطوارئ بالدور الثاني الذي نعمل به.

عادت لمكانها، نفخت صدرها وهي تلم الهواء من سدرة لأختنق أكثر، ثم نفثته وهي تتظاهر أنها تقرأ شاشـــة جوالها، قبل أن ترفع رأسها وهي تقول بسرعة، وكأن الوقت الطويل الذي تسحقني به سينفذ منها فجأة:
– نصيحة... إن كان يلائمك العمل في ســـدرة، خذي الأمور بطراوة أكثر لتستمري هنا!
لم أفكـــر إن كان هذا تهديدا أو نصحا. لم أفكر بالكف التي تحمل الوردة بقدر ما أشـــغلني عطر الوردة نفســـها، كنت أحاول أن أميز رائحتها حين اقتربت مني قبل قليل، أتشـــبه الرمان؟ أهذا السكر اللاذع رمان؟ وجهها مخمليٌّ كبودرة وجه سائبة، ولم تسعفني كل المجلات التي قرأتها، لاختصار تلك اللحظة قبل قليل.
يبدو فعلا أنها لم تكن تتشـــاغل، بل كان على شاشـــة جوالها ما يشغلها، إذ أني ترقبـــت أن تهطل ضحكتها الجانبية تلك التي ترد بها على صمتي أمامها، لكنها لم تفعل إلا بعد ربع ساعة من كلامنا هذا.
– وعلى فكرة يا عزيزتي يفترض إن سُـــئِلت عـــن عمرك أن تردي على الســـائل بأن الأطفال وحدهم من يُسألون عن أعمارهم! بدون التبرع بذكر أرقام حقيقية على الإطلاق، لأن الصدق الزائد سذاجة يا حلوة!!
– والصدق الناقص كذب يا رنيم.
– هه! إلا بالعمر يا عزيزتي.. صدقيني من الغباء قول الحقيقة بشـــأنه، خصوصا إن كان شكلك يعطي عمرا أقل مما هو عليه.
رغـــم عدم قناعتي بكلامها إلا أنني أضفت هـــذه النصيحة لتلك التي ســـبقتها عن الحدة وعملـــتُ بها،كما نفذت رنيـــم بدورها رغبتي حين طلبت منها أن تتوقف عن مناداتي بعزيزتي.

أنا ثمرةٌ ولدتُ بالصدفة في الطرف المنحني من الغصن ، لذا كلما
كبرت ثَقلتُ... كلما ثقلت دَنوتُ من الأرض.

النقص الحاد في المجموع وفي درجة السلوك، فرض علي نسيان أمر الجامعة، وخوض تجربة ميدان العمل. في البدء توظفت كمدخلة بيانات في مجمع مدرسة أهلية قريب من بيتنا، ولم أشعر فيها إلا أنني مقيدة كل صباح بمهمة التفتيش لنفسي عن عذر مقنع للغياب. عملت أيضا في قسم الاستقبال بمستوصف موقعه بحي راقٍ مقابل للبحر، لم يسمح لساكنيه بكثرة المرض، لذا كنت أقضي معظم يومي متكئة على دولاب ملفات فارغ من الأسماء. أتصفح مجلات وأحتفظ بقصاصات منها في ألبوم أزرق ينام تحت سريري في المنزل، وأقرأ قصصا قصيرة مرفقا بأعلاها لوحات مرسومة وصور حزينة، فإذا جذبتني الصورة قرأت القصة وحاولت أن أربط بين النص والشكل. أقرأ حتى القصائد التي تأتي من شعراء مجهولين في بريد القراء في آخر الصفحات، وأشعر بهم أكثر، فهم لاشيء مثلي. حين أرى اسم شاعر يتكرر في أكثر من عدد أقول في داخلي:

– أووووه ...هذا صاحبنا ذاك!!

ثم أرفق قصيدته الجديدة بالقديمة التي سبقتها في ألبوم القصاصات، وهكذا أراقب حتى تطور إخراج الصفحة وأسماء معديها إذا ما تغيروا. في ثلاث سنوات أصبحت جزءا من أشياء كثيرة، لكن لم يكن أيٌّ منها جزءا مني، حتى اقترحت علي إحدى الزميلات أن أتقدم معها لهذه الوظيفة، ففعلت.

لــولا حبي لمراقبة المعلمات لما حدث ما حــدث في الثانوي، ولما خسرت درجة الســلوك تلــك، والكثير من التركيــز الذي أفقــدني العديد من الدرجات، وفرصة التحاقــي بالجامعة. ولكن كما يقال دائما: رب ضارة نافعة، فلولا ذلك السلوك المشين، لما وصلت إلى هنا...

نعم أحب الغرق في روائح العطور والفواحات، أحب خدمة ذوق نساء أخريات، أن أهبط رحمةً على جســد متعب، أو رفاهيةً زائدة على جسد مدلل. وأحب تجربة الكريم الدبق على كف جافة، أحب اقتراحاتي حين يؤخذ بها، وتوضع في كيس مدفوع الثمن، لأن نصيحتي مكلفة. أحب سطوتي على النساء، وأحب خدعا من قبيل «هذا يليق بك أكثر».

لم تعارض أمي عملي هنــا كما فعل أخويّ بادئ الأمر، ربما لأنها مصابة بمعدة حمضية تثور عليها عقب أي نقــاش لا نوافقها فيه الرأي، لذا لم تجادل فكل ما قالته:

– إذا كانوا من النوع الذي يتغاضى عن نقص درجة الســلوك والمعدل فلمَ لا!! لكن اعطيني وقتا لأفكر بالموضوع وأسأل الجارات.

حسنا... من لم تكن أمه ممن لا تضيع الفرصة لتذكيره بأخطائه، فليرفع يده!!

ثــم مع موجة رفع الإيجارات في جدة، ومــع إصراري بأن أربعة آلاف وخمسمئة ريالا، ستعيد إلينا القدرة على الادخار للغد ولزيجات أخويّ، وفي اللحظة التاريخية التي كنا مجتمعين كلنا في الصالة، وأنا وأمي وأحلام فوق صينية خلية نحل، نقطع العجينة الصغيرة في حلقات دائرية محشوة بجبن متقشف، ونرصها متجاورات، ثم مع الوقت الذي يبدأ العجين فيــه بالتضخم، تحديــدا في اللحظة التي يتزايد فيهــا الملل، حين تأخذ كرات الجبن في يد كل منا شــكلا مختلفا، فيما تفقد قطع العجين شكل الدوائر... وافق جميع أهلي على فكرة عملي.

محسن من لازمني في بداية عملي في المول. هو طالب في السنة الثالثة من الجامعة ويصغرني بثلاث سنوات. خصص لي الخمسة الأيام الأولى، ثم قل حماســه على ما يبدو، حين ارتجلت له صابونة صبار وعسل، لعلاج ندبة في خده. طبعا لم أكن قد اكتســبت خبرة بعــد، ولكن حماسي كان ينتشر بسرعة. بعد فترة قَلّت زيارات محســن مع تنويه، لا غموض ولا وضوح فيه، أنه قد يأتي في أي وقت للمول، مرفِقا كلامه بتحذير: «كوني دائما مستعدة».

تبادل مهمة الأخ الغيور، مع أخي الأصغر «الحصّالة»... أقصد يوسف، الذي قرر عدم مواصلة دراســته الجامعية، مــصرا أن هذا لا علاقة له بكونه قليل الكلام ويتأتى، ولا عجب إن أصر على ذلك، فالعناد عادة متفشية في عائلتنا. أمي أيضا تصر على أنه لا علاقة لموت أبي بتأتأة يوسف أو كوابيســه، حتى حين قال طبيبه أنه لابد من علاقة قوية بين مشاكل النطــق عنده، وكونه كان أول من صرخ بأمي عندما رأى أبي لا يتحرك من مكانه، حين تسلل من الباب ليوقظه فجر ذلك اليوم المشؤوم. أمي اكتفت يومها بأن تســأل الطبيب ببرود وهي جالسة أمامه، وهي تتفقد شهاداته المعلقة على الجدار بنظرة جانبية لا تخلو من الازدراء، خصوصا حين انحنت لتحك بصوت مسموع سمينتها الجافة:

– بكم باعوك هذا الجدار يا الدال؟

معرفة أمي بالاختصارات قليلة، لــذا أعتقد أنها ظنت أن حرف الدال لوحــده يعد إهانة، وربما هو كذلك وأنا مــن لا تعرف! لكن ما أعرفه تماما أنا والجارات، أن أمي لن تقبل بأن يكون لأبي هذه الأهمية والتأثير

على لسان يوسف! هو أضعف من أن يكون صدمة لأحد.
يعمل يوسف بشغف مع مجموعة شباب، تقوم بتصميم المواقع الالكترونية والمدونات، ومشاريع أخرى صغيرة، ولهذا اليوسف ملكة خاصة جدا، إذ أنه يمكن أن يرى مصادر النقود حتى في الظلام، وكأن لها ملصقات تضيء بلون فسفوري لافت، لذا أسميه الحصالة، وتسميه أمي «مُرْزق».
بقيت أمي تتعامل مع عملي بنصائح «مُفرّزة». تسخنها في بعض الأيام في الميكروويف وتصبها في أذني، وأتعامل بدوري مع هكذا نصائح كما يتعامل مدخن مع تحذير كُتب على عُلبة سجائره، فلا شيء من هذه النصائح يفسد علي حياتي.
آه... نسيت أختي أحلام «لبابة الخبز». أُسميها بهذا ليس لأنها بيضاء سمينة طرية ومدورة فقط... بل لكثرة ما تلتصق بذراعي أمي.
فرحت أحلام بخصوص عملي، ظنا منها أنني سأعود محملة بالهدايا، وأقلام الكحل، وعينات العطور الصغيرة المدسوسة في حقائب من القطيفة، ولها سست ذهبية كتلك التي حصلت عليها أمي مرة كعرض مع زجاجة عطر. طبعا كان هذا قبل أن أصيبها بصدمة ألا هدايا للعاملات في سدرة.
أحلام في الصف الأول الثانوي، تحيا ميتة أحيانا، وتنتشي في أحيان أخرى، لا تنكشف كلها أمامك، فلطالما بقي جزء منها مغطى بالصمت، وللمفارقة ليس لها سوى حلم وحيد لا يتزحزح من مكانه، ويجعلها تتصرف كما لو أنها تعيش وتدرس في ظلام، على أطراف هذا الحلم الكبير الذي لا يتحقق، ألا وهو أن تنقص وزنها، ولا شيء غير ذلك.
لا أعرف أين ذهبت بقية الأحلام من اسمها! ربما في هذا فقط نتشابه كأختين، فأنا أيضا لا أعرف أين ذهبت الأزهار مني.

فتحتُ سـدرة قبل رنيم كالعادة. وضعت بصمتي أعلى شاشـة ماكينة المحاسـبة لأسـجل وقت حضوري اليومي، فيما كنـت أراقب حقيبة «مايـكل كورس» مقلدة بنية اللون، معلقة على كتف امرأة تتجول أمام باب سـدرة، ثم وهي خارجة بكيس أزرق من محل الملابس الرجالية، لتتوجه بعدها إلى متجـر ملابس الأطفال، ولتسـتريح الحقيبة بعض الوقـت في محل العم وديـع. طبعا قد تغيب عن عينـي وقتا، ثم تظهر أمامي فجأة وهي تنزل السـلالم الكهربائية على نفس الكتف... كتف امرأة بالـكاد تتحرك لكثرة الأكيـاس التي تحملها بيديها. حسـنا أنا أختلف عن غيري، ولا أموت هما من مراقبة الناس.

وصلت رنيم بعدي بربع سـاعة. قبلتني وهي توقع حضورها ببصمة على الشاشة، وابتعدت عني خطوات، ثم التفتت عائدة إلي وهي تحدق في وجهي،كأنها سـتتراجع عـن القبلة التي منحتنـي إياها قبل قليل. نظرتْ جهة خدي الأيمن بحاجبين متعرجين يقطران عذوبة، نبشـت اهتمامي كله حتى أنني التفت جهة المرآة، ثم ابتسـمت تلك الابتسامة الجانبية الماكرة لتأكل قلبي وهي تقول:

– العنود أكبر من سعاد بالمناسبة!!

قلت لها مرتاحة بعد أن هوى قلقي الذي كان قبل قليل:

– غريبة... قبل أن أخرج من البيت ظننت أن سعاد هي الأكبر!

ردت علي رنيم ساخرة بمد لسـانها في الهواء كطفلة، بينما كنت أقترب

من المرآة التي لا تُريني وجهي إلا قبيحا، لأتأكد من كلامها عن الحبتين.
(يا للوجه!! ومطرز اليوم بالحبوب، اللعنــة على قلة حيلة المرايا وعدم قدرتها على الهرب!! ثم تتهمني أنا بتشــويه وجهها! العنود وسعاد هما حبتــان تبرزان في وجه أزهــار مع دنو موعد دورتها الشــهرية. تبدلان مواقعهما في كل شــهر، لكنهما تلتزمتان بالحضــور معا. والجميلة رنيم تكرههما لما يصاحبهما من مزاج ســيئ لأزهار، لذلــك أطلقت عليهما أسماء صديقاتها البغيضات في المرحلة الثانوية: العنود وسعاد)

في البيت تصر أمي على أنني هشة ولم أفهم الحياة بعد، طالما أنني لازلت ألسع من ماء يتسلل إلى إبطي الدافئ، كلما رفعت صحنا لأضعه في دولاب الغسيل المعلق فوق حوض الجلي، هكذا هي أمي تحكم عليك من التفاصيل التي لن تخطر ببالك.

و بكل فخر أقول لك إنك لن تسمع من هذه الأم عبارة تباه واحدة عن الزمن الجميل الذي كان، فهذا يقتضي أن تحضُرَ ذاكرتها، وهو غالبا ما لن تسمح به أبدا.

أيام المزاجات الجيدة تجلس أمام طاولة المطبخ، أي عمل يخطر ببالك ستجلبه لهذه الطاولة لو أرادت ذلك، فالأمور على ما يرام طالما أنها تجلس في المطبخ. نضع وسادة خلف ظهرها وأخرى تحت قدميها، ليتسنى لها ترتيب معظم أعمالها وهي جالسة في مكانها. نقرب لها الأشياء وهي تقوم بالبقية، وطبعا تمارس النقد والتوجيه من حين لآخر، فهذه الفرصة التي لن تفرط بها أي أم، فما بالك بأمي التي ستطلب الشرطة، ما لم تصغ لنقدها القاسي الموجه إليك.

أحيانا لا يبقى في المطبخ شيء نقوم به أنا وأحلام، غير مراقبة السقف من الملل، وتكون أمي جالسة أمام الطاولة المستطيلة، لا يتحرك فيها إلا حلق أذنها الذهبي الطويل المعلق في نهايته كرة، وكفها التي تقطف أو تقطع أو تُتَبِّل، وأحيانا نهدها الأيمن يشارك في الحركة، إذ أنه موصول بإبط اليد التي تعمل. قميص أمي أقرب إليها من جلدها، فلحم ذراعها

متهدل للأسفل وبعيد عنها.
أما لو سألتني عن بقية أمي؟!
فموصد خلف ذاكرة تستنشـــق الهواء في مكان أبعـــد ما يكون عنا. إذا فرغت يدا أمي مما يؤكل، تبدأ في ترتيب المســـافة بين الصحون بحسب أحجامها، بعضها فـــوق بعض وبعضها مجاور لبعض، عمل دقيق جدا كرص حبات الضومنة، في حفلة تنتهي بتساقطها جميعا.
نبـــاشر أنا و أحلام بنقل ما ترتبه أمي بهدوء وحذر إلى الدواليب. وتبدأ من مكانها في حساب تقارب المسافات بدقة:
– إلى اليمين قليلا يابنت..! لا لا لا هذا كثير، لليســـار قليلا...عيونك في إجازة يا حمارة ؟
مهمة أخرى منوطة بنا أيضا، وهي الأصعب من بين كل المهام، ألا وهي مســـاعدة أمي على الوقوف وتجاوز الطاولة نحو الصالة أو غرفتها، ثم نلحقها بكرسي المطبخ وطقم الوسادات، لتضرم النار فينا قرب دولاب يقف منتظرا في مكان آخر.
بخـــلاف طباعها، هنالك أمر آخـــر باق على عهدك بـــه في أمي... إنه عطرها، مزيج المارشميلو واليوسفي وخشب الصندل، لذا لا أجد اسما حركيا أصفها به أدق من : مارشميلو.
هل قلت لك أن أمـــي تتجاوز المائتين وعشرين كيلـــو جراما، في آخر وقوف لها على الميزان في رمضان الفائت؟ هل أخبرتك إنني متأكدة تماما إن وزنهـــا ازداد عن هذا كثيرا، إذ أنها لم تعد ترتدي معظم ثياب الســـنة الماضية؟

عيب الأسرار أنها تحب الصحبة، لذا خلال سنة من عملي هنا، انتهينا أنا ورنيم من تبادل أدق أسرارنا، وحين فاض الوقت عن أسرارنا، علمتني التصفير. تدفع بلسانها إلى الأمام، تحيطه بشفتيها، وتنفخ فيه من روحها، ثم تطلقه مدويا في المحل، على إيقاع أغنية «على البال». تشير إلي بعينيها لأشاركها الغناء:

- صوتي لا يصلح للغناء... غنّي أنتِ.

الحقيقة أن عينيّ تدمعان كلما غنيت. لا أعرف لمَ؟ يحمر أنفي وتسيل الدموع فجأة، حتى لو كنت أردد أغنية مبهجة!! أما صوت «رنيمي» فإنه يشبه صوت الفنانة المصرية شادية، به من الدلع ما يسد كل ثغراته. هل تتصور صوت شادية ودلعها وهو يتغنى بـ: «مدري إلى اليوم/ وإلا الزمان أنساك يا قلبها / قلبي ، مدري إلى اليوم توله على مضناك/ وإلا انتهى حبي»؟

الشوق لمن نفتقدهم هاجعٌ كسِرّ، كشاماتنا تحت الملابس. وحده الجسد حين يفيض عنه الوجع تفضحه أغنية أو لحن كهذا، ورنيم تفتقد إياد ، ولدها ذا السبعة أعوام.

بالأغاني والعطور والضحك، تنحني رنيم على قلبها كجدة تجيد التطريز، ترتّق الجراح جرحا تلو جرح، وتحاول أن تصنع من الندب حكايات نصرٍ فوق بياض قلبها، أو على الأقل حين كنت أصدق أنه أبيض بحق .

تزوجت وهي في السابعة عشرة زواجا تقليديا. جيران يقيمون يشكل

مؤقت في جدة، دلوا آخرين عابرين لجدة أيضا، على بيت العم «نجيب». رأوا في بياض بشرة رنيم ونعومة شعرها وخضرة عينيها، فرصة مناسبة لعائلة ناجحة وثرية ينقصهـــا الجمال فقط لتكتمل. بعد الاتفاق المبدئي سخروا من والد رنيم حين قال:

– «قراءة الفاتحة» يوم الخميس، والمِلكة ســتكون في الحرم باليوم الذي يليه.

– ما هذه البدع يا نجيب هداك الله؟

– عادتنا يــا أبو ماجد. نقرأ الفاتحــة في البيوت، ثم نحــدد يوما آخر للملكة، ونفضــل أن تكون في الحرم، أو في جوار الحبيب بطيبة الطيبة، ليطرح الله البركة على الزوجين.

بهذه البســاطة يتحدث العم «نجيب» والد رنيــم لأبي ماجد، ويخبره أين تنزل البركة أكثر، بينما يرى أبو ماجد وأبناؤه وماجد شــخصيا، ألا شيء يجعــل هذا الزواج مباركا إلا جمال رنيم! أنا لم أزد وجعها بذكر أن علامات فشل الزواج كانت كثيرة، وأنها وحدها لم تكن تراها. خلاف والدة ماجد في يــوم الخطوبة، مع الخالة إقبال والــدة رنيم، وخالات رنيم، كان علامة على اختلاف شــديد في العــادات، وعلى أن أم ماجد تتعامل مع الناس كــما تمزج ألوان ثيابها، لتبدو أكثر تناســقا. بعضهم يمكنه أن يصعد للكوشــة ويقبل العروســين، والبعض الآخر مظهره غير لائق أمام أسرة أهل العريس، لذا ترفض صعوده، وتصر على تنفيذ أوامرها، فبالنســبة لها هذا زواج يتبع فيه أهل العروس أهل العريس، العائلة الأغنى والأعرق نسبا.

خلافات فترة الخطوبة المســتمرة بين رنيــم وماجد حول غطاء الوجه، وطريقة اللبــس هي الأخرى كانت علامة لم يتســنَّ لرنيم أن تراها في وقتها، رغم أنها تحدثني عنها الآن وتراها بكل وضوح:

– نصيب يا أزهار ... كل شيء كان واضحا لكنه النصيب.
تبدو وكأنها ناضجة وهي تقول هذا، لكنها فقط نبرتها الفاترة حين تسرد قصة من الرياض. لم يدم زواج رنيم أكثر من خمسة أشهر، أخذوا ما يشاؤون منها، لون عينيها وبحة صوتها وشامة بنية على كتفها أورثتها لإياد، ثم أسدلوا على وجهها التراب، بحجة أن الزواج كشف لهم ما لم يعرفوه من قبل عن رنيم. بربهم: ما الذي يمكن أن يكون لرنيم قبل سن السابعة عشر، ليكتشف لاحقا؟! أنجبت لهم إياد، النسخة المصغرة من وجهها وهي في بيت أهلها، ربته وهي تعرف أنها ستفقده، شرب اللهجة الحجازية حتى آخرها قبل أن يعود ثانية لوالده، وحين سافر مع والده وجدته إلى الرياض، عرفت رنيم الفقد لأول مرة في حياتها.
لا بد وأن هذه القصة مرت عليك في زمنك، فالأشخاص والأحداث تتكرر دائما... لا شيء يتغير، فقط المكان وحده من يتغير.
حثها أهلها على العمل لتنسى. دبروا لها هذه الوظيفة ولم يكترثوا بأمر الراتب، بخلاف أهلي. كل ما كان يعنيهم حينها أن تتجاوز رنيم ألمها، وفراغ إياد الذي تركه على سرير خشبي صغير في غرفتها. أيضا كان هذا بخلاف اهتمامات أهلي حين قبلوا بعملي هنا، لكي يوفروا مبلغا لأيام أفراحهم، لا فرحي أنا.
توصلتُ بعد ستة وعشرين عاما من الإقامة الجبرية مع عائلتي، أننا في كل شيء عبارة عن أسلاك مرتبكة، كتلك التي نخبئها عن الأعين خلف دولاب التلفزيون، وينتهي بها الأمر للتشابك دائما... فمثلا أنا مصدر دخل ثانٍ في بيتنا، يسبقني «مرزا» الهندي الذي حل محل أبي في سيارة الفان منذ سبع سنوات، حيث رفعت أمي الأجرة لألفين وثمانمئة للمعلمة الواحدة، من التسع اللاتي يتغيرن بحسب ظروف النقل والتعيينات من وقت لآخر. يجيء بعدي دخل يوسف وهو دخل

متذبذب بحسب كثافة الشغل، وحاجة المدونين لمصممي المواقع، والكُتاب لأغلفة كتبهم. ثم مكافأة محسن الجامعية. كل هذه الأسلاك الفرعية الرفيعة متصلة بالمكبس الكبير في الجدار: أمي... أمي لديها أيضا بعض المدخرات التي تديرها في جمعيات مع نسوة الحي، أما أحلام فصغيرتنا التي نتفقد محفظتها من آن لآخر، وندس لها ما نستطيعه.

(حين تشرد أزهار هكذا منشغلة بفكرة حقودة في رأسها، يعلم الله كم أسعد وأنتظر هذه اللحظة، اللحظة التي تشعر فيها رنيم بالفراغ فتأتي إلى ركني. تقف أمامي لأدرك أن المرايا لم تخلق عبثا، وأن لهذا الجمال هدفا. تنظر لوجهها من الجانب، ثم تمسح شيئا ليس موجودا تحت عينها. تبتسم وتنظر بين أسنانها، تتصرف وكأن شيئا محشورا بينها، وتداعبه بلسانها، تقترب مني حتى يمتلئ زجاجي بأنفاسها، ثم تمسحه بطرف عباءتها، وتنفخ في وجهي ثانية وتمسح... يدغدغني لعبها هذا ويبهج يومي لأنه منها، أحيانا تنشغل بحدث يصير خلفها معكوسا عليّ، فتحدق في وجهي مباشرة كما يحدث الآن وهي تراقب هاتين الزبونتين اللتين يعرفهما محل سدرة والبنات، وتعبران الباب باتجاهنا)

- كيف حالكم يا بنات؟

(ردت الثقيلة على سؤالها وكأنه كان موجها لها وحدها! أووووه... يا للقرف! وقفت وأخرجت بيدها اليسرى جزءا من عباءتها كان عالقا بمؤخرتها! الزبونة أيضا لا تقل قرفا عن أزهار، فقد كشفت عن وجه دهني مبتل، ولكم أسعدني أن يرشدها بلاط سدرة لتبدأ بالسلام على أزهار، لعلها تجد في وجهها مكانا لتمسح فيه قطرات العرق المكومة فوق فمها)

- صحيح تأخرنا عليكم، ولكن لتحرصي على شراء عطر جديد، وفواحة عطرية، وقلم روج يدوم طويلا، عليك أن تجدي محبوبا أولا،

والا عندكم رأي ثاني يا بنات!!
(هذا الرد لابد وأن يربك أزهار، فهي الوحيدة هنا التي لم تحظ بمحبوب غير مجلاتها. إحدى الزبونات اختفت عن مجال رؤيتي، يبدو أنها تجرب كريم يد فاحت رائحته من جهة طاولة المحاسبة، والأخرى قريبة مني، تمسك بالعطر الموضوع للتجربة، وتضحك بصوت عال يسمع بوضوح في سدرة، رغم جلبة مكنسة تنظيف الممرات في الخارج.
تدرك كل المرايا وبعض البشر فقط، أن التنهيدة تكفي لنعرف ماذا يقول قلب يخفق خلف زجاجة عطر، لن يشمها رجل في البيت... ويدرك كل البشر وبعض المرايا أن كل ما تقتنيه النســـاء هو من أجل رجل في نهاية المطاف!)
– من الخيبة توقعت أنني أستحق الأفضل يا بنات، لذا تطلقت.
(مهلا مهلا لا تقتربي أكثر، صارت ملاصقة جدا. هل ستطبع قبله روج هنا الآن!؟ المرايا تكره هذه الحركة ولازالت النســـاء يتوارثنها بإصرار. ضحكت وهي تميل برأسها وتبتعد قليلا... أتراها سمعتني؟! مسحت بأطراف أصابعها طبعة شـــفاهها الفوشـــية التي تضيء وسط طرحتها السوداء التي كانت تتلثم بطرفها، فرشتها فوق كفها، وأخذت تدعكها بيديهـــا بلطف، بعد أن رشـــت عليها بخة من عطـــر موضوع للتجربة بالقرب مني)
– تطلقت يا ورد...ولم يأتِ الأفضل.
(أزهار لم تصحح لها الاســـم طالما أنها لم تبتعـــد عنه كثيرا، وأظنها أيضا لا تعرف ماذا يقال في مناســـبة كهذه. عامة النباهة مجرد اقتراح غير ملزم لكل البشر، لذا أقترح دائما أن تكتفي بالصمت كما تفعل الآن. لا أعرف ماذا دار عند طاولة الحســـاب قبل قليل، لكن صـــوت رنيم بدأ يقص للسيدة حكاية طلاقها من ماجد من أولها)

الفراغ الذي وجد نفســه واقفا داخل جدار أسميناه بابا، أما بالنسبة لي فأســميه نعيما، فهذا النعيم المطل على ممر أمام ســدرة، يوازيه في الجهة الأخــرى ممر آخر هو توأمه. يفصلهما ســلمان كهربائيــان، هما توأمان أيضــا، أحدهما صاعد والآخر نازل. أمام هــذا الباب التقيت أنا أيضا بتــوأم روحي. تغيرت فلم أعد أنا تلك الأزهار التي كانت، حدث هنا ما لم يفارقني قط. أمر يخصني وحدي. أنا مغناطيس هذه اللحظة، وجميع هذه الرؤوس الســوداء المنتشرة في السوق هي برادتي، التي ستدور من حولي ما إن أتحرك بعد قليل:

– عفوا أختي، محل الملابس الرياضية في الدور الثاني أم الثالث؟

لحظات استجمعت فيها ما يشبه النفس العميق، قبل أن أبدده ثانية:

– رياضية، تقصد رجالية طبعا، هه!

نظرته الخاطفة المســتخفة بي وصلتني كاملة. مال برأسه ليخرج هاتفه من جيبه وكأنه لم يسمعني. تصرفه هذا ذكرني بكل الخطايا التي فعلتها هذا اليوم، وآخرها أنني تجاهلت صوت أمي وهي تسأل محسن: «أزهار خرجت؟»، بالوقت نفســه الذي كنت أخرج فيه من باب شــقتنا، لذا يعاقبني الله بابتلائي بغباء زائد في اللحظة التي أموت فيها إعجابا:

– أممم ملابــس رياضية... لا على الإطــلاق لا يوجد، لكن ملابس «سبور» هناك أكثر من واحد في هذا الدور والثالث أيضا، لا... الأرضي أقصد...، الثالث لا!

تأكدت الآن تماما أنه كان علي ألا أغلق الباب حين سمعت صوت أمي، توجــب علي أن أُحس بها أكثر، أن أفتح الباب وأدخل رأسي على الأقل لأسألها ببر، ماذا تريد حين سألت عني!

لو كنت فعلتُ هذا لما أعجبت برجل يهملني إلى هذا الحد! ومشــغول برسالة يبعثها من هاتفه، بينما أتلعثم وأفسد أمامه كل شيء، حتى قلبي. طوله يقارب أعلى باب ســدرة، لعله 186 سم، وجهه من النوع الذي يبدو وكأنه ســيأوي للفراش بعد قليل، كل ما فيه مرتخ وكسول، حتى صوته، لم يسلم من النعاس.

– قالوا لي يا أختي اسم المحل «زكي»، و أكدوا لي أنه هنا في هذا المول. فتشت عنه وقت صلاة المغرب في الدور العلوي، والآن أنا هنا وبدأت أشك أنه فوق، وأنني ضيعته أكثر من مرة!

مرر لســانه بحركة سريعة، ليرطب به شفته السفلى، وهو يبتسم بذوق. امتد لســانه كجسر رأيت نفسي ذائبة في آخــره. صعدت رائحة زهور «الأستوما» البيضاء، التي كنت أضع قطرات زيتها في الفواحة أمام باب سدرة، في اللحظة التي كلمني فيها هذا الأسمر. سيرتبط هذا الرجل في ذاكرتي بالبياض دائما.

– للأسف يا أخي، ليتني أشك أن في هذا «المول»، لوحة واحدة، كُتب عليها اسم زكي!

الآن فقط بدأت أنعم صــوتي، انتبهت أنني ضيعت وقتا طويلا، أقارن فيه بين هذا الرجل ونفسه في خيالي. والمشكلة أنه لازال واقفا هنا، وأن وجه رنيم ســيطل في أي لحظة وسيســتولي على انتباه هذا الرجل، بينما تصطك عظامي ببعضهــا كقدور أمي وهي تســتعجل غرْف الأكل، لتعود لكنبتها الأثيرة في الصالة. ســتصل رنيــم مع كوبي قهوة، وفقرة مشي أشبه بالرقص، وضحكة لا ترد. آآآه... لو أنني أستطيع أن أستعير

وجهها لدقيقة واحدة، لأرفع عني هذا النقـــاب بثقة، ويراني كحديقة ورود فيتورط في حبي للأبد.
قلصت المسافة القصيرة التي كانت تفصل بيننا، اقتربت منه وأنا أسأله:
– ضروري، نفس محل زكي هذا؟
ليتنـــي أملك أن أطلق هراواتِ في كل اتجاه من هذا الممر، لأبعد الناس عنا، وأولهم رنيم، لدقائق قليلة بعد، لعلي أكفر فيها عن كل هذا التلعثم أمامه.
– لا أعـــرف إن كنت رددت على شـــكره «عفوا»، وأنـــا أعود للخلف محرجة من تقدمي نحوه بذاك الشكل. مضى باتجاه محل آخر، لعله يريد أن يتأكد أن محل زكي هذا ليس موجودا بالفعل. من يلومه إن شـــك في كلامي، بعد كل الارتباك الذي رآه مني؟
بعد هذا بساعة زمن واحدة،كنت أضع أصابعي في أذني، كرها في سماع صوت رنيم الساخر من موقفي هذا:
– إنه أول يوم في حياتي أكشطه، ليظهر لي تحت الكشط وجه أحبه. لطالما أحببـــت رجالا من خيالي! دعيني لمرة واحدة أحب شـــخصا موجودا، حتى لو لم يحبني، فأنا راضية!!
قفزت رنيم من مكانها، لينكشـــف من تحت عباءتهـــا جنزها البرتقالي. سحبت كفي وأخذت تعد على أصابعي:
– لا اسم له، مجرد وجه طابق ذوقك، مر يسأل عن محل ملابس رياضية، أمام بنت لا وجه لها، فأنت من سوء حظك، كلما لمستِ عتبة هذا الباب أنزلتِ هذا النقاب على وجهك! يعني أنت مجرد عينين، أمام رجل يلهو بهاتفه طوال وقت كلامك! أي حب وقعت فيه يا أزهار؟ الله يهديك.
– أنا راضية! ما الذي يزعجك في هذا!
لاحظت أنني طوال مدة كلامي مع رنيم كنت خائفة. أحاول أن أضم

نفسي بذراعين، كي لا أفوت على نفسي لذة الحياة الكاملة قبل ســاعة. أجلس على كرسي المحاســبة كدجاجة تخاف على بيضها أن يفقس تحت أقل حركة منها.

كيف أُفهم رنيم التي سكِر أمامها حتى الخمر، أن قلبي يريد أن يُصدق أنه معجب بي، ويريد أن يقتنع أن أحدا لم ينظر إلي، كما نظر هذا الأسمر اليوم! كيف أفهمها أني أعض أصابعــي ندما، فأنا لم أحمل أمامه كتاب «أسرار الشــخصية الناجحة» الذي كنت أقرأ فيه قبل أن أشــعل تلك الفواحة، لربما أثرت فضوله، كبنت قارئة، لو أن الكتاب فقط ظل بيدي وأنا أضع قطرات الزيت.

لم تتوقــف رنيم عن محاولة إثبات أنه إحســاس كاذب، وغير موجود، طوال الســاعتين التي تلت خروج الأســمر، وإنه إن وجد حب، فلن يكون متبــادلا. وكأن الرجل الذي بــدا وحيدا،كثير على بنت وحيدة مثلي.

أجراس مدخل باب ســدرة، قُرعت بسرعة ولم تتوقف، لذا التفتنا معا نحوها، لأن رأسا طويلة قرعتها هذه المرة، بخلاف أعالي رؤوس النساء التي اعتادت أن تمر من تحتها بهدوء. زفّت لنا الأجراس هذه المرة نفس الصوت الناعس البديع:

– عفوا أيتها الآنسة الواثقة جدا جدا من معلوماتك، أردت أن أخبرك أن محل زكي هنا في هذا الدور، خلف كشك مشابك الشعر في الخلف! يد ســمراء، ترفع أكياس المحل الجديد عاليا لتريني مشــترياتها. وهي تتأرجح وتشــير لجهة كشك مشابك الشعر، وأدوات الزينة. للتو ألحظ أنــه من النوع الذي يضع «كبك» مثل أبي. ابتســم وهو يدير ظهره لنا، ويقرع أجراس ســدرة بحركة متعمدة برأسه، وكأنه لاعب كرة سلة. ابتســامته أقنعتني، أن ابتســامة رنيم التي كانت تدوخنا، أقل جمالا مما

نظن.
أعرف أن قدمي الهزيلتين لن تحتملا أكثـــر، فقلب الدجاجة هذا يخفق مهزوما بين ضلوعي، لأنه عرف للتو أنه ســـيموت ملطخا بأول حب، ولأنني أغبى من أن أســـتنتج شـــيئا الآن. التفتت إلي رنيم التي فرطت من يدها شريطة ســـتان،كانت تلفها لتسيج بها وردا مجففا نزين به أحد الرفوف. جاءت لتقف قربي وهي تحاول أن تعيد فمها المفتوح عن آخره لمكانه، لتقول ما وصلها ولم يصلني بعد:
– كان يطالع باتجاهك يا أزهار، كيف عرف أنها أنت المنقبة التي تكلمت معه أمام الباب؟ ونحن الآن اثنتان مكشوفتا الوجه أمامه؟
حســـمت لنا العملة المعدنية كالعادة هذا النقاش، لكن لأول مرة يكون نصيبي الوجه الرابح مـــن العملة، حيث أن رنيم خمنت أنه معجب بي، وخمنت أنا أنه ميّزني لأن عينيها خضراوان.
(لابد وأنها أزهار العاشقة البلهاء هي من نسيت أضواء سدرة مفتوحة هكذا، المول معتم إلا من بعض الممرات المضاءة هنا وهناك. أنا لســـت المرآة الوحيدة في هذا الدور، لكنني أستطيع أن أقول أن وقفتي الطويلة هنا علمتني أمورا أكثر من غيري عن النساء...
فالحزينة منهن، وبدون قصد، ســـتختار عطرا له رائحة أقرب للبهارات منها إلى الورود، تختاره خادشـــا، عطر نصفه خشـــب يحترق، والنصف الآخر ماء. تختار طـــلاء للأظافر مطفيا بلا لمعة. تقتنـــي ليديها كريما ذا رائحـــة هادئة، فاليدان مهمتان جدا لامرأة تشـــكو الوحـــدة. أما المرأة السعيدة منهن، فتريد أشياء كثيرة لا تدري ما هي:كحل أسود، أزرق، أخضر...عطر بارد الرائحة أو دافئ. خليط ورد أوروبي، أو عطر شرقي معتق. تبدو كقطة تغير رأيها كثـــيرا. رأيت بعض القطط في الفترة التي مكثتها بمخـــازن الميناء. كانت تتجمع حولنا خصوصا في الأيام العالية

الرطوبــة. حينها كنت أســتقبل ضوء الظهيرة بحبور على ســطحي، لأعكســه داخل أعين القطط مبــاشرة، فتكف عن مشــاغباتها المملة، ولعبها حول صغار المرايا، لكني أعترف أنني أمام النساء لا أستطيع أن أتدخل كما كنت أفعل مع القطط. المرأة تنظر إلي باهتمام، وهي تظن أنها تسدي لي معروفا، لأنها تعطيني سببا يفسر وجودي قبالتها.
معشر المرايا يعرف أن الســعادة إذا انزلقت فجأة نحو قلب خال تصيبه بالربكة، للدرجة التي قد تسقطه أحيانا أو تكسره.
يشــاع أن مرآة ذات شكل رباعي مميز، صمم لها إطار من البرونز المطلي بالذهب الخالص، وحملت لمكان اســمه تاج محــل، ثم حين وصلت في وضح النهار أمام هذا الضريح، ورأت انعكاســه المهيب على بركة ماء عاطلة عن الحركة، في حديقة تمتد بطول السماء أمامها. ظنت أن البحيرة هي ربة المرايا، وأن هذا هو يوم الحســاب، فســقطت مغشــيا عليها، وتشظت على أرض الحديقة ألف شظية وشظية! ذلك ما حدث لأزهار اليوم حين رأت ذاك الرجل فجن جنونها، وظلت طوال فترة المساء تتعثر في طرف عباءتها، وتسقط الأغراض من الأرفف على الأرض، ثم تلمها بارتباك، وهي تعيدها لغير أماكنها. قبل أن تهرب من نفســها إلي، وهي ترمي بثقلها كله فوق جانبي الأيسر، لتراقب بقلة اهتمام نابها المقلوب. تنهدت كثيرا أمامي، لكنها لم تمل من التحديق، حتى أنها غادرت سدرة بعد رنيم بنصف ســاعة. تاركة على سطحي بصمات تخص أصابع يدها وذقنها، وانعكاس كل هذه الأنوار المنسية.)

– مرحبا يا أخت...
بنظرة خاطفة للبرواز الذهبي على صدري، أكملت السيدة كلامها بثقة:
– يا أخت أزهار.
اقتربت كثيرا مني، لتريني صورة التقطتها بهاتفها من مجلة. لاحظت وأنا أطالع الصورة، أننا بتحلقنا فوق هاتفهـــا، أثرنا انتباه رجلها الملتحي، الواقف بانتظارها أمام باب سدرة.
– أحتاج مـــن عندكم يا أزهار، كل الألوان المطابقة لما في هذه الصورة، وشرح عملي لطريقة استخدامها على الوجه مباشرة.
جمعت للســـيدة كل الألـــوان الترابية، التي رافقت وجـــه العارضة في الصورة، وبدأت أشرح لها طريقة اســـتخدامها، لكنها أصرت أن أريها هذا على وجهها مباشرة، وحين لاحظت ترددي قالت:
– أنا أدفع ثمن الوقت والتجربة، حتى لو لم تناسبني الألوان، سأشتريها منكم كلها!
التفتُ لرنيم لألمح رأيها بنظرة، لكنها كانت منشغلة ببنت هذه السيدة، وهي تُجلسها على فخذها، لتريها صور إياد في هاتفها.
– تفضلي هنا...
أشرت للمقعد الأحمر الصغير، قرب طاولة المحاســـبة، لتجلس عليه. وبدورها هي أشارت لزوجها بأنها ستتأخر قليلا، من خلال نقرها نقرا متتاليا على ساعتها:
– آخذ لفة في الدور الأرضي، وأرجع لك يا أم صهيب.

كان مهذبا جدا، ينظر بعكس اتجاه باب سدرة، وهو يقول لها هذا.
وضعتُ على طرف رف قريب منها، كل ما ســأحتاجه لمكياج يشبه ما تضعــه تلك العارضة. انحنيت فوق وجه الســيدة أنظفه بمنديل إزالة المكياج، لأضع قاعدة ترابية، كتلك التي أحبتها في الصورة:
– عيناك جميلتان يا أزهار.
لست عادة ممن يصدق المديح. على العكس تماما، آخذه في البدء على أنه اســتهزاء بي، ثم بعد مجادلات وحلفان كثــير ومتنوع، أصدق بارتياب أننــي المعنية به، لكن نظرة هذه الســيدة لي، جعلت منــي تلك الواثقة الراضية بكلامها:
– شكرا لك... هذا من ذوقك.
وضعت على رسغي أكثر من درجة لكريم الأساس، لأميز أيها الأنسب لدرجة وجهها. وأنا أوزع الكريم شــعرتُ بدفء بشرتها يتصاعد تحت يدي. بالكاد ترمش عيناها، وبالكاد أنظر إليها دون أن أرتبك، وأرمش بعيّني أكثر مــن المعدل الطبيعي. كنت منحنيــة أمامها، إذ أن الكرسي الــذي تجلس عليه قصير القدمين. مررت كفــي على خديها أربت على بشرتها ليتوزع كريم الأســاس جيدا، بينما يدي اليسرى مبقعة بكريمات التجربة، وتتبدل فيها العبوة التي أضع منها كريما في كل مرة.
شعرت أن صدري بهذا الانحناء، بدا كأجراس الدير، أمام هذه السيدة الغارقة في جس وجهي. حرارة أنفاسها تخبر أنها جاهزة لقرع الأجراس المتدليــة مني، ودخول المعبد. حســنا داخل الســيدة هذه، شيء يغرق الآن... يغرق حتى لا يُبقى منها إلا رأسها المتأرجح كعوامة فوق الماء.
رفعتُ ظهري، وتناولت بودرة ســائبة بلون المشمش الذهبي، جربتها على يدي أولا، ثم انحنيت على السيدة من جديد:
– مديها من أعلى وجنتيك هكذا، و أنت مبتسمة بأوسع ما لديك، ليبرز

خداك للأعلى أكثر، ثم اسحبي الفرشاة للخارج.
كانت تحاكي وجهي المبتسم، وأنا أريها كيف تبرز خديها، عيناها تحفران سردابا في صدري، فمها يتفحص فمي من بعيد، وكأنه يحجز لنفسه مكانا. أعدت العلبة الدائرية السوداء للطاولة. تناولت بين أصابع يدي اليسرى قلم الروج البيج، وقلما آخرا بلون بني لامع، لأمنح شفتيها لمسة صيفية تشبه لمسة تلك العارضة. ما إن انحنيت ثانية نحوها، حتى بادرتني بقبلة طويلة فوق شفتي، شعرت من خلالها أنها ستغرغر بلساني... لا أعرف أي سم أراقته بفمي، لأشعر بكل هذا الدوار. كان الهواء مبقعا بالأنفاس، حين سحبت نفسي منها متجهة لماكينة الحساب وأنا مذهولة من جرأتها، أحدق بالشاشة ولا أعرف بماذا أحدق.
وجه رنيم يقول أنه رأى تلك المغازلة واحتفظ بحق الصرخة إلى ما بعد خروج هذه السيدة. صوت الطفلة يكرر على رنيم:
- كملي الأغنية يا أبله .. كملي.. كملي!!
رنيم كانت تغني شيئا للطفلة وسكتت، وأنا كنت أجرب قلم شفاه حين سُرق مني فمي، لذا أنا صامتة أيضا، والسيدة واقفة بعيون مسبلة، ووجه يشتعل حمرة، رغم كل الألوان الترابية التي وضعتها عليه. كومت مشترياتها أمامي على الطاولة، دفعتها نحوي ببطء شديد، سمعت فيه حتى احتكاك أظافرها على الطاولة، ثم قالت بلسان ثقيل وكأنها مصابة بالدوار مثلي:
- لا تنسي شيئا منها يا أزهار.

(فرقعة زيت الفواحة أمام باب سدرة، كلما أوشك على الجفاف، هي من توقظني من غفواتي المتقطعة أثناء النهار. وهي من تسكت ثرثرة البنات قربي، وتوحد نظراتهن باتجاه باب سدرة، وكأنهن لأول مرة يسمعن هذا الصـــوت. تقوم إحداهن لتضيف للفواحـــة في المدخل، بعض قطرات الزيت المكثف والماء أحيانا، فتشـــتعل الرائحة من جديد. لم يسبق وأن تحدثت مع هذه النار القصيرة القامـــة، تحت الفواحة! هي كتومة جدا، وأنا لا أذهب لأحد. الثقيلة أزهار تميل للزيوت برائحة الكرز والعنب، في أوقـــات أخرى تميل لمزج زيت ورد اســـطنبولي، مع ورد طائفي أقل كثافـــة. تمتلك هذه البنـــت أعقد ذائقة مرت عـــلي، لتجعل من مزيجها هذا ثاني أســـوأ رائحة، بعد رائحة السمك النتنة في الميناء. رنيم تجاملها وتشـــجعها على هذا المزاج الغريب، لكنها إن عاد الأمر إليها فستفضل مزج الفراولة والفانيليا، وهذه الخلطة هي المفضلة عند صديقتهن غالية، تلك التي تعمل في متجر الملابس الداخلية. كل هذا الوقت وهي تتردد علينا، ولازلت أنسى اســـم المحل الذي تعمل به. سيقول البعض عني أننـــي مرآة كثيرة النســـيان. على كل حال، هذه هـــي موهبتي المفضلة، وبالذات حين يتعلق الأمر بأشياء لا أحبها، ولا أكرهها.

رنيم الجميلة، تحب أن تخلط، زيت اللافندر والبرتقال فقط، يالبســـاطة الذائقة ونعومتها!!

الآن تقـــف أمامي أزهار، لا لتمســـح الحمرة الداكنـــة، التي تعلق دائما في طرف نابها المقلوب، أو لتضيف كحـــلا لعينيها الذابلتين، بل لتعقد

نقابها، قبل أن تعبر الباب، لتضيف خليط زيوتها تلك.
لا أعــرف من هو صاحــب اقتراح أن يكون للفواحة الرئيســية على الباب، شــكل ســلة فاكهة بارتفاع متر تقريبا؟! يــا لقبح الذائقة... تتوسط هذه السلة، شمعة أســطوانية سمينة، تتوقد تحت إناء دائري لونه فضي. يا لســذاجة البشر، أنت لا تســتطيع جذبهم إلى شيء إلا بالرائحــة، فالأكثرية منهــم تعاني ضعف البــصر، وترتدي الزجاج أيضا، لذا أتفهم التصاقهم بي، لينظروا لوجوههم بشــكل أوضح. ما يزعجني في خروج أزهار، لتضيف مزيــج زيوتها، غير تلك الرائحة التي تروقها، هو أنها ستعود، لتثرثر عن شيء تافه رأته في الخارج).
– النقاب يشبه الأقنعة الأسطورية يا رنيم، فكل نقاب يخبر عن صاحبته شــيئا. نقاب يظهر الجبين والحاجبين، وجزءا كبيرا من الخدين أيضا... فهمتِ الشكل الهلالي هذا؟!
– فهمت... فهمته، لكن هذا القناع، ماذا يقول عن صاحبته يا فيلسوفة سدرة؟
رميتُ بنقابي قريبا من رنيم، التي كانت منشغلة بدهن كوع يدها، بكريم موضوع للتجربة، غير أنه كان واضحا، أنها مهتمة بما أقول لها:
– يقول النقاب، بالنيابة عن صاحبتــه: أنا جميلة... اخرجوني من هنا، لتروا بقية وجهي!
ابتســمت رنيم، ورافق ابتسامتها ضحكة مكتومة، خرجت مع صوت هواء ينبعث من أنفها:
– احم.. «سوري»، عجيب كلامك، عجيب يا أزهار!
أســدلت جزءا مــن طرحة شــعرها، وهي تخفي بهــا، معظم وجهها وخديها. أمسكت طرف الطرحة بأصابعها، فهي لا تعرف كيف تثبتها في الخلــف مثلنا، ثم نظرت نظرة جانبية نحــوي، وهي تُرقّص جفنيها

وحاجبيها الظاهرين بحركة ثنائية متبادلة:
– وهذا النقاب الذي يطوق وجهي، بماذا يخبر يا مهاتما أزهار؟
– هذه امرأة لا يعارض زوجها كشفها لوجهها، ولكنها تخشى أن يراها أحد من أهلها.
ضحكت رنيم، وهي تهز رأسها نافية تصديق كلامي:
– مستحيل، مستحيل... هذا علم التخريف.
سحبتْ من رف خلفي، طلاء أظافر بلون أخضر فسفوري، مكتوبا عليه «جربيني»، وبدأت بصبغ إبهامها، وهي تستطعم لسانها بصوت مسموع، وكأن فوقه حلوى من النوع الذي يمص، ويذوب على مهل، وهي تكرر:
– مستحيل... كلامك هذا مستحيل.
– على كلٍ، هذه أمور تفهمها المنقبات فقط، وأنت يا حلوة تلميذتي هنا، عليك أنً تصدقيني وحسب!
قلت لها هذا بحدة، تداركتُها بابتسامة في آخر الكلام، حين رفعت رأسها المتدلية فوق أظافرها، وطلائها الأخضر، لتنظر إلي:
– عُلِم بخصوص هذا النوع يا أبله أزهار، ولكن ماذا عن النقاب الذي يكشف عن عينين طويلتين للأذن؟ لهنا... هه... لهنا...
سحبت رنيم أصابعها فوق عينيها، وهي ترسم إطارا نحيفا ومستطيلا، وتمط بسبابتيها أطراف عينيها باتجاه الأذن، وهي تكمل وصفها:
– مشبعتان بالكحل الممتد للخارج، ولهما حاجبان نحيلان يلمعان، ومرسومان بدقة؟
– هذه امرأة تريد أن تسمع كلاما جميلا فقط، ولن تسمح لأحد بأكثر من هذا.
علا صوت ضحكة رنيم هذه المرة، وهي تضرب الطاولة بيدها اليمنى،

بينما تمد الأخرى كلوح خشبي، على أحد الأرفف، حتى لا تفيض المناكير الخضراء التي لم تجف بعد، عن حدود الأظافر:
– لحظة... لحظة يا مهاتما أزهار، لدي واحد أيضا:
عدلت جلستها، وهي تنفخ مناكيرها، كعازف بيانو ينقر الأصابع البيضاء والسوداء بسرعة فائقة:
– سيدة يلامس طرفا النقاب من الأعلى والأسفل جفنيها، ها... هكذا... هاه، هاه، ولاحظي معي بالله عليك، حتى المسافة بين عينيها بالكاد تُرى، ولنقابها عقدة ظاهرة خلف الرأس، كحبة زيتون، ومن الضروري أن تكون بارزة، فهكذا أراهن دائما:
– فهمتك... فهمتك، طبعا من تعقد نقابها هكذا، لا يعنيها شكلها الخارجي، ولا رائحتها، ولا تضع العطور من الأساس، ولا تكترث كيف يبدو حاجباها، واللذان من المؤكد، أنهما مصبوغان بمشقر حواجب فاقع، فهذا النوع يكون دائما ضد النمص طبعا، تصبغهما بدرجتين مختلفتين، فاتح جدا أسفل الحاجب على الشعرات القصيرة، داكن جدا على الحاجب نفسه، لتظهر رسمة الحاجب غامقة وواضحة، دون سواها من الشعر هناك:
– آهاا... بدأت أصدق أنك حكيمة.
طبعا قالتها رنيم ساخرة، لكنني أكملت كلامي دون مبالاة بها، بينما تلعب هي بنقابي، وتوثقه على وجهها، أمام المرآة:
– هذا النوع منهن يسير شارد الذهن، بسراويل داخلية مشجرة، ومريحة جدا ومرتخية، ويفكرن ماذا يطبخن للوجبة القادمة، وغالبا يرتدين الجزم الرجالية السوداء، لأنها مريحة أكثر في المشي. صدقيني هذا هو حال 80٪ منهن.
انتظرت أي ردة فعل من رنيم، خصوصا الجزء المتعلق بالجزم الرجالية،

توقعت أن تضحك، لكنها بقيت واقفة أمام المرآة، تحدق في وجهها من خلف نقابي، وترمش ببطء...
– تصدقين! جميل عليك النقاب، جميل جدا يارنيم.
لم تسمعني، كانت واقفة شبه متخشبة، أسدلت يديها على الجانبين ببطء، وكأنها تتلقى من المرآة خبرا مفجعا. صورتها المعكوسة على المرآة تظهر أمامي مباشرة، عبارة عن نقاب أســود، تدفعه تنهيدتها للأمام، سرعان ما يعيده الهواء، ليلتصق مجددا بشــفتيها، قبــل أن تدفعه تنهيدة أخرى وأخرى...
هكذا بقيت لدقيقة كاملة، عبارة عن نقــاب يتنفس، وامرأة تختنق، ثم وكأن أحدهم صرخ في أذنهــا، انتفضت فجأة، ورمت به على الأرض، وهي تنظر إليه مذعورة!! شعرت بالمهانة أو بالغيرة لحركتها هذه... ربما لأنها فعلت في ثوان، ما لم أفعله في أربعة عشر سنة مضت، منذ وضعت على وجهي هذا النقاب.

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أممـ... تشتغلي هنا؟
– تفضلي، تفضلي، بمَ أخدمك ؟
سـبقتُ الزبونة لركن كتـب فوقه على لافتة صغـيرة «وصل حديثا». وقفت أمامها مباشرة، كما علمـوني في الدورة التدريبية، التي التحقت بها لأسبوع واحد، قبل بدء العمل في سدرة:
– تحت أمـرك، ترغبين بشيء محدد، أو تفضلـين أن أعطيك فكرة عن الجديد لدينا؟
دارت السيدة في المحل بوجه ساهم، وعينين عسليتين من النوع العربي الواسـع... قرص عسـل بني، فوق ندف ثلج فائقـة الصفاء. نظرت السـيدة إلى رنيم بضع ثوان، ثم يبدو أنها شعرت بالحرج، لأن رنيم هي الأخرى كانت تنظر لعينيها بافتتان كامل. تداركت المرأة نفسها، وهي تتلفت باتجاه خشب سدرة. لمست بأصابعها طرف أحد الرفوف:
– ما شاء الله ولا قوة إلا بالله .
قالت هذا وهي تعود للخلف، وتـدوس بكعبها العالي، طرف عباءتها الخلفي. سُحِب رأسها للخلف بسرعة، فالعباءة من النوع الذي يوضع فوق الرأس. رفعت قدمها عن العباءة بحرج، وهي تعيد رأسها للأمام بارتباك، وتعدل وقفتها:
– المعذرة، عباءة الرأس جديدة علي.
الكثير من الارتباك يدور تحت هذه العباءة. تجولت مبتعدة عني قليلا،

وهي ترفــع الكريمات بموازاة عينيها، لتقرأ ما كتــب عليها بانتباه، ثم أدارت ظهرها لباب سدرة. صار وجهها موازيا لوجهي مباشرة، ورنيم عن يمينها قرب طاولة المحاســبة. رفعت برقعها، الذي يفصل عينيها بخيط أســود رفيع، مما زاد العينين فتنة. كشــف البرقع الفاتن عن وجه مكرمش، يتكدس الجلد في مكان ما منه، ويرق في مكان آخر، كما لو أن مياه البحر، دفعت للتو بجثة مكتملة تشــوبها بقايا دفء، وهذا وجهها المتــآكل هو لعبة الملح والشــمس، وأنا الجزيرة التــي تتكئ على حافة المحيط، وتستقبلها للتو.

ابتسمت لها، لأشغل فمي عن أن يظل مفتوحا أثر صدمة الوجه، قلت وأنا أميل برأسي لليسار قليلا، لألتقط أنفاسي:

– أهلا، أهلا يالوجه...الـ..الـ.. الطيب!

راقبتْ الســيدة وجهي بلؤم، كمن اعتادت، أن تعذب نفســها بصدمة الناس تجاه وجهها. قامت رنيم من مكانها متمهلة، وجاءت من خلف صف رفوف الأرواج في يمين سدرة، لتقف خلفي مباشرة. وجه رنيم عذاب آخر، لسيدة فقدت وجهها، بطريقة لايهمني أن أعرفها:

– كما ترين، أنا جربت كل الماركات، ولا شيء يفيد هنا.

أشارت بيدها نحو وجهها دون أن تلمسه. يد بيضاء بأصابع وردية، لا أعلم إن كانت هناك من كلمة تصف جمال ونضارة بشرة يديها، أكثر من كلمة «سُولُفان».

– يوجد لديكم هذا الذي تســمونه «بيس»، أو أي كريم وجه آخر، أو حتى كريمات كثيرة، فلا تهمني الكثرة أو السعر أو صعوبة مزج أكثر من لون! المهم عندي أن يكون كريما ذا قاعدة تدوم وقتا طويلا، وقادر على إخفاء بعض هذا.

عادت اليــد الغمامة لتحوم فوق الوجه المكرمــش. تكرار هذه الحركة

يؤكد لي، أنها تريد أن تقول كان وجهي كهذه اليد.
– موجود... موجود عندنا طلبك.
أسقطت رنيم بعض الأرواج دون أن تقصد، وهي تخترق بيدها صفوف الكريمات، لتخرج أثقلها وأقلهـــا طلبا. وضعت رنيم بعض القطرات عـــلى كفها، لتريها بعد أن تفركه كيف تغير لونـــه، وأصبح أكثر تركيزا. اقترحـــت عليها أن تدمج لونين ســـميكين معه، لتحصـــل على تغطية أقوى. ناولتها عبوتين، وبـــدأت في شرح كيف تضع القاعدة أولا، ثم تضع من الكريم رقم ثلاثـــة دائرة بحجم النصف ريال، وتضيف عليه ضعف الكمية من العبوة رقم خمسة، وتخلطهما في راحة يدها، ثم تفرش المزيج على الوجه كله بفرشـــاة عريضة مخصصة لهذا المزج، وتكرر هذا، وتزيد عند الحاجة. بدوري أخذت لها مـــن الرف الخلفي، بودرة وجه تجيء كإضاءة ساطعة، نصحتها أن تضعها على أنفها وجبينها.
ضحكت السيدة:
– تعنين الأماكن الصالحة للنظر؟
لم أعلق على سخريتها من نفســـها، وتظاهرت بأنني لم أسمع. اقترحت عليها من باب تجاوز الوجه، كحلا أسودا دهنيا أكثر، يناسب جمال تلك العينين، لكنها ابتسمت ساخرة أيضا:
– نرمم البشرة أولا، ثم نعود للعينين.
أخرجت محفظتها من حقيبة يدها، ووضعتها على طاولة المحاسبة أمام رنيم، ثم فتحت الحقيبة ثانية، كمن تذكرت شـــيئا، فأخرجت هاتفها، ورفعته بموازاة وجه رنيم تحديدا:
– هاك صورتي التي أتعبت هاتفي بالمجيء والذهاب في محلات المكياج، واستقرت الآن كخلفية، بدلا من تضييع الوقت في التفتيش عنها! طبعا هذا لتسهيل تحديد درجة لوني أمام البائعات. ضحكت، فقَبِض فمها في

جهة واحدة، وظهر الكم الهائل الذي أكله الحرق من سعادتها. وجهها في الصور يشـــبه وجه فتاة إعلانات إيطالية، حتما ستثير أوجاعها، حين تراها في المجلة الدعائية لســـدرة، والتي وضعتها رنيم برفقة مشترياتها داخل الكيس.

لم نجد أنا ورنيم أي تعليق مناسب على صورها. كانت تحركها بسبابتها على شاشة هاتفها ببهجة:

– هذه في عرس أختي، وهذه في شاليهات الدرة، وهنا مع زميلاتي حين كنت على رأس العمل في البنك...

نظرات هاربة، وزعناها بالتساوي في كل ركن من أركان سدرة، ولحسن الحظ أن الابتسامة أسهل ما يُزوّر، لذا ابتسمنا كثيرا، أمام صور لسيدة لا تقف معنا في سدرة.

أســـدلت نقابها ذا الخيـــط الرقيق فوق وجهها لتغادرنا. مشـــى الماء في عينيهـــا، لذا بدت هذه المـــرة عادية جدا، وهي تقـــول بصوت مكتوم ومرتعش:

– إذا نفعت هذه الكريمات مع هذا الوجه، عدت إليكم غدا لآخذ المزيد منها.

بقيت أنا ورنيم ســـاهمتين أمام باب ســـدرة، حتى بعد أن ابتلع السلم الكهربائي النازل، أعلى رأس صاحبة الوجه قبل قليل. قادتنا خطواتنا للمرآة، وضعنـــا وجوهنا بين يديها، نحدق في هذا الخلق البســـيط، لو صار في يوم من الأيام غريبا عنا...

لا أتعلم من الأيام شيئا،
فهي مثلي طوال الوقت ترتجل ...

أتعمــد أن يكون يوم إجازتي قبل آخر الأســبوع. أكــره أن يتوافق مع إجازات أهلي، فإذا أجّزنا معا، نكتشــف أن مــا نعرفه عن بعضنا قليل جــدا، وأن أبي لم يمت مرة، بل لازال يمــوت في كل مرة، نجتمع فيها في الصالة من دونه، لذا قليــلا ما أخبرهم أنني في إجازة، متعللة بميزة راتب إضافي، ســأحصل عليه نهاية العام، لقــاء كل هذا الوقت الذي أقدمه لسدرة من إجازاتي.

أخــرج في موعدي المحدد للعمل في التاســعة والنصف، مع الســائق الباكســتاني الجنســية "غازي"، والذي ولد بالســعودية. في عقد غير مكتوب، اتفق معه إخوتي على مهمة إيصالي، من وإلى العمل فقط. هذا العقــد قامت رنيم بتعديله فيما بعد، حين أوصلتهــا إلى بيتها أول مرة.

كنت قلقة من ردة فعل أهــلي، إذا أخبرهم غازي بأمر إيصالي لها، دون أن أستأذن أمي، والحقيقة أنني خشيت أن أتصل بها، فتصرخ من الجهة الأخرى للســماعة، فتسمعها رنيم الجالســة بقربي! حين أحست رنيم بقلقي وقلة كلامي، صاغت من المقعد الخلفي للســيارة عقدا جديدا، بدأته بصوت "شادية" وهي تغني، دون ذرة خجل أمام الرجل الغريب، الذي تركب معه لأول مرة:

- "سوق على مهلك سوق، بكرة الدنيا تروق".

وأنهته بما يتوجب أن يكون عليه الرجل المحترم، الذي لا يفضح أحدا. التزم غازي منذ تلك اللحظة، بالسرية التامة لكل ما تلا ذلك اليوم من

مشاوير، لكن شيئا ما غير طبعه هذا، فوشى برنيم أمامي.
– اطلع البحر يا غازي، وافتح إذاعة الأغاني، وعلّي الصوت أكثر...
لست جريئة إلى هذا الحد، فبمجرد أن يعلو الصوت قليلا، أعود وأقول:
– اخفض الصوت يا غازي!
صوت أغنية حديثة، بلحن مألوف، وكلمات لم أميزها، يخرج من فتحات المكيـــف الآن، ومن رذاذ عطـــر المرامية، الذي يفوح من مشـــبك يعلقه غازي تحت مرآة السيارة الأمامية، ومن وجوه الناس الفضولية والمتجهة لدواماتها، ومن الأطفال الأفغان بائعي اللبان والبالونات، بينما الشـــمس تركب أكتافهم. السيارات "الفان" بكل أنواعها تذكرني بسيارة أبي، ففي أيامي الأولى بالمدرســـة، كنت أستغرب لمَ يخفض صوت الأغاني، بمجرد أن تصعد أول معلمة معنا؟! وحين ســـألته رد وهو يمسك بمقوده بخفة لافتة، وعيناه عليّ:
– الأغاني تضـــع القلوب يا أزهار تحت المجهر، وكل شيء تحت المجهر يبدو أسوأ من حقيقته، ســـتنطلق الآهات والغصات، وستسيل دموع وذكريات، ولا نريد لسيدة تركب معنا أن تبكي في سيارتنا!
قلت له متلهفة وأنا أرسم بأصابعي خطين متوازيين من الدموع ينزلان من عيني إلى أسفل ذقني:
– والكحل أيضا سيسيل من عيونهن!
ضحك وهـــو يراقب الطريق متجها بي نحو مدرســـتي، قبل أن يكمل طريقه اليومي لمنازل المعلمات:
– صحيح يا زهورة، وتحديدا كل من تضع الكحل هي الأكثر بكاء.
ليست السيارة «الفان» وحدها من تقف أمام الإشارة. هنالك طفل أفغاني متعب لكثرة ما لاحقت الشـــمس عينيه، يقف معنا أيضا، ويحمل في يده الكثير من البالونات الملونة. باعنـــي على عجل بالونة حمراء... كان يغني

ويتمايل برأسه، قبل أن أفتح باب السيارة، وحين اشتريت البالونة منه، وأغلقت الباب، نظرت لوجهه لأرى سعادته، فقد أعطيته ضعف ثمنها، لكنه لم يكن سعيدا. توقف فمه عن الغناء، وبدا شارد الذهن أكثر... يبدو أنني للتو اشتريت منه لعبته.

البحر هو وجهتي يوم إجازتي، هذه عادة ورثتها عن أبي، فدهشتي بالبحر تتجدد باستمرار. أنا دائما أمامهُ تلك القروية التي أرخت الفأس عن كتفها، ومسحتْ عرق جبينها، وعلقتْ كفها على خصرها ثم حدقتْ في البعيد، لتفهم كيف أن كل هذ الماء ليس حلوا! على طبق مشبع بالرطوبة، تقدم ذاكرتي الكثير من الصور هذا الصباح: أبي يقف على الرصيف المقابل للبحر، وثوبه يرتجف كشراع، فيما ينحني ليثبت بحجرين في الأطراف سجادة السيارة، المنقوشة بأشكال هندسية باللونين الأزرق والأحمر. يفعل هذا حتى لو كان الجو ساكنا، ولن تتحرك السجادة من مكانها.

يقول لأمي، وهو يشير بيدين تهبطان للأسفل كمروحة:

– تفضلي... اجلسي يا ست الهوانم.

كان جسم أمي كنصف ما هو عليه الآن، تجلس على الأرض منزعجة، كما يجري الأمر في كل مرة، وكأنها تحت سيطرة شيطان مدسوس تحت ثيابها، بفم يتلوى تشرب الشاي، وتقضم المكسرات، وبعقل شارد تتجاهل معظم كلامه. لم تعلمنا يوما أن نحترم أبي، لكن لطالما احترمناه. إحدى مزايا هذا الشاطئ، ألا أحد ينظر إليك وأنت تمشي مع عائلتك، أو تمشي وحيدا مثلي. الثنائيات السعيدة، هي فقط من يجذب الانتباه.

– فطور لله!!

ظهر عامل البلدية فجأة عن يساري، وهو يكرر هذه الكلمة:

– فطور لله!

برأس منحن يرفع سبابته نحوي، وهو يشير باتجاه فمه. حركة يقصد بها أنه جائع، بينما مكنسته في اليد اليسرى لازالت تعمل.

– يا لتفاهة الطلب!

أنا أحتـــاج لأكثر من فطور. لم أقل له هـــذا، لكنني أدرت وجهي عنه، لأرســـل قبلة في الهواء، لأطفال بباص رحلة مدرســـية أشار إلي أطفاله بأكفهم الصغيرة، وأســـنانهم الناقصة، وهم ملتصقين بزجاج النوافذ، قبل أن أكتشـــف وأنا ألوح لهم، أنهم لا يلوحون لي بالمقابل، بل للقطة القـــذرة التي تموء خلفي. هذا أحد أســـباب عدم فهمي للأطفال، فهم ينظرون في جهـــة، ويفكرون بالجهـــة الثانية. لاشيء غـــير العناد لهذه القطة الضامرة، التي سرقت أنظار الأطفال عني، دفعني لمطاردة ورقة مستطيلة دحرجها الهواء، حتى اتكأت على عمود الإنارة. كانت تذكرة للعبة طفل لم تُلعب بعد، مبللة في زاويتها بماء لازال يلمع، ولمســـة ليدٍ صغيرة. يبـــدو أن طفلا ما بكى لأنه لم يكمـــل لعبته هو الآخر، وليس وحده الطفل الأفغاني صاحب البالونات هذا الصباح.

رفعـــت التذكرة ملوحـــة بها أمام الأطفـــال، لكن أحـــدا لم يكن ينظر باتجاهي، حتى عامل البلدية أدار ظهره وانتقل للرصيف المقابل، قبل أن يتحرك باص المدرسة. مؤسف أنه قرر أن يذهب، قبل أن أكمل مقارنة احتياجاتنا. مـــاذا لو ناديته الآن، و أخبرتـــه أني أرى الحياة تمر على كل الأبواب، وأننا وحدنا الباب المكتوب عليه: ممنوع الزيارة! هل ســـيزيد هذا في وجعه؟ هل ســـيغير من مطالبه، أم ســـيبقى وفيا لطلبية الفطور تلك؟

يبدو أن غازي شـــعر بخيبة أمل، حين رآني أعود باتجاه السيارة قبل أن ينهي فطوره. تناول ما تبقى من ساندويتشه في قضمة واحدة، ثم مسح فمه بورقة بيضاء كانت تلفه قبل قليل. وقف كجريدة مبرومة ليتســـنى

للأكل النزول بشـــكل أسرع، وأنا أنتظر أن تعود عيناه ورأسه للأمام، فقد كان ينظر للأعلى وهو يشرب من علبة «حمضيات».
أشرت له بيدي أن يجلس، فلست على عجل:
– اشرب على مهل.
– أفتح لكِ الإذاعة ؟
ســـألني وهو يتقدم قليلا، ويمد يده لداخل الســـيارة، قبل أن يســـمع جـــوابي، فصار صوت مذيعة لبنانية ثالثنا. حـــين التفت إليه لأتأكد إن كان ســـيدخل السيارة، أم ســـينتظر أمامها ريثما ينهي مشروبه، شعرت بالخجل، وجلســـت فـــورا، لأني لاحظت أن ظلي المعكـــوس،كان له مؤخرة بارزة، فالهواء يتدافع صفا طويلا من خلفي.
كنت أنظر على نحو ثابت باتجاه البحر، حين قال غازي :
– بخصـــوص صديقتك التي نوصلها لبيتهـــا في حي المحمدية أحيانا، البنت التي تغني!!
– رنيم... اسمها رنيم.
ثنى رأسه للأمام قليلا، كان متشنجا وهو يقول:
– طلبت من أشـــهر مضت رقم تليفوني لمشاوير خاصة بها، وحذرتني وقتها، بحرص شديد ألا أخبرك .
مستحيل... من غير الممكن، أن يكون لرنيم مشاوير تخفيها عني! وجه غازي كان بانتظار ســـؤال واحد مني فقط، ليقول شيئا يعرفه ويخفيه، لكنني تظاهرت بأنني غير مهتمة، بعكس ما أنا عليه! دندنت مع أغنية يبثها الراديو، وأنا أفتح الباب لأطيّر البالونة الحمراء، الشاهدة الوحيدة على كلام غازي هنا.
من البحر إلى المطعم، ولازال صباحي في أوله. أحتاج فطورا يملأ هذه الطاولة، كي لا أحس بالفراغ في يـــوم إجازتي. الصور على حائط هذا

المطعم كلها تنتمي لليمن: صور لبيوت عتيقة، وأخرى لأطفال جدلتهم السمرة وهم ينظرون للكاميرا ويضحكون، جِرار طين، وأوانٍ منقوشة بألوان زاهية. الجدار الذي يقابل طاولتي بلا صور، يوجد به ثقب باهت فقط، لابد وأن صورة كانت معلقــة هنا، وهذا ما يجعلني تحديدا، أنفر من تعليق اللوحات في غرفتنا. أتعارك مع أحلام لهذا الســبب تحديدا، فغدا تتكسر البراويز، وتبهت الألوان، وتغادر اللوحات ولا يبقى منها إلا الثقوب التي تشوه الجدران، لكنها لا تقتنع بكلامي.

– طالما تركتِ الأمر لي يا آنســة، فأنصح بفتة الســمن والعسل، تعجن معا، وتأتي مرشوشة بالسكر والقرفة، إذا رغبتِ بالإضافات هذه؟

لا أعــرف إن كنت شــعرت بالخجل، وأخفضت رأسي بســبب كلمة معجونة، وهي تخرج من فمه مثيرة غير مفصولة عن جسدينا، أم بسبب حركــة كفيه، وهو يفركهما ببعضهما البعض، أم بســبب اقتراحه للفتة، الذي أشــعرني أنني لو لم أحمل شكلا شعبيا، لما اقترحها علي، وهل كان سيقترح الفتة لو أن رنيم معي، أم سيعرض علينا «بان كيك» مع إضافة النوتيلا؟

أقضي نصف ســاعات يومي في ســدرة، قريبة من مرآة قبيحة، تظهرني أكبر من ســني، ببشرة صفراء مبقعة بآثار الحبــوب. مرايا هذا المطعم، تظهرني جميلة كحال مرايا البيت، وحمامات المول.

أنهيت فطوري، وأنا أتصنع حركات لافتــة، وأجري مكالمات وهمية، عن بيع أســهم وشراء أخرى بصوت عال، لكن أحدا لم ينتبه. ابتلعت قصة طلب رنيم من غازي، أن يخفي عني أمر مشــاويرها الخاصة، مع كأس شاي وخبز «ملوّح» ناشف. فطور خالفت به نصيحة الجرسون، عن فتة الشيف الشعبية.

اتصلت برنيم:

– قبل صباح الخير، وكيف حالك، ولك وحشة، قبل كل شيء، لعلمك أنا وأنت مظلومات، مع مرآة سـدرة الخرفة، وضروري جدا، أن نرفع طلبا عاجلا بتغييرها!

تكلمنا كثيرا، وكأننا نجلس مقابل بعضنا في سدرة. أرسلتُ لها قبل إنهاء المكالمة قبلة كبيرة. صورت وجهي، ويدي ترفع كأس الشـاي، كنخب في صحة يوم الإجازة، وأرسلت هي بدورها صورة إبهام رجلها، وهو يطل محمرا من حذائها المكشـوف، ووجها أصفرا باكيا تحت الصورة، وعلقت:

– هرم الأرفـف الطويل، الذي قلت لك مئة مـرة، أن مكانه خاطئ، عض إصبعي وأنا أمشي وأكلمك.

ضحكـتُ وأنا أدخل هاتفي بحقيبتي عـلى الكرسي المجاور لي، لأجد لنفسي مبررا لتحديقي في الجالسـين جهة اليسار. عملي في سدرة دربني عـلى مراقبة وجوه الناس. أتحرك وأنفي مرفوعة للقنص، فعلي أن أخمن ردة أفعال الزبائن من رعشة حواجبهم، من عقصة الأنف عند شم أول بخة عطر. أعرفهم من تماهي الكريم فـوق بشرة جافة، أو تكتله فوق أخرى دهنية.

طلبت الفاتورة من الجرسـون ذي الأيدي المثيرة، وحين قدمها كانت يداه عاديتين، بل بخنصره التواء مرئي جدا... كيف لم أره قبل قليل؟!

هممت بالمغادرة، وأنا أمسح يدي، بمنديل يقطر برائحة ليمون أخضر، يلسع الأنف لحدته. تقدمتُ نحو الباب، وأثناء هذا لمحتُ طاولة أمامها صامتـان. قرأت وجهيهما في الثلاث الخطوات التي قطعتها مرورا بهما، كان بينهما طبقان وذاكرة من فتور، من شكل الخاتمين اللذين يلبسانهما... يبدو أنهما زوجان!

لم أسـتطع منع نفسي من تقديم واجب العزاء، بقـذف منديلي المعطر،

تحت طاولتهما قبل مغادرتي، فلم يخطر ببالي، إلا حياة أخرى تشبه حياة أبي مع أمي.

لم أعد أحسنُ الاهتمام بأمور جديدة، فلا أقوم إلا بما عودت نفسي عليه، لذا المكان المخصص لاستقبال الضيوف في بيتنا، استقبلت فيه اليوم «نفسي»، ضَيّفتُها قهوة عربية، وبقايا حلوى العيد. بخرتها بالعود، وجلست لوحدي قليلا، ثم أغلقت المكيف واللمبة، وخرجت...

- أأأزهار نننشرب شششاي ؟

قال يوسف بلسان يميل للبياض، وبتأتأته التي حدثتك عنها من قبل، والتي أتمنى ألا تغضب من قولي إن سببها عائد لمغادرتك المفاجئة لنا ذلك الصباح، لكنها الحقيقة على كل حال.

منكبا على الأرض يرتدي «شورت» لم يعد له لون، فهو شديد التعلق بملابسه القديمة. يؤرجح ركبته ككرة قرب رأسه، وهو منهمك أمام شاشة اللابتوب. حين لم أرد عليه لم يكرر سؤاله، أو أظنه نسي أنه سأل، وبادر بفتح موضوع آخر مباشرة:

- ففقاتتك السيدة الوووالدة، وهي تسددد الضربة القاضضية لمحسن، قبل أن يغغغادر لجاممعته.

كان لا يزال يضحك، وهو يمد عنقه للأمام، ويخفض صوته كي يتجنب حربا مع أمي.

- ععرفتْ من أم خليل أن مكاففأة الجاممعة نزلت، وأن أخخخوك الموقر، لم يقدم قراببينه لحضرة الأم! تتتخيلي الإعصار!

- أوووف!! «والمارشميلو» كيف فاتها موعد نزول المكافأة؟ هذا

خطؤها هي بصراحة، فكل شيء مجدول ومعلق في غرفتها.
هز يوسف رأســه نافيا معرفته بالسبب، وعيناه تغيبان في محجري عينيه أكثــر، وهو يضحك بصوت مكتوم، ومع الضحك تزايد اهتزاز ركبته في الهواء، وتسارعت حركة يده على الكيبورد. كل شيء في هذه الصالة يزيد انكماش وجهي للداخل، فحتــى الأمر المضحك، أحوله إلى نكتة سوداء، كي لا أضحك. الستارة المخلوع أحد مقابضها الذهبية، رائحة الفول الســوداني التي أشــمها هنا طوال الوقت، ســاعة الحائط التي أطفأت أمي عنها جرس «بيج بن»، الــذي لطالما أحبه والدي. التغيير الــذي أحدثته في ترتيب الكنبات ومكان التلفزيون، دون أن تستشــير أحدنا... كل هــذا يجعل من الضحك مهمة ثقيلــة على القلب في هذا البيت. آآاه...نســيت أمر ســجادة مكتب أبي، ذات المربعات الكبيرة الحمراء، والمتسربة كحمم بركانية تحت كنب الصالة البني، لتفيض على جانبي جدران هذه الصالة بعلو خمسة سنتيمتر، فهي من النوع الطويل والرفيع. ألوانها غير متناســقة مع أثاث الصالة ، لكنه التزام أمي الدائم بسرقة أبي حيا وميتا.
هذه اللوحة هي الأخرى مسروقة من مكتب أبي. المكتب الصغير الذي استكثرته أمي عليه، وظلت تسميه غرفة البنات، رغم أننا انتقلنا لغرفة أخرى، وتركنا غرفتنــا لأبي. وضع فيها مجلدا عن عالم البحار، وبعض كتــب كانت تتخلص منها المعلــمات، فلا يفرط بها أبــدا، ثقة منه بأن الكتب مقدسة، حتى لو لم يكن قارئا جيدا لها. ثم بعد موت أبي تنازلت عن تســميتها بغرفة البنات، وصار اسمها الغرفة الزرقاء، نسبة للوحة كبيرة أهدتها أبلة هنية لأبي، حين أوصلها معنا في سيارته لفصل دراسي كامــل، كان زوجها فيه منتدبا خارج جدة. كرهتُ اللوحة منذ كنت في الصف الأول الثانــوي، لأن المعلمة تخلصت منها لتغير ديكور فصلها

للون وردي، فلم تعد اللوحة مناسبة لفصلها، فقدمتها لأبي هدية نهاية الفصل الدراسي، وطلبتْ منه أن يسامحها في أجرة التوصيل التي أجلتها كثيرا، وتعللت بأسباب كثيرة كنت أعرف أنها كذب، ولو نظر والدي إليها مرة واحدة أثناء خروجها من المدرسة، للاحظ مثلي كثرة أحذيتها وتنوعها. استكثرتْ عليه أجرته الشهرية، لتشتري بها أزواجا جديدة من الأحذية والحقائب. فرحه بالهدية آلمني كثيرا، فلم أستطع أن أخبره بأنها خردة فصل (1/ د).

فقط الحظ، وفرصة ألا تكون هنا مع من كانوا بذات التوقيت، هو من ينجو بك في هذا البيت من شجار تكون أمي أحد أطرافه، لكن كل ذلك تبدد مع دخولها للصالة:

- ارخوا الصوت يا غجر، من معه الريموت؟

رفع يوسف يده جوابا على سؤال أمي، وكأنه تلميذ في الصف، ثم خفض الصوت، وعاد للابتوب الذي أمامه.

- أطرش؟ ناقصك علل حتى تضيف عليها الطرش؟؟

من واجبي أن أنقل عيني بين لسان أمي ووجه يوسف، لألحظ إن كان شيئا قد وصله من قبح لسانها. لكنه كان يضحك موافقا برأسه على كلامها. كانت تمشي متحاشية الاصطدام بقطع الأثاث، أو أن الغرفة ضاقت عليها فجأة. تجمعت أحلام في طرف الكنبة البنية في وسط الصالة، لتترك لأمي مكانا مريحا مثل ثوبها الفضفاض، لتجلس فيه مباشرة أمام التلفاز. عادة تعود أحلام لتلتصق بكتف أمي بعد أن تجلس، لكنها لم تفعل اليوم. هبطت أمي في الحفرة المعدة سلفا في كنبة غرفة الجلوس، ومدت ساقها على طاولة لها قاعدة خشبية، تعلوها طبقتان من الإسفنج الصلب والبني هو أيضا. هذه الطاولة لا نضع عليها شيئا سوى قدمي أمي، حتى لو لم تكن جالسة معنا في الصالة.

مدت يدها نحو يوسف، فناولها الريموت كونترول. غيرت المحطة قبل أن تنتبه ماذا كان يعرض فيها، وانتقلت إلى قناة المسلسلات، وفور ظهور أول مشهد من مسلسل لا أعرف منذ متى بدأ، علقت أمي عينيها بتركيز شديد على الشاشة، وكأنها في انتظار جملة فاصلة.

– أمي هذا المسلسل الذي تظهر فيه صابرين بدون حجاب؟

قالت أحلام هذا في محاولة للانضمام للمتابعة الطارئة، وهي تسرق من كف أمي بعض حبات الفول السوداني.

الكلام يصبح أحيانا أكثر من اللازم، لذا اكتفت أمي بفرش منديل قربها، فرغت فوقه كمشة الفول التي كانت بيدها، وأضافت عليها كمشة أخرى من جيب روب أزرق قطني ترتديه فوق قميص نوم خفيف. أشارت بكفها لأحلام:

– اعطي أختك وأخوك!

إطلاق رصاص ينبعث من شاشة التليفزيون، يتوقف خلاله فم أمي عن قضم الفول، وتشغلني أنا بقايا فتاته فوق شفتيها، ماذا لو مددت يدي ونفضته عن فمها؟! لكن عوضا عن هذا مددته وأخذت بعض حبات ناولتني إياها أحلام، وهي تصعق قرفا لمنظر الدم المختلط بأكياس الشعير في المسلسل.

تركتهم في الصالة متجهة لمكتب أبي. لهذه الغرفة نافذة يحرسها حديد منقوش على هيئة وردة كبيرة، ولأنها كانت غرفتنا قبل أن تصبح لأبي، فعلى الزجاج ملصقات لشخصيات كرتونية، لم يزلها أبي حين اشترى له مكتبا ووضعه هنا، بل أصر على بقائها وهو يردد:

– أصدقاء بناتي هم أصدقائي أيضا.

أجلس هنا على مكتبه، بعيدا عن تفاعل أمي وأحلام مع مسلسل للتو تقرران متابعته. هنا كان يقضي والدي الوقت الممكن له في البيت،

وأحيانا كثيرة كان ينام هنا، ومرة واحدة فقط مات هنا أيضا. أذكر أول ليلة بات فيها بمكتبه، كانت بسبب مزحة قالها لأمي وهي تعبر أمام شاشة التلفزيون، أثناء مباراة لكرة القدم:

– مري بسرعة يا تيتانيك... هذي ضربة ركنية!

نظرت إليه وضحكت، ثم في لمحة عين، وكأنها تذكرت ماذا عليها أن تكون معه، كرمشت شفتيها، واستدارت غاضبة نحونا. قالت كلاما كثيرا أطفأ حماس المباراة، كلاما مفاده أن التيتانيك كثيرة فيه، وأنها لولا قسوة زوجة والدها السورية، ووالدها سائق الشاحنات، لما حضي بها أو بغيرها أبدا. ابتدعت له شجارا، وأطلقت عربة نار تطوف غرف البيت غرفة غرفة. لم يبقَ من حرائقها تلك إلا هذا الحفر على الباب، حين قذفتْ بدرع ذهبي قدمته أختان من المعلمات لأبي، مكتوب عليه عبارة شكر وعرفان مبدوءة بجملة: "والدنا الفاضل: محمد طه..."، لأنه أصر أن يظل عاما كاملا يوصلهما بلا مقابل، ريثما ينتهي علاج والدهما في الخارج. كان الدرع موضوعا على رف فوق التليفزيون في الصالة. قذفت به نحو باب مكتب أبي فانفصلت قاعدته الخشبية عن إطاره المعدني! ولما تأكدت أنها فطرت قلبه بهذه الحركة، فلطالما أحب هذا الدرع واعتنى به شخصيا، اتجهت نحو غرفة نومها، وصفقت الباب خلفها. ما أذكره أيضا بخلاف الدرع المكسور، وهذا الحفر الشاهد على الباب، أن سريري تلك الليلة كان أصغر من أن يستضيف أبي، وقلبي أكبر من أن ينام متجاهلا ألمه!

تأتي إلينا غالية من محل "غســق"، باســمها الذي يلمــع ببطاقة ذهبية معلقــة فوق صدرها. تترك خصلة شــعر طويلــة مصبوغة بلون بني، لتتدلى فــوق كتفها الأيمن منحدرة على ظهرهــا. عرفت فيما بعد بأنها خصلة شــعر مستعار، تشبكها في أسفل رأســها تحت شعرها الطبيعي القصير، وهــي مصنوعة من النايلون وقيمتها مئة ريال فقط. يمكن أن تبقى مع صاحبتها فترة جيدة، ما لم تشــم الخصلة رطوبة الماء أو حرارة السشوار. خصر غالية عريض كصندوق فاكهة، سمراء بوجه يكاد يخلو من العظم لفرط امتلائه واستدارته، بعينين صغيرتين مشبعتين بالكحل دائما، وابتســامة تنسكب على كل وجهها إذا ما ضحكت. لها أنف أنيق وصغير كأنوف "فتيات الإنمي"، تضع فوق عينيها عادة لونا ترابيا من علبة ظلال اشترتها من ســدرة، بها أربع درجات للون البني، وكذلك تزيــن فمها بـ"قلوس" كريمي اللون، به لمعة بســيطة. إذا نظرت إليها فحتما ستردد لنفسك :

– تشبه من ؟ تشبه من ؟ تشبه من...

لا ترهــق عقلك بالزن الطويل، فهذا أمر مألوف جدا... إنها لا تشــبه أحدا، ومنذ وقت طويل توقفت عن محاولة تشــبيهها بإحداهن. طريقة غالية في الكلام مع فمها الصغير هذا، تشــعرك أن في طرفي شفتيها من الجهتين، مكبســين ينغلقــان في نهاية كل جملة، فهي تقــول الكلمة ثم تضغط على شفتيها، ليتدفق الهواء إلى فمها وينتفخ خداها. كل ما تنقله

غالية أو تثرثر به هو الشـــائعات فحسب، قصص متواترة من برامج في هاتفها: " ثوته، تويتة، بوست، برود كاست".
إذا غامـــرت غالية، وبدأت تقول شـــيئا من عندهـــا، وتخلت عن دور الوسيط فإنك ستعرف ذلك فورا. حينها سترى أن كلامها يأتي مذيلا، إما بحديث نبوي ضعيف، أو حديثين مشبوكين أولهما بآخرهما، ليصيرا حديثا واحد لا أساس له من الصحة، كتلك المرة التي لا أعرف إن كنت حدثتك عنها من قبل؟ إن كنت قد فعلت فاعتبرها مراجعة من فضلك.
يومها قالت لي في المصلى:
– عليك أن لا تهمسي هنا، لأن الحديث في المســـجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش!
همست لها:
– هذه أول مرة أسمع بهذا الحديث يا غالية!
ردت بعد أن شرد ذهنها قليلا، وهي تحدق بطفل نائم في زاوية المسجد:
– يمكن... تُذهب وتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب...
ها سمعت بالحديث بهذه الصياغة؟
غالية تتباهى بكون المقاسات الأوربية لا تجد موطئ قدم فوق خصرها، وأن قدمها ستقطع حتما لو فكرت في المشي أو التخفيف من وزنها، لأنها ترى أن هذا ما يميزها كأنثى ريانة. لا تنسى أبدا أن تضع حلقا في أذنها، وغالبا ما تعدل طرحتها أمامنا مرارا ومرارا، وهي تنقر على شحمة أذنها نقرتين:
– كلفني 25 ريالا، وطبعا بعد أن نشفت ريق العم عيد.
ورغم هذا التبجح بأهمية مراعاة المقاييس الخليجية الدارجة بين أذواق بعض الشباب، إلا أن رنيم بحكم معرفتها لها من سنتين، أخبرتني مرة أنها أجبن من أن تبتسم لشـــاب يمر من أمام المحل، وأنها ترى فضولها

تجاه جســـدها، حين تكـــون لوحدها تحت لحافها عيبـــا كبيرا، لابد أن تستغفر بسببه كثيرا، حتى لو لم تغرق هي وأصابعها فيه.
تجيء غالية، ومعها كلام يشـــبه ما تبيعه بضعف ثمن الكلفة في غسق، فغسق محل مشهور بأسعاره المبالغ فيها. تخبرنا قصصا عن نساء يدخلن ويسألن مثلا: إن كان المحل يبيع ســـياط ملونة، أو سلاسل من ترتر، قيود من فصوص، قميص نوم له ذيل قطة، أو قرون وعل حمراء..!!
رنيم توافقها الرأي، وتتبادل معهـــا المواقف والقصص الغريبة، مروية عن صديقات لها في أفرع أخرى من غسق، أما أنا فلازلت أشعر بحرج من التحدث في مواضيع كهذه أمام غالية.
– مـــرة يا بنات، دخلت للمحل ســـيدة وزوجهـــا وطفلهما «الصداع» بمعنـــى كلمة صداع!! كان هذا قريب جـــدا، في هذه الأيام التي يكون فيها النهار قصيرا. أظنه من أسبوعين فقط! أو لا... أكثر أكثر، الإثنين ما قبل الماضي أظن.. أو الأحد على الأغلب!!
نعم... غالية مـــن هذا النوع الذي يهمل الموضوع الرئيسي، وينشـــغل بتحديد الوقت والتاريخ وتفاصيل لا تهمك أبدا.
– اكملي القصة بالله عليك، قبل أن تداهمنا زبونة!
شدت رنيم غالية من إصبع يدها المزين بخاتم ذهبي، موضوع في أعلى الســـبابة تحت الظفر بقليل. هذه الموضـــة حاليا، فلا تظن أنها تحاول أن تذكر نفســـها بشيء. هزتها رنيم من كفها، لتستعيدها من بئر التفاصيل الغير مهمة.
– المهم ملأ الصغـــير المحل بالصراخ، حتى أن زبونة غادرت غســـق، تاركة سلتها بما فيها من مقتنيات، ما إن بدأ ذلك الصغير بالعويل.
غطت بكفيهـــا أذنيها، وأغمضت عينيها، وكأنها تســـتعيد بكاء الطفل الآن.

– كان مزعجا والأم لم تجد مصاصته، فوضعت إصبعها في فمه...
سكتت غالية لترى ردة فعلنا على كلامها، وحين لاحظت أن فمي وفم رنيم تكرمشـــا قرفا من تصرف الأم، أضافت بشيء من الارتياح، وهي تنزل لبانة وردية من سقف حلقها للتو ألحظها، ثم تنفخها كبالونة أمام فمها لتعود وتطبق عليها بشفتيها، بدون أن تفرقعها كما يفعل البعض:
– كانت يـــد الأم تؤكد، أن فحوى حياتها هو البيت ولا شيء ســـواه، تعرفن هذا طبعا من أظافرها المشققة، ومن لون يديها الباهتتين...
لم تسترسل في الوصف، فقد كنا نهز رؤوسنا بمعنى أننا نفهم هذا جيدا، ويمر علينا في اليوم الواحد الكثير منه.
– اقترب مني الزوج يومها هامسا، وهو يرسم خريطة قميص نوم على جسده الذي يشبه طاولة الكوي، ثم قال: أريد شيئا على ذوقك، يكون مفتوحا من الجانبين... أســـود اللون وبدون قماش على الظهر، قميص نـــوم غير هذه الكلاســـيكية المعروضة هنـــا؟ شيء غريب ومجنون على ذوقك!
– يعني يا غالية هذا النحيل الهرِم المســـلول، كان يريد أن ترتدي زوجته ثيابا تجعلها أصغر مما تبدو عليه؟
– من قال هذا الكلام؟ من قال نحيل وهرم وأصغر وأكبر!! هذا تحريف يا رنيم! بربك هل قلتها الآن، متى سكبتِ عليها كل هذه البهارات!؟
كنا ننظر أنا وغالية إلي رنيم باستغراب، والأخيرة تجيب بثقة:
– أوهووو...!! هذا النوع الذي يدقق في أمر القمصان النسائية، يكون شكله على هذا النحو دائما، هذه قاعدة، أنا أعرف بهذا منكن!
انفعالها هـــذا وهي تضرب بكفيهـــا على فخذيها، حمـــس غالية لتضم أصابعها وتشـــير بعلامة الانتظـــار، وهي تعيد اللبانة لســـقف حنكها بحركة واضحة من لسانها:

– ليس بالضبط كما وصفتِ، وليس بعيدا عما وصفتِ، أقول الصدق والله!

وجدتني أقاطع غالية بدون تركيز مني، وأنا أنظر لرنيم مباشرة:

– تزوجتِ مرة واحدة، ولخمسة أشهر فقط... لماذا علينا أن نصدق بأنك تعرفين بأمر وأنوع كل الرجال؟

– صحيح... تزوجت وتطلقت سريعا، ولكني لم أمت يا ميتة!!

كان على وجه رنيم نظرة شديدة الجدية، لعلها تعكس وجهي الذي سألها سؤالي الغبي قبل قليل، وأتمنى ألا يتهور وجهي ويعكس صورة غازي وهو يلمح بسرها!

– المهم يا بنات، بسرعة أكمل لكم لأنني تأخرت عن غسق... يومها تلفتَ بجدية في زوايا المحل، ظننت أنه يفتش عن الأشد عريا والتي يظن أننا نخفيها بعيدا عن الأنظار، ثم غمز لي ولعق الهواء بلسانه العريض كلسان كلب، وهو يلمس إبهام يدي. ولفزعي من جرأته التفت لزوجته، وأنا أعود لطاولة المحاسبة بسرعة، ويبدو أنها فهمت ما حدث من ارتباكي هذا، حينئذ التفتت زوجته باتجاهه، فيما بكاء الطفل لازال يصم الآذان. عدلتْ حبال الشنطة القطنية على كتفها، وأعادت فوق أنفها برقعا مطاطيا جره الطفل، وقالت بقرف:

– يا سفيه، يا مبتذل، يا أبو البيض العربي.. بسيطة!!

أو أنها قالت يا عديم الكرامة!؟ المهم قالت ياعديم الكرامة أو يا مبتذل، واحدة من الكلمتين هذه، ثم غادرت غسق.

(ما علاقة البيض العربي بهذا؟ لمَ تضحك البنات؟ وقفت غالية أمامي، وهي تضع يديها على خصرها بغنج، وتنظر لانحناءات ظهرها في زجاجي. استندت عليّ بكل مؤخرتها، وهي تحاول أن تلصق كتفيها أيضا، لكن الأمر صعب مع مؤخرة بهذا الحجم)

– أنتن محظوظـــات يا بنات، العمل هنا لا يتعـــب القلب كثيرا، فليس كل زبائننـــا أزواج مملون. أحيانا يأتي عاشـــقان للمحل، يتهامســـان، ويتغامزان، وقلبك المعذب هو الشاهد الوحيد على كل هذا الغرام.

(رنيم من مكانها البعيد، تحدق في وجهها المعكوس عليّ، وترخي طرحة شعرها على كتفها... كم أحب هذه اللحظة التي أرى فيها رأسها كاملا، بدون غطاء يحجبه عني)

– تعرفـــين يا غالية، ملابس النوم هي أكثر الملابس التي يجب أن يرضى عنها كلا الطرفـــين! أحيانا يكفي أن يرضى الرجل عنها، لذا أنا متأكدة أن عملك متعب جدا.

(غاليـــة تحاول أن تلفت أنظـــار البنات إلى كلامها القـــادم، بنقرها على زجاجي بقوة، وهذا ما لا أحبه إذ أنه يســـبب لي طفحا من الخدوش غير المرئية)

– نجيـــب بكل صدق على ســـؤال امرأة تأتي إلينا، وهـــي تقول: أريد قميص نوم أصالح بـــه زوجي الليلة! أو لأحتفل بعيد زواجي... لكن لابد أنكن ســـتتفهمن موقفي هذا، فإذا كانت الســـيدة الآتية إلى غسق جميلة جدا، وبرفقتها عربة بها طفل جميل أيضا، أو من النوع الذي تمسك بيديها طفلين جميلين لا تبدو وكأنها أمهما، ومع هذا ينادونها: بـ ماما!! هـــذا النوع تحديدا، لا أقدم له أي معلومـــة صحيحة! لا بل وأدلها على أســـوأ لون قد لا يتلاءم مع بشرتها! وأحثها عليه، وأقنعها بألف طريقة أن تشـــتريه، فليس من العدل أن تحصل امرأة كاملة على كل شيء، فلا بأس أن تحظى بوقت بشع أمام المرآة.

(أنا فهمتها، لأن بعض المرايا كن يحدثنني في الميناء عن نســـاء جميلات، ينتقصن من جمالهن بارتـــداء ملابس لا تلائمهن، ويبدو أن أزهار أيضا تفهمت هذا، فهي تهز رأســـها موافقة، أما رنيـــم فوقفت وهي تطوق

خصرها بكفيها)

- بذمتك.. هذا يحصل في غسق! أم أنها مزحة تغيضيننا بها؟

(لم تــرد عليها غالية، بل مالت بوجهها الــودود علي. طبعت بعضا من كريم وجهها الدهني على زجاجي، وملأتنــي بهواء أنفها ورائحة لبان الفراولة الذي تحتفظ به في سقف حلقها، وهي تحك زجاجي بظفرها.)

- تأخرت يا بنات على غسق... نكمل كلامنا في وقت آخر.

– أحسد السجاد على هبة «المكنسة الكهربائية». أحتاج أنا أيضا إلى شيء بهذه الصرامة، يمرُّ عليَّ لدقائق فقط، لينزع عن روحي كل عوالقها.
قلت هذا لرنيم، لحظة رأيت عامل التنظيف في المول، يمر من أمام باب سدرة، جالسا على مقعده بعربة تلميع البلاط.
– هههههه حلوة هذه الفكرة يا أزهار، لتكن مكنستك إذا مرفقة بكاتم صوت من فضلك، أكره أن أسمع ما يخرج منك.
رنيم بمزاج رائق، تقف أمام شاشة الكمبيوتر، وتتحدث وهي تمسك ببكرة كهربائية مخصصة لتدليك العنق والأكتاف، أخرجتها من مخزن صغير على يمين طاولة المحاسبة، لتستبدلها بأخرى موضوعة على الرف للتجربة.
– يبدو أنك بحاجة لهذه أيضا!
رفعت الآلة بموازاة وجهي وهي تضحك، وتضربها كدف بين كفيها.
لم أفكر قبل الآن، لمَ تبدو رنيم دائما وكأنها لا تهتم بأحد سوى نفسها؟ تُضيع الإيصالات التي تخصها، ثم تتخلص من الإيصالات التي أحتفظ بها، لنبدو متعادلتين أمام مندوبة الشركة التي تمر علينا من وقت لآخر كإجراء روتيني! لم أعترض يوما على تصرفها هذا، لأنه لا يؤثر على تقييم الموظفة، لكنني تذكرته بالمرتين التي حصلت فيها رنيم على لقب الموظفة المثالية.
لا تصغي رنيم حين أكون متضايقة من أمر ما. بل إنها تمنت في إحدى

المرات، لو أن هناك خدمة تمنح الشـــخص صديقا بمواصفات خارقة، من بين مزايا هذا الصديق أو الصديقة: أن يكون صامتا، وقابلا للكب في سلة القمامة متى فرغ صاحبه منه. غيرت مكاني لتغادرني هذه الأفكار الســيئة عن رنيم، والتي حضر متزامنا معها كخلفية موسيقية، صوت غازي وهو يلمح لي عن مشاويرها السرية.

– في القبر بعد أن نُسأل عن ربنا ونبينا وديننا، ألن نسأل عن هذه الحياة كيف أنفقناها؟

تقاطع حاجبا رنيم وفتحت فمها اســتعدادا لقول كلام كلنا نعرفه، لذا قاطعتها لأوضح قصدي أكثر:

– وأنت قادمة من بيتك إلى هنا، لنقل اليوم يارنيم! في طريقك إلى المول، مرورا بالشــوارع ووجوه الناس التي تركض خلف السعادة، أو لعلها لا تهتم بالسعادة أصلا، بقدر هربها من تعاسة بيوتها. ألا ينتابك سؤال كهذا مثلا: ما الــذي أفعله في هذه الحياة، مــا المطلوب مني على وجه الدقة؟

– قبل أم بعد سؤالك؟

رد رنيم ليس جوابا، وجلســتها على الكرسي بوضــع مقلوب، تاركة وجهها باتجاه ســنادة الظهــر، وظهرها للجهــة الأمامية من الكرسي، وهي تنظر إلي مبتسمة وترقّص حاجبيها، لا يدل على أنها ستعطيني أي جواب.

أفرجت رنيم عن ابتســامتها الجانبية فجأة، ثم ســحبت كفي المعقودة تحت صدري، وشدتني لأقف معها في نفس الوقت:

– صحيح أنت فعلا بحاجة إلى المكنســة الكهربائية هذه، تعالي لأريك كيف يكون التدخل السريع والعاجل لحل الأزمات.

ولأول مرة نرتكب حماقة إغلاق سدرة في غير أوقات الصلاة. أخذتني

مــن يدي لأقصى يمين الدور الثاني، ثم قالت بلهجة جارفة وهي تخرج العملة المعدنية من جيبها:
– هذا العملة ســتقرر أي اتجاه تســلك كل منا في الركض، نتســابق يا أزهار بطريقين مختلفين حتى نصل للصراف الكبير في الدور الأرضي.
– مجنونة... والله مجنونة!!
قلت لها، وأنا أراها ترفع رأســها للأعــلى، وترمي بعملتنا في الهواء، ثم تقبض عليها بباطن يدها:
– يمين يــا أزهار، وأنا من هنا، ونلتقي أمــام الصراف الكبير: واحد، اثنين، ثلاثة...
أثناء العد كنت أشد حبال «الستيان» لأركض وحدي، دون أن يشاركني صدري الخضخضــة. ركضت وأنا ألمح رؤوس الناس قبل أن أبلغهم، ثم في ثوان يصيرون خلفي، لأستقبل رؤوسا جديدة، ووجوها جعدتها الدهشة لرؤية امرأة تركض هكذا في المول.
رأس أصلع، رأس معمم، رأس بنظارة، فم يتثاءب، كوز ذرة يســقط مــن يد طفل، امرأة بنقاب تنظر في كيســها، رجل يعدل بنطلون ولده، كــف منفرج الأصابع يدور قرب رأس امرأة، تنظر إلي وتشــير بعلامة الجنــون... الجميل أنني لم أدقق في أي حذاء كعادتي في المشي، يبدو أنني كنت أركض برأس مرفوعة. أنا بدائية في الركض بنفس مقطوع وأقدام طائشــة، وبعذري طبعا فالنســاء لا يركضن، هن يمشين وفي أحسن الأحوال يهرولن، لكن ما من عباءة تركض هنا.
لم يكن قد مضى ســوى ثوان منذ وصلــت للصرافة في الدور الأرضي، حين لمحــت رنيم قادمة وكأن مســا أصابها. تضحــك وهي جاحظة العينين، فيما طرحة شعرها تتطاير خلفها،كدخان متقطع لقطار مسرع. رأسها متأخر للوراء قليلا عن كتفيها، وأنا أسمع ضحكاتها العالية من

مكاني.
كانت هذه اللحظة التي تصعب علي إطالتها مع كل هذا الركض... هي ذروة نصيب قلبي من الضحك في هذا المول.

مجموعة سـوريات انسكبن من مسلسل باب الحارة إلى قلب سدرة منذ عشر دقائق، إحداهـن بفم كبير يجبرك على مراقبته وهو يتحدث طوال الوقت، مع ثلاث أخريات يصغين إليها باهتمام، بينما الخامسة ممسكة بهاتفها، وتتلقى للتو أخبارا عن «حي الصاخور»، الذي تتساقط بيوته فوق رؤوس ساكنيه بحسب كلامها.

– الله يجيرنا.. الله يجيرنا م جّاي.

بالخطأ أعادت صاحبة الفَم الكبير قلم الشفاه إلى رف كحل العيون. تفهمت هذا الارتباك، وتحركت لأعيد قلم الشفاه تحت صورة ضخمة لنصف وجه «آيشـواريا راي». لم تنتبه السيدة لحركتي، كانت مشغولة بتتبع خطوات صديقتها الممسكة بهاتفها، وهي تتحدث وتمشي في سدرة:

– وليَ عَ قامتي وليَ ع قامتي... الله يئرجينا فيك يوم يا بشار الكلب.

هذه العبارة كانت محفزة للثلاث الصامتات منذ دخلن سدرة:

– آمين يا رب... آمين يا رب العالمين.

أما صاحبة الفم الكبير، فكانت ممسكة بغرضين هذه المرة، وضعت كلا منهما في مكان الآخر، وبهذا التصرف صار لها رصيد وافر من الأخطاء، مما دفع رنيم للتأفف وهي تعيد كل شيء لمكانه. خرجت من تلقت الاتصال، وتبعتها الثلاث الصامتات، وبقيت صاحبة الفم الكبير مرتكبة الأخطاء، ثم حين تأكدت من بعد صديقاتها عن سدرة، ألقت

بنفسها على طاولة الحساب وهي تقول:
- بَالله حاســبيني ع قلم الشــفايف والكحلة، وهالعطر، واستعجليلي حالك من شان ألله.
حين هممت بوضع مشترياتها في كيس ســدرة مع الكُتيّب، مدت يدها سريعا وأخذتها من يدي وهي تردد:
- خلص.. خلص ما بدها كل هالأكياس، بخبيهن هلّا بالشنتاية.
كعادة رنيم في الحكم على النوايــا، قالت إنها خجلت من صديقاتها. لم ترد أن تشــتري أمامهن أدوات زينة، بينما الأخرى تتلقى أخبار الدمار عــن حيِّهم، لذا انتظرتهن ليخرجن، فالحي أولى من الميت، بينما أرى أنا أنه مع ســيرة الموت ربما رأت أنه لا حاجة لهــدر الوقت في التعامل مع الأكياس.
كان لعملتنا المعدنية نفس رأي رنيم...

ماذا يعني أن تصنع بداخلك وشـــماً سرياً، ترمي فيه قصةً محرمةً يقتات قلبك عليهـــا، ثم ترتب أثقال عمرك كأن شـــيئاً لم يختبئ فيك، ولفرط حرصـــك ألا يلحظه أحد، لم تعد ترى ســـواه، ولفـــرط انحنائك عليه توجعه بالكتمان... هـــذا ما كنت أكتبه في دفتر يومياتي وأنا أتذكر رجل الأســـتوما الذي التقيته قبل أكثر من شـــهر أمام باب ســـدرة، قبل أن تقاطعني أحلام:

- الواطية ... الواطية!!

- من يا أحلام؟ خير!

غادرت سريرها وهي تدس هاتفها في جيب بجامتها المقلمة، ويبدو أنها ســـتنهي وشوشة «الواتساب» بمكالمة عاجلة، هذا ما ظهر لي من تلفتها جهـــة الأبواب المفتوحة على الصالة. عادت بعد نصف ســـاعة، أنهيت خلالها كتابة صفحتين في دفتري. رمت بهاتفها مرة أخرى، وهي تسب الحظ والحياة والعادات.

- أحلام فهميني!

لم تســـمح لي بتتبع آثار تلك التي صدقت أنها صديقة... هشت صوتي بيدها واســـتدارت يمينا جهـــة الجدار من سريرهـــا. اعتبرت تجاهلها بمثابة إهانة لي، لذا نمت. استيقظت ربما بعدها بساعتين على أنين أنف أحلام، وهو يسيل في حضن المناديل:

- أحلام!!

ناديتها وأنا أنتقل مـــن سريري إلى سريرها، فتحت لمبة صغيرة عرجاء، تقف بين سريرينا و تتكدس تحتها حزم بنس شـــعر بمقاسات متعددة. أسى عينيها وأنفها اللامع مع هذا الضوء الخافت، ذكرني بما فعله سقوط الأمطار على مدى ساعتين فقط في جدة.

– أووووه... الأمر كبير لهذه الدرجة يا أحلام ؟

لا أعرف ما الذي خطر ببالي حين قلت هذا، لكن أحلام تعرف:

– لا... لا فقدت شرفي، ولا حامل يا أزهار، وجو المسلسلات التركية هذا دعيه لأمي! هذه مشكلة خاصة مع صديقة وأعرف كيف أحلها!!

أطلقتْ سراح هذا الكلام في ثـــوان، ثم جرت لحافها من تحت فخذي بسرعة، وهي تغطي كتفها، وتفرد جسدها على سريرها.

هذه طـــردة.. ولا عجـــب أن تتصرف معـــي هكذا، فمنـــذ البدء كنا أختين تنتميان لجهتين مختلفتـــين، تماما كحال هذين السريرين. هي ابنة المارشميلو وأنا ابنة أبي أكثر. أكبرها بتسع سنوات، ولم نحاول تقليص هذه المســـافة، إلا بلعبة واحدة مشتركة بيننا. قمت إلى سريري، بعد أن أدرت ظهري لها. تمددت وأبقيت عينـــي مفتوحتين، وأعلم أن عينيها ساهرتان كذلك.

– مـــرة يا أحلام، جاء أبي آخـــر الدوام ليقلني إلى البيت، كان محســـن ويوسف يدرسان في مدرســـة قريبة من بيتنا، لذا وحدي كنت أحظى بســـيارة توصلني صباحا وتعيدني ظهرا. صعدت إلى الســـيارة وكنت غاضبة جدا، وتقريبا بدأت بالبكاء.

صمتُّ قليلا لأتحسس صوت أحلام إن كان لازال معي:

– كنت في الصف الســـادس حينها، أقرب صديقة لدي يومها هي بنت جيراننا ســـهام. كررتْ كلامي لها لصديقة أخـــرى، والصديقة كررته للفصل كله. وهكذا في ظرف ثلاث حصص انتشر ســـؤالي الفضولي،

الذي همســت به لها في طابور الصباح: هل كان والدا ســهام ينامان في غرفتين منفصلتين كحال والدينا؟!
اعتبرت صوت تمخط أحلام، صيغة ظريفة لتقول لي اكملي القصة:
– في فســحة الصلاة بنفس اليوم، نادتني معلمة لا تدرسني وسألتني: تعرفــين ما جزاء النمام عند الله؟! فما بالك بمن ينم قصص وأسرار بيته ووالديه تحديــدا؟ ماذا تتوقعين من عقاب ينتظــره في الآخرة على هذا العقوق؟
خرجت من المصلى حينها، والنار تشــتعل بظهــري. ركضت مباشرة لرأس سهام... شــددتها من شــعرها وضربتها أمام الجميع، وأظنني حينها كنت غاضبة أكثر، لأنها أجابتني في طابور الصباح:
– لا طبعا! كل الأمهات والآباء ينامون في سرير واحد، وغرفة واحدة يا أزهار!
التفت لأتأكد من وجه أحلام، فوجدتها متربعة بوســط سريرها، أنفها مضاء باللون الأحمر، وباقيها مظلم.
– لم يلح أبي كثيرا ليفهم ما حــدث لي حين خرجت إليه بتلك الهيأة... أزرار كمي مقطوع، وشــعري متطاير، والعرق يســيل حتى من أذني، وعلى ذقني خط دم يابس.
سألني مرة واحدة ثم حين بكيت سكتْ.
أوقف ســيارته أمام بقالــة قريبة من البيت، والتفــت لجهتي في المقعد المجاور له. أخفض صوت طلال مداح بهدوء وكأنه يخاف أن يضايقه . دون أن يوبخني على موضوع السر، الذي عرف به من المرشدة الطلابية التي اتصلت بأمي، قال وهو يلم شعري المتطاير للخلف:
– يا أزهــار، في المرة القادمة حين تختاريــن صديقة جديدة لك، راقبي المســافة بينكما قبل أن تثقي بها تماما، راقبيهــا بحذر الذئب، نعم بحذر

الذئب. لأنك إن أخفقت... أقول: إن أخفقت في اختيار أول صديقة، ستتذكرين هذا الذئب في كل صداقاتك التالية حين تكبرين. عواءهُ تحديدا هو ما ستتذكرينه، عندها ستصرخين بأعلى ألمك:

– آآأووووه... ماذا فعلتُ بقلبي!

قلد أبي صوت الذئب يا أحلام!!

– كملي!!

– رفع رأسه مغمض العينين. كان عنقه الأسمر مبتلا بالعرق، وياقة ثوبه ناصعة البياض لكنها مبلولة بالماء. جيوب أنفه تتحرك والعواء يصعد من قلبه. لم يكن يتحدث بصوت بشري... كان يعوي يا أحلام! يريد مني أن أفهم الدرس جيدا، وأقسم أن عينيه كانتا تلمعان كعيني ذئب، فهو أيضا خانه الاختيار في زواجه!

– أمي تقول يا أزهار أن جينات السمنة عندي موروثة منها، وهي مصابة بها لأن أبي كان يشتري لها أدوية فتح الشهية، لأنه يحب المرأة المربربة، وأن هذه الأدوية هي من دمرت غددها، وغددي معها.

– تكرهينه لهذا؟

– لا أتذكره جيدا... لا أكرهه ولا أحبه..

هزة أرضية أصابتني وحدي في هذه الغرفة، لردة فعلها الباردة بعد هذه القصة. لكنها في سن حرجة، لذا ما كنت لأقسو عليها وأوبخها، على العكس قدرت أنها تجد في هذه الكذبة، التي اخترعتْها على لسان أمي تبريرا مريحا أمام زميلاتها، لذا هي تخطرني الآن بالمعلومة لأكون جاهزة في حال أتت السيرة أمام إحداهن، خصوصا أننا سنلتقي بهن في عرس للجيران، تجهزتْ له بفستان لازال بين أيدي الخياطة. لعل هذا هو سبب بكائها وقلقها أيضا!

يخطر ببالي الآن ما يخطر ببال السماء من أمنيات ... يدٌ ترفعُ بها الغمام
إلى منتصف ساقها، وقدمٌ هاربة.

تحسُّــبا لأن ألتقي الحب صدفة، لا أقرأ في سدرة إلا الفواتير، لذا أحمل المجلات التي أقتنيها من السوبر ماركت بالطابق السفلي من المول، ولا أتصفحها إلا في البيت. كنت أوشــك على النزول، لأشــتريها بعد هذا الجرد الطويل الذي قمنا به أنا ورنيم في الفترة الصباحية، والتي نختارها لأن الزبونات يكن فيها أقل. مر رجل من أمام باب سدرة المفتوح، كان قريبا للحد الذي تحركت معه أجراســنا المعلقة على مدخل الباب، فيما صوت بصاقه يتكسر على بلاط ســدرة. لا أعرف لماذا اختار أن يبصق داخل المحل هكذا، وهو يحوقل ويستغفر؟! كنا جالستين على الأرض تحيطنا الأوراق والكراتين، حين تناثرت البصقة على الســيراميك قريبة جدا من مكان جلوســنا. أنزلت به رنيم من مكانها أقبح الشــتائم، أما أنا فــلا... لعلمي أن لدى بعض الناس الكثير من القذارة في أفواههم، وعليهم أن يتخلصوا منها، قبل أن تصيبهم بالتسمم.

فجأة قررت رنيــم أن تلحق به للخارج. حاولت أن أمنعها بســحب عباءتها لتعود لمكانها قربي، لكنها لحقــت بالرجل الذي لم يتجاوز محل «أبــو تركي» المجــاور لنا. كان صوتهما قريبا جدا، أســمع شــتمها له بوضوح، ورده عليها متهما إياها بالجنون والعته... الغريب أن كل هذا حدث بدون أدنى محاولة مني للنهوض من مكاني وســط هذه الأوراق والكراتين.

لفض نزاع رنيم والرجل الباصــق، تعاون بكر رجل الأمن، مع حامد

جارنا في محل الأحذيـــة، وانضم لهما لاحقا مختـــار الرجل الأكثر أنوثة مني، والذي يبيع في «كشـــك» الإكسســـوارات. ميزت أصواتهم من مكاني على أرضية ســـدرة. كنت مترددة بـــين أن أقوم أو ألا أفعل، وإن كنت في صف ألا أقوم من البدايـــة، بعكس ما أوهمت نفسي به لبعض الوقت. تشـــاغلت بورقة كانت في يدي، وجـــدول ملأته بالأرقام. لم أعتد المشـــاركة في شـــجارات أمي مع والدي من قبل، ولا إخوتي مع أمي لاحقا، لذا لم أتحـــرك من مكاني. حتى هذا الوقت لم تفارق وجهي الابتسامة وتشـــهد عليّ هذه المرآة. أزحت ركبتي قليلا عن طريق رنيم التـــي عادت بعد خمس دقائق من خروجهـــا من هنا. ركلت دون قصد منها كرتونا كنت وضعتُ فيه للتو عبوة مشروخة لظلال أعين، سجلتها في الجدول تحت خانة «تالف»، وهاهي الآن أصبحت تالف مرتين!

جلست رنيم خلف طاولة المحاسبة، ولازالت بكرة الشتائم تنفرط من فمها. أنفاسها تعلو وتهبط وكأنها لم تروض بعد على المكوث في صدرها.

– اهدئي يا رنوم.

قلـــت لها هذا وأنا أرفع ورقة انتهيت منهـــا، ويجب أن تذيل بتوقيع من الموظفتين في المحل على البيانات المسجلة في الجدول. ما إن قلت اهدئي ورأت الورقة في يدي، حتى ثارت في وجهي:

– أين كنتِ؟

لم تمهلني لأجاوب على سؤالها.

– كنتِ تكملين الجـــرد؟ لم تتحركي من مكانك حتى يا باردة، يا أجبن مخلوقة عرفتها!

حتـــى اللحظـــة لم أكن أعرف أن عينـــي رنيم تصير بهذا الاتســـاع إذا غضبت.

– وسدرة؟ هاه؟ فكرتِ بهذا قبل أن تسأليني أين كنت؟

لم أستطع مجاراتها في حدتها، لذا أخفضت صوتي وأنا أقوم متجهة إليها:
– طبعا صعب نترك المحل فاضي من موظفاته يارنوم!
نظرتْ إلي وجهي، ثم أشـــارت بســـبابتها إلى يمين سدرة، حيث المكان الذي حدث به الشجار:
– أنا صديقتك لا ســـدرة!! كان يفترض أن تكـــوني واقفة معي هناك، خرجت من المحل وأنا متأكدة أننا اثنتان، لذا لم ألتفت للخلف حتى!
– حصـــل خير رنوم، الآن ســـتحصلين عـــلى أفضل قهـــوة من يدي «سايمون»، وبدون قرعة يا ستي!
ســـحبت الكرسي لأجلس مقابلهـــا، وأنا أضـــع الأوراق على طاولة المحاسبة أمامها. طقطقة ركبتيّ وأنا أجلس لم تضحكها كالعادة، كانت تنظر إلي صامتة.
– البصقة كانت علي وعليك! وفري القهوة لنفسك يا باردة.
قالـــت هذه الجملـــة الأخيرة بنبرة مـــن اتخذت قرارها بتـــأنٍ قبل هذه اللحظة، ثم خرجت من خلف طاولة المحاســـبة، وغادرت سدرة قبل موعد انتهاء الدوام بأكثر من ساعة:
– رنيم!! هذه مزحة؟ بنت!!
هذا آخر ما قلته لها قبل أن تخرج. كنت أعرف أنها لا تمزح، لكنها الجملة الوحيـــدة التي ظننت أنها قـــد تبرئني من الذنب أمامهـــا. الحقيقة كان الصواب والخطأ أكثر وضوحا حين كنت طفلة، كما الفرق بين فســـتان "منفوش" ومريول المدرسة، ومنذ كبرت صار كل ما حولي يشبه بعضه كـ"بنس" الشعر، عبثا تفرق بينها. لم أستطع اللحاق برنيم خارج سدرة قبل قليل، لأننـــي لازلت لا أعرف هل كان علينـــا أن نتجاهله ونبقى في المحـــل، أم نخرج ونلوم رجلا بصق في محلنا، ونلم الناس حولنا من أجل بصقة يصعب إثباتها في حال أنكر الرجل؟ وربما حينها حصلنا على

بصقة أخرى ومباشرة على الوجــه، لا كتلك التي تمددت على الأرض وتبخرت!

(كم نعجز نحن معشر المرآيا عن فهم شــيئين يكثر منهما الناس: مسح أســطحنا بأكمامهم، رغــم كل القماش من حولهــم! والأمر الآخر هو التشبيهات: كفستان، كبنس، كشمس ،كشال... لمَ لا يتكلمون مباشرة كما نمنحهم نحن صورهم مباشرة!! حســمت موقفي تجاه هذه البنت منذ البداية، فهي قبيحة متخاذلة وتتردد حتى تضيع كل فرصها. تأكدت الآن أنها بلا كرامة، فرغم تجاهلي لها، إلا أنها واقفة أمامي بشفاه بيضاء، لم تتوقف عن الثرثــرة إلي منذ خروج رنيم غاضبة منها قبل هذا الأذان. حتى غالية حسمت رأيي تجاهها، منذ سمعتها تروي النكات البذيئة ثم تســتغفر الله، لكن طبعا من يهتم برأي مرآة؟ سيقلن: شؤون نسائية ما شأن الزجاج بها).

الساعة السادسة مســاء، اليوم هو الأكثر ضجرا في تاريخ البصق كله. واقفة وحدي في ســدرة ومتيقنة أن رنيم لن تأتي لدوام الفترة المسائية، والأسوأ أنني لازلت أنتظرها. لا أريد أن أفكر بعدد الأيام التي يمكن أن تتغيب فيها عن سدرة. هاتفها مغلق من بعد صلاة الظهر، وآخر ظهور لها في «الواتســاب» كان العاشرة والنصف صباحا، أي حينما كنا نجرد مقتنيات ســدرة على هذه الأرضية. لعنتهــا ولعنت غضبها المتعجرف وأنا أغلق ســدرة وقت صلاة المغرب. لا رغبة لي في العودة بعد الصلاة مباشرة إلى هنا، لذا صعدت لقســم المطاعــم والمقاهي. اخترت أصغر المقاهى وأكثرها عتمة، وجلســت أفتش في لائحة المشروبات عن نوع لم أجربــه من القهوة، ثم بعد عشر دقائق من التفكير، خشــيت فيها أن أطلب شــيئا لا أعرف أن أنطق اسمه أمام«الجرســون» فطلبت ما أنا معتادة عليه «قهوة تركي بالحليب»، مع قطعة كوكيز بالشوكلاته.

وصلني طلب غير الذي طلبته، رائحة "التوفي" تفوح منه، فأخذته دون اعتراض. على الطاولة المجاورة ما يشدني أكثر من الطلب الغريب على طاولتي. كانت هنالك سيدة تدخن السجائر، وتتحدث عن جِدة كفرد من أفراد عائلتها:

– يا رجل... إنها تتصرف مع أهلها هذه الأيام كأم تخفي الحلوى عاليا عن أطفالها، خوفا عليهم مما يحبون... جِدّة تعلم أننا نحب المطر، لكنها تحجبه عنا.

– يا ألله... حتى جدة هي أم أكثر من أمي!؟

ضربتْ السيدة ضربتين على طاولتها حين انفعلت في النقاش، فالتفت نفس الجرسون الذي أحضر لي طلبا غير طلبي قبل قليل، ذهب باتجاه السيدة متحمسا، ووقف فوق رأسها، رافعا ورقته وقلمه ظنا منه أنه سيسجل طلبا جديدا لها، لكنه سرعان ما مضى وهو يعتذر.

ضحكت السيدة المدخنة لشاب يجلس معها ويبدو أنه ولدها، أما الآخر ذو الشعر الأبيض فهو زوجها بالتأكيد، لأنه مشغول عنها تماما بأكل البيتزا، مرة بالشوكة والسكين، ومرة بيده. كنت قد لمست مرآتي في حقيبتي لأخرجها، لكنني لم أفعل، وأعدت الروج أيضا الذي سبق وأخرجته أثناء مزاح الشاب مع والدته. نزعت يدي من حقيبتي بهدوء، حين ملأت سيدة حامل الكرسي الذي كان فارغا قرب الشاب، وهي تتأفف:

– خلينا نمشي حبيبي، الحمام هنا مزدحم جدا وقت الصلاة!

(انتهت صلاة المغرب، وكل المحلات التي أمامي فُتحت، وهذه الثقيلة لم تعد للمحل بعد! ثم تتعالى على رنيم بأنها هي من تلتزم بمواعيد فتح سدرة أولا! مرت سيدة ألصقت وجهها بالباب الزجاجي، ثم حدقت

من خلف الزجاج بمقتنيات سدرة. أريتها حين وصل وجهها الفضولي إلي انعكاســا قبيحا لها، فعادت للخلف مصدومة ومستاءة وهي تعدل طرحة رأســها ثم مضت. أكره أن تتزاحم السيدات هكذا في الممرات، فهــذا يعيق إحدى أهم متعي الكبرى التي عــودت نفسي عليها، وهي مراقبة الــرأس المطل أولا من الــدرج الكهربائــي الصاعد. لو كنت أستطيع أن أوصل رسالة لإدارة المول، لطلبت أن يطبعوا صورا من عدة زوايا، للدرج الكهربائي على جميع أكياس المشتريات من هذا المول. قد لا يصدق البعض مدى المتعة الجاذبة لمن يراقب البشر على هذه الســلالم الكهربائية. لرنيم رأي مشــابه لرأيي هذا، فمــرة دخلت للمحل وهي تخبرنا بلهفة أنها حين كانت صاعدة على الســلم الكهربائي فور دخولها المول، حدث لها ما أعادت تمثيله لنا:

مدت يديها بشــكل متعاكس، وكأنها تقلد بكفها الأيمن حركة الدرج الصاعد، واليد الأخرى تمثل حركة الدرج الهابط، وهي تلح على أزهار بأن تركز في حركة يديها المتعاكستين:

– سُــلمان كهربائيان قَاداهما... هي للأعلى وهو للأسفل. طبعا لم يكن غريبا أن تتلامس أصابعهما في المنتصف، لكنّ فزعها أضحكهُ وضحكتهُ أعجبتها.

مالت على الكرسي وكأنها تدوخ وهي تبتسم للسقف، وتغمض عينيها. طبعا فهمتها أنا فورا، لكن الغبية أزهار أخذت وقتا ثم قالت لها:

– وكيف عرفت يا عبقرية أن ضحكته أعجبتها؟

أخذت تدفعها للخلف ويدها أسفل عنقها وتمثل أنها تخنقها، يا ألله كم نكــره نحن المرايا المزاح باليدين! ثم قالت رنيــم الأمر الذي فهمته أنا بدون جهد حتى.

– لأنها أنا يا أزهار!

يومها قالتها الماكرة وهي تغمز، وتعض قصاصة ورقة مخصصة، ضمن قصاصـــات صغيرة أخرى، لتجربة عينات العطور عليها. أرخت يديها على جانبيها، وتركت الورقة معلقة في فمها. نقرت وجه أزهار بها وهي تلاعبها، وتعض الورقة كي لا تسقطها:

– كانت أنا يا أزهار.

أعتقد أن لعاب أزهار قد ســـال وهي تراها تفعـــل ذلك، لأنها هرعت بعدها إلي، ووقفت أمامي تمسح قطرات ماء تكومت فوق زغب كثيف تحت أنفها).

الحيـــاة تذهب مكتنـــزة إلى كل مكان، وحين تصـــل إلى بيتنا، تكون قد تدحرجـــت من قمة العـــالم إلى حدودنا، واســـتنفذت كل طاقاتها، لذا تكتفي بالتحدث إلينا بفتور. هذا ما أشـــعر بـــه كلما أدرت مفتاح باب شـــقتنا، لينشق الباب عن وجه أمي، جالسة وســـط الصالة على الكنبة البنية المشـــجرة، المائلة لليســـار بفعل تلك الفجـــوة في منتصفها، فيما الأطباق تتكدس أمامها فارغة تماما، وهي منهمكة في متابعة مسلســـل خليجي هذه المرة. يمكن أن تعرف الكثير عن أمي من خلال مسلسلاتها التي تتابعها، باستثناء شهر رمضان، الذي تتابع فيه كل شيء تقريبا.

دخلتُ بيتنا الســـاعة الحادية عشر والنصف ليلا. لم تسألني لمَ تأخرت، ولم تلحظ مثلي أن أختي تأكل أظافرها، وتكدســـها فوق صدرها وهي شـــاردة الذهن قربها، وربما لولا مجيئي لما تذكـــرت أحلام أنها بحاجة لدخـــول الحمام، فقد قامت إليه فور وصولي. أما محســـن فقد كان يأكل البامية بالملعقة، وأتوقع أن رائحة الخبز المحترق، التي اســـتقبلتني فور دخولي من باب شـــقتنا هي الســـبب. نظرتُ إلى أمي مطولا علها ترفع رأســـها وتنظر، لكنها كانت قد نقلت اهتمامها مـــن التلفزيون لهاتفها، وهي تحرك شفتيها لتقرأ ما تكتبه يدها، ويمكنك بدون أي جهد أن تميز أنها تكتب الآن:

- لا يا شيخة!!!

وحيدة أنا في هذا البيت، كحـــال كل واحد في هذه الصالة. لذا وفرت

على نفسي وعليهم إعادة قصة البصقة صباح يوم الأمس، وغياب رنيم، ثم عملي في سـدرة وحيدة ليومين، وأخيرا تعطلي مع بعض الزبونات مساء اليوم، بسـبب عطل طارئ أصاب جهاز السحب. حملت غازي وسيارته سبب تأخري، وصدّق محسـن تعليلي. أخرجت بسكويتا من حقيبتي، وكتاب «كيف تكسـب الأصدقاء وتؤثر في الناس». تمددت على كرسي أبي المنقول من مكتبه منذ سـبع سنوات، وبدأت بالقراءة في الصالة، دون أن يزعجني شجار الممثلة وخادمتها على الشاشة.

مســحتُ المرآة القبيحة في سدرة، وغيرت اللمبة المعطوبة فوق رأسها، اســتبدلت الفواحات القديمة على الأرفف باثنتين من المستودع، أثناء ذلك كنت أتذكر كيف كنا نكسر ألعابنــا، ثم نفتش عن كبير يصلحها لنا، ربما لهــذا كبرنا ونحن نخلط بين قلب ولعبة، فنكسر ما لا يجبر، ثم نستمر في بحثنا عمن يُصلِحُه لنا. أظنني كسرت شيئا في قلب صديقتي، هذا ما يقوله تجاهلها وغيابها ليومين، وهذا هو اليوم الثالث في أوله.

– هاي... صباح الخير

– أهلا، صباح الأنوار تفضلي، بمَ أساعدكِ ؟

تذكرت وجه هذه الســيدة، جاءت إلينا منذ مدة، لكنني لست بمزاج جيد للكلام معها الآن حول هذا. ليس باســتطاعتي أن أخمن لهذه المرأة رائحة، لذا هي تحت خانة الروائح الحمراء في جدول أنفي وأنف رنيم.

– عندكم الإســفنج المعطر الذي يوضع حول العنق، هذه الإسفنج الـ ... أممـ .

كانت تحرك أصابعها في مربعات كثيرة في الهواء، غير واثقة من شــكل طلبها. هذا يعني أنها لم تجربه بعد، إذاً هي من النوع الذي يسهل إقناعه بأي بديل، لكن لحسن حظها أن طلبها موجود. تقدمت منها حاملة بين يدي الكمادة، وبالصوت الذي أبيع به قلت لها:

– مــا عليك إلا إزالة الكيس عن اللافندر المعطر المضغوط في الداخل، ووضع الإسفنج في الميكروويف لمدة دقيقة واحدة، ثم استخدامها.

قلبتُ الكمادة بين يدي قليلا، ثم ابتسمتُ لها وأكملت:
– بعضهم يستغل كونها إسفنجة، ويضيف لها ملح حامض الخليك النقي، ليساعد على امتصاص التعب من الجسم، هذا يسرع من فعاليتها.
صوتي التسويقي الذي وصلتُ إليه منذ مدة يعمل بنجاح.
كنت قد بدأت أشرح لها أن تفاوت السعر بين القطعتين اللتين أحملهما في يدي، هو بسبب أن غلاف الحرير أغلى بفارق خمسة وعشرين ريالا، عن غلاف المطاط حول الإسفنج، إلا أنها قاطعت كلامي وكأنها لم تكن تسمعني:
– كان في هذا الفرع بنت بعينين خضراوين بسم الله ماشاء الله، جميلة جدا!
فتحت يديها بشكل دائري.
– وجهها أبيض مدور، كانت هنا في مكانك صحيح! أذكر أن لسانها يقطر عسل!!
ورغم أن جواب سؤالها عندي، إلا أنني فضلت أن أستكمل معها اللعبة إلى نهايتها...
– طويلة؟
– لا لا، كتكوتة!
– وهل كنت أنا معها !؟
– لا طبعا.
– لا!!
أنا لست صاحبة الوجه الذي لم تنسيه، لكن لعلي صاحبة اللسان الذي يقطر عسلا!! هذا بالضبط ما أردت أن أقوله للسيدة صاحبة الرائحة الحمراء، لكنني فضلت أن أقول:
– الحقيقة لا أعرف عما تتحدثين! ربما تقصدين فرعا آخر.

سبقتها لطاولة المحاسبة، ثم وضعت أشياءها في كيس. أسقطت فيه الكُتيب الأقدم لمنتجاتنا، لا الذي صدر حديثا، ورغم أنها تستحق هدية من سدرة، لأن قسيمة شرائها تجاوزت مئتين وخمسين ريالا، إلا أني تغاضيت عن هذه الهبة، وتركتها تذهب دون أن أقول حتى كلمتي المعتادة:

- خلينا نشوفك.

ارتحت كثيرا لتصرفي هذا مع السيدة، ربما لأن هذا الجحود لرنيم يصون حضوري، فأنا أيضا كنت هنا حين جاءت كما تقول قبل شهرين! ألا يبقى بذهن الناس إلا الوجه الفاتن، ذو العينين الملونتين؟

(وتسمي هذا تمسيحا؟! كل هذه البقع على بلوري وتظن نفسها قد انتهت مني! لولا أنني أرى معاناتها منذ يومين، وهي تحاول أن تتمرن على صحبة نفسها بدون وساطة رنيم، لقلت ما هو أكثر، لكنني سأتغاضى هذه المرة. صبغت الثقيلة خلال الساعة الماضية كل أظافرها، حتى أظافر قدميها، ماذا لو دخلت زبونة وهي متخشبة هكذا؟ علما أن طلاء الأظافر لا يجف سريعا حين تكون المرأة وحيدة، كل هذا لأن ذات الرائحة الحمراء لم تتذكر وجهها!! لم تكن أزهار يوما أميرة ومع هذا تنتظر قبلة طوال الوقت، ثم تغضب إن لم تحصل عليها.

تفصل السلالم الكهربائية سدرة عن محل الملابس الأوروبية الموازي لها. في الجهة المقابلة لوح زجاج تقف خلفه دمية بيضاء عارية، تتكوم في ركن بعد أن انتزعوا عنها فستانها، وشال عنقها. تركوها مائلة وعارية في أقصى اليمين من الواجهة الزجاجية، رغم أنها هي من تحث الزبونة على شراء الفستان!! هذا أكثر ما نكرهه في بني البشر، فإن منحناهم عيوبهم غضبوا علينا، وفي بعض الأحيان يبصقون علينا كما يحدث معنا نحن المرايا، وإن أريناهم ما قد يبدو جميلا عليهم جردونا منه، كما حل

بهذه الدمية العارية أمام المارة! صدق جدنا أول ألواح الزجاج حين قال: أمر البشر كله سوء.

على بعد سُلمين كهربائيين وكشك إكسسوارات، خرجت رنيم من بين سواد العباءات، بوجه يلتهم في طريقه إلى هنا كل الوجوه. كانت أزهار لا تزال تقف تحت أجراس سدرة، حاملة في يدها منفضة الغبار. لا أرى وجهها من هنا، لكن ظهرها صعد وهبط ببطء في تنهيدة ارتياح طويلة.)

قد أكون ممن لا تتلفت كثيرا وهي تمشي في المول، لكنني أسمع كل ما أمر به، وأعتمد الابتسامة تحت النقاب جوابا على بعض ما أسمعه في الطريق لسدرة، فاليوم مثلا سمعت امرأة تتحدث بهاتفها، وهي تمشي ممسكة بطفلتها:

– فرحتِ قلبي يا مشاعل، فأنا من مدة طويلة لم أسمع أحدهم يقول استجاب الله لدعوتي، مبارك عليك.. مبارك.

استغفرت لها، وابتسمت تحت نقابي تضامنا مع الخبر المفرح لمشاعل. سيدة أخرى ممتلئة الجسم، مرت بقربي وهي تصف طريقة سلق المكرونة لامرأة تمشي بجانبها، وتبدو أصغر سنا منها:

– لا طبعا... لا يُغطى القدر الذي تسلق فيه المكرونة أثناء السلق نهائيا يا عبيطة!

هذه السيدة لها نفس أسلوب أمي في الشرح. افترقت عنهما حين صعدتا السلم الكهربائي، بينما ممتلئة الجسم كانت تفرد يديها كمصفاة... يبدو أنها وصلت لمرحلة غرف المكرونة من الماء. أخذت طريقي من الدرج العادي نحو الدور الثاني، وكالعادة ما إن وصلت الدور الثاني، حتى استقبلني معرض مفتوح اليدين، متساهل جدا أمام المارة، لدرجة أنه يستقبلهم بملابس داخلية. هذا هو معرض «غسق» أو معرض «وجع قلب» كما تسميه غالية، المعرض الذي كلما مررت به أشعر أن بداخلي خشب عود يتصاعد دخانه ولم يصعد عطره بعد، لكنه كان لا يزال

مغلقا، فالساعة لم تصل الرابعة والنصف بعد.
– هاي زهرة، عندي بضاعة جديدة الآن وصلتني، تعالي لأستفتح بك.
ضم يديه مرحبا بي، وصار يحرك أصابعه كلها للداخل بمعنى: تعالي...
اقتربت من كشـــكه وأنا أضحك للطفه البالغ، فمختار ودود جدا، ولا أشعر بحضرته أنني أقف مع رجل:
– اسمي أزهار... هذه المرة كم التي أصحح لك فيها اسمي!
– أزهار، أزهار ، أزهار...
وقفت قرب كشكه، وهو يكرر اسمي بصوت مسموع، ويغمض عينيه بقوة كمن يسمّع لنفسه ما يحفظه. جربت بعض الخواتم وكنت أخجل وأنا أمد كفي لآخذ منه خاتما يقترحه علي، فيده أرق من يدي، ليس عيبا بي، بقدر ما هو فيض رقة تعيبه هو.
عاد للخلف قليلا، وقال بحماس وهو يضع ســبابته فوق شفته الوردية التي تلمع بمرطب توت يشتريه عادة من عندنا، ويضعه دائما في جيبه:
– لكســب ود بنت يا أزهار، نصيحتي لك أن تجربي تعليقات وخواتم القلوب... تأثيرها خطير.
– ود بنت يا مختار؟ بنت!!!
هــل تناقصت فرصي في الرجال إلى هذا الحــد؟ أم أن مصاحبة صديقة جميلة، تجعل مني مسترجلة بنظرهم؟!
– الحقيقــة إذ قلناها بصوت عال للبنات، تجيء مع كومة مشــاكل... صح يا أزهار؟
تقدم للأمام وهو يقول هذا ويضحك، ظنا منه أنني سأبادله التعليقات الســاخرة عن البنات، لكنه عاد للوراء مجــددا، وهو يراقبني ويخفض رأســه قليلا باتجاه وجهي، ليتأكد من نظرتي، ولابد أن غضبا ظهر علي من تحت نقابي، لأنه كان مرتبكا وهو يقول:

– حان وقت ذوقــك يا مختار، مممممـــ تفضلي هذه... مناســبة لك يا عروستنا، وهذه قطعة رائعة متأكد أنها ستعجبك يا بنوته يا حلوة.
لم يكن الأمر سهلا عليه، فقد شعرتُ بمشقته وهو يقول بنوته وحلوة، وكان ذلك بالنسبة لي عقابا كافيا له.
(كان هــذا قبل مجيئك لـــسدرة... هكذا تبدأ رنيـــم قصصها لأزهار. قصـــص عن أيام كانت من تعمل معها وفـــاء، ومن قبلها أماني وبينهن هدى، ومن قبلهـــن كلهن كان الرجال وحدهم من يعملون بســـدرة. تلك كانـــت أوقات عصيبة ليـــس علي وحدي، بل عـــلى كل المرايا في المحلات النســـائية. أزهار من النوع ثابت النظرات، تنظر في جهة ما ثم تنسى رأســـها هناك، وبالاعتماد على قلة وقفاتها أمامي أستطيع أن أقول أن أنوثتها قليلة. مع ذلك لا أذكر أن من ســـبقنها في سدرة قد حظين بما تحظى به هذه الثقيلة من حب رنيم لهـــا. لذا أقول وبكل ثقة... تكذب القصص التي تقول أن الحب يجيء بالعشرة وبالمواقف الشـــهمة، فوفاء لازمت ســـدرة مدة أطول من ملازمة أزهار حتى الآن، ومع هذا لم تحظَ إلا بلقب زميلة عند رنيم.
اللعنـــة... أعرف عماذا تتحدث رنيم الآن، أذكر ذاك اليوم جيدا، يومها ســـمعت جرس إنذار الحـــالات الطارئة في المول لأول مـــرة، توقفت الســـلالم الكهربائية والمصاعد تلقائيا، كان إنذارا بوجود ماس كهربائي أو حريق. لم تكن رنيم في حينها فزعة على نفســـها، لأن إياد كان للتو قد غادرها، وكانت في صميمها كارهة للحياة، أما أنا فكدت أتساقط شقفا من الخوف، فمن سيفكر بإنقاذ مرآة معلقة على الجدار.
لـــو أنك يا ثقيلة رأيت مكانا يحترق قبـــل الآن، لفهمت عوضا عن كل هذه الأسئلة السخيفة، التي تقطعين بها كلام رنيم، مدى غرابة أن تري امرأة تقف في وســـط المول متجاهلة صوت صافرات الإنذار... تحدق

باتجاه السقف، وتتوسل باكية أمام شيء تراه هي، ولا نراه نحن. كانت قريبة من هنا... ها هي رنيم تشير لجهة بين محل الحقائب النسائية، ومحل آخر أكبر للعود والعطور الشرقية. لم يكن محل العود هذا موجودا وقتها ... يبدو أن رنيم قد نسيت.

كانت السيدة جالسة على ركبتيها، تنظر لسقف المول وترى ما هو أبعد من السقف، ترى أبواب جهنم تستعر أمامها، ونور اللهب الأحمر معكوسا على وجهها. كلامها أخافنا أكثر من صوت الصافرات والدخان الذي بدأ يهبط من قسم المطاعم في الأعلى، دون أن يحجب وجهها عنا.

– ماذا كانت تقول، ماذا كانت تقول، قولي قبل أن تدخل زبونة يارنيم!!!!

هاهي أزهار بدأت تتصرف كطفلة، والأخرى تتعمد إثارتها بالتمهل في القصة، صدقا بدأت أسأم كل النساء بما فيهن رنيم. لتتمهل كما تشاء في سرد هذه القصة، بالنسبة لي كأن الحدث يعاد أمامي الآن، فنحن المرايا لا ننسى شيئا حتى لو بدا للبشر عكس ذلك. كان للمرأة لسان مقذوف إلى السماء، ويدان متعافيتان لكنهما مصابتان بالعمى، إذ أنهما ترتجفان فمرة تصعدان للأعلى، ومرة تنزلان بمحاذاة البلاط. كانت السيدة تقول بصوت مختنق:

– سامحني يا ألله، أنت تعلم أنني لم أفكر في هذا قبل اليوم...

كان كلامها جملا مرتبكة وناقصة، وهي تمد كيسها للأعلى وترتجف! إلى هنا كانت تشبه المرايا المحتضرة، لكنها حين أخرجت ملابسها، وبدأت تقذف بها نحو سقف المول وتطلب الغفران، حينها لم تعد خطاياها تشبه أيا من خطايانا.

حمالات صدر لامعة، قمصان غريبة، سراويل رفيعة، وبدلة رقص

مرصعــة بمرايا صغيرة أو جنيهات. لم يكــن واضحا من مكاني هذا ما الذي يلمع تحديدا. تطايرت مشــترياتها الملونة أمتارا فوق رأسها، قبل أن يبتلعها الدخان الأســود في الأعلى. رأيت عائلة مرت من أمام باب سدرة وحجبت السيدة عنا، ثم مجموعة نساء يركضن، ثم جارنا حامد في محل الأحذية، ثم لم نعد نرى السيدة، لا أنا ولا رنيم التي فاقت أخيرا من جمودها، وسارعت بإغلاق المحل وهي تلحق بآخر عائلة مرت من أمام سدرة.

هــذه القصة تحزن رنيم كلــما تذكرتها، أحيانا تقــف أمامي وهي تنظر لعينيها في زجاجي، تجر جفنها للأسفل، وحين تجحظ عيناها تحل مكان اللون الوردي تحت الجفن صور ذاك اليوم، الملابس المتطايرة، القمصان الشــفافة، واللهيب الأحمر المعكــوس على وجه تلك الســيدة التائبة. وهاهي الثقيلة شردت بذهنها هي الأخرى، على ما يبدو لي بدأت تحزن معنا، فهي أكثر من يتقن البؤس، لذا لا أظنها تمثل).

لتتعايــش مع قلة الحياة في هذا البيت، عليــك أن تمتلك براعة الصبار، حين يتكيف مع ندرة المــاء ويختزل الجمال بياضا في داخله. هذا ما أقنع به نفسي كل مســاء، وأنا عائدة إلى البيت، خصوصا مع أم بدون بريق ولمعان كباقي الأمهات.

– لابد أن السعادة في بيتنا تعود إلى ما قبل سبع سنوات، حين كان الهواء يهب من هذه الجهة.

نظر محسن باتجاه مكتب أبي بشكل عفوي، رغم أنني لم أشر إليه، ثم عاد ينظر إلي بنظرة كثيرة التكلف، أرادها صارمة، لكنها ليست كذلك:

– أزهار!

– نعم!! لا أعرف صراحة إن كانت ســبع ســنين هي وقت طويل أو قصير لنسيان أب، لكن على كل حال أكره أن أنساه مثلكم!

نقل نظره بيني وبين أمي:

– رحمه الله، وعوضه عن شقاء الدنيا براحة الآخرة.

ســكتُّ بدوري، لأن كلمة شــقاء الدنيا أصابتني بالعبرة. ترحم على أبي دون أن يرفع عينيه عن ملزمــة جامعية بين يديه، ثم كتب ملاحظة بقلم يتقطع حبره... لم أر مــا كتبه، لكنه حك برأس قلمه قليلا قبل أن يبــدأ بالكتابة. كل شيء في هذا البيت يتقطع كحبر قلم محســن. لأول مرة ألحظ أن ســوادا يتكدس تحت أظافــره، وأن ظهره له حدبة، لابد وأن ســببها الرئيسي، أنه لم يحظَ بأم تنبهه في صغــره، لكي يرفع ظهره

وهـــو جالس. التفت لأمي لأعرف إن كان كلامنا غير شـــيئا بمزاجها المتعكر منذ الصباح، فهي لم تتحدث مع أي منا منذ استيقظت. طبقات متدرجة من الشـــعر الناعـــم يتغير مكانها وتتمايـــل في الهواء، فمروحة المكيف موجهة صوبها. وجههـــا الأبيض المغمور بين أكتافها، لا يظهر منه إلا ذقنها وشفتها السفلى. تنقل كفها بين طبقين مملوئين بالمكسرات ورقائق البطاطا، وتصب شـــايا من ترمس أصفر فوق طاولة قربها. فيما تكتب شـــيئا في هاتفها. أثناء نظري إليها، لفضت بذرة فستق من فمها باتجاه الإناء أمامها، فسقطت مباشرة في منتصفه! كما ترى... تتمتع أمي ببعض المواهب.

– بحركة تذهب للقلب مباشرة يفرك والدي يديه أثناء تشغيل سيارته، وكأن الحرارة ستسري من جسده خلف المقود، باتجاه كل جزء من أجزاء سيارته «الفان». هو سائق مثالي يفوق كل توقعاتكِ خصوصا حين يقول بحيوية: إن أشرف مهنة هي أن يأتمنك رجل على عرضه، وأنا أبو كل من تصعد سيارتي.

– هههه... لوالدك نظرته الخاصة عن المهن.

رغم أن رنيم لا تبدو مهتمة، لكنني شعرت برغبة في تذكر أبي أكثر:

– يخرج كل يوم قبل صلاة الفجر... يغسل سيارته بنفسه، وأنا أراقبه من الطابق الثاني في العمارة التي ولدنا أنا وإخوتي بها، وورثنا إيجارها عنه. يتنقل بين الأحياء، ليقل معلمة تلو الأخرى، ثم إذا اكتمل العدد توكل على الله، وانطلق بهن من جدة الكبيرة نحو أطرافها، والتي يبعد بعضها أكثر من ساعتين.

– والدك أنهى دراسته يا أزهار؟

– لم يكن يصرخ بأي معلمة نسيت أن تخبره مساءً أنها ستتغيب عن الدوام غدا... تخيلي! لم يعاتب من كانت تتأخر عليه في وقت الظهيرة لأن صديقتها لم تنهِ كلامها في غرفة المعلمات، فكلهن كن صغيرات بالنسبة له، يخطئن في حقه، ويغفر لهن لأنه الأب!

– رحمه الله...

– لم نلحظ أنا وإخوتي أن لديه غترا كثيرة متشابهة تماما، إلا حين

تصدقت أمي بكل مقتنياته، كردة فعل على موته المفاجئ. حقيقة كانت ضربة قاسية لها يارنيم، موته كان رده الوحيد على كل حواراتهما التي ظل صامتا فيها لسنين طويلة.

خلعت رنيم طرحة رأسها، وحنت وجهها باتجاه صدرها، فانسكب شعرها الكثيف ليغمر جزءها العلوي كله. لا أعرف لمَ ذكرتني حركتها بأبي حين يُدور طاقيته المخرمة بفن بين أصابعه، ثم يملؤها برأسه، ويضع الغترة فوقها بدون عقال عليها...

– أبي يا رنيم رجل أسمر نحيل جدا، بملامح عادية، وبتجعيدتين حول فمه، لا تظهران إلا إذا ابتسم، لكن وجهه من ذاك النوع الذي تقولين عنه من أول لقاء بينكما: ارتحت له. هو من الآباء الذين يقلقون كثيرا إذا ارتفعت حرارة أحد أبنائه، يوسوس ويتوقع الأسوأ، ويجول أروقة الطوارئ متشككا في وصفات الأطباء. يجلس بقرب سرير المريض منا، ليمزح معه وهو يعض أصابعه بلطف، رغم أنه يكرمش عينيه ويتشنج وكأنه سيقضمها بشدة، ويقول للممرضات:

– هات مشرطا ... لدينا هنا إصبع يزيد عن الحاجة.

رفعت رنيم رأسها وهي تضحك:

– آهاا... عرفت الآن أنا ورثت محبة التمثيل ممن! والد أزهاري ممثل.

لأن الحياة بها ما يكفي من المتاعب، لم أحكِ لرنيم عن علة الضغط العالي عند أبي، إذ أنه ليس مريحا أن أقول أن سبب موته، هو عدم اهتمام أمي بأي حمية تتعلق بتقليل كمية الملح أو الدهون في طبخها. لم تهتم بأمر تلك الورقة المقسومة لنصفين بالطول، والتي كتب له الطبيب فيها ما يفترض أن يأكل، وما يجب أن يتجنب. لديه من النقاء ما يجعله مبتسما كحكيم معمر، حتى وهي تقدم له طعاما سيتسبب بموته. ينظر للسُفرة بتسامح، كما كان ينظر لدرجاتنا حين تنقص عن المستوى المطلوب:

– لا تحزنوا، لم يكتب لكم الله أفضل منها، وإلا لكنتم حصلتم عليها!
ثم يضع تحت خانة توقيع ولي الأمر، توقيعا بسيطا بثلاثة زوايا، يشبه إلى حد كبير شـــعار سيارته. والدي من ذاك النوع من الناس قليلي الحظ في كل شيء، النوع الذي وكأن الحياة كلما اقتربت منه قالت بتعالٍ:
آه... تذكرتك! منحتك مرة... صحيح؟ حســـنا ذلك يكفي، قصدت غيرك، وسأحرص ألا آتيك ثانية.

اليوم الـــذي يتقاطر المعجون فيه من فمي أثنـــاء مشي المعتاد في البيت، وأنا أفرش أســـناني، هو يوم عصيب من أوله. ها أنا أدور على المحلات لأصرف خمســـمئة ريالا، ولم أفلح حتـــى الآن. تكفيني إيماءة بأصابعي الخمســـة أمام باب أي محل، ليفهم صاحبـــه أنني أريد صرفا، وتكفيني حركة بإصبع وحيد منه، لأفهـــم أنه لا يوجد لديه صرف. نحن الباعة لا نحتاج للكلام الكثير بيننـــا، نوفر أصواتنا للزبائن، وننصاع لاتفاق سري غير موثق، يعتمد على حركات الرأس واليدين والعينين غالبا.

دخلت لغســـق لأصرف الخمســـمئة عند غالية، وبحركة سريعة أيضا من رأســـها عرفت أن علي أن أنتظر قليلا. كانت تقف شـــاحبة الوجه، منشغلة مع زوجين يتجادلان وهي تنظر لهما بابتسامة مصطنعة. يسهل على من يعرف غالية أن يميز زيف الابتســـامة تلك على وجهها. كانت المرأة الواقفة في غســـق، تلصق على الجزء العلوي من جســـدها قميص نوم، ألوانه الكثيرة تشـــبه ألوان أجنحة الفراشة، قصير للدرجة التي لا يوجد شيء منه في الأسفل، وتنظر بغنج للرجل الواقف معها:

– ها... حلو؟

نظـــر للقميص بنظرة من يعرف ما تحته جيداً ابتســـم وهو يرخي جفنه قليلا:

– في البيت نتأكد إن كان حلوا أم لا يا حبيبة قلب طارق...

ضحكت تلك السيدة، ضحكة من تعرف كيف سيُستغل هذا القميص

جيدا. أخــرج الرجل محفظة ممتلئة بأنواع البطاقــات الذهبية والفضية والزرقاء، وخالية من الصرف الذي جئت مــن أجله. النظرة الخاطفة لمحفظته، كانت كفيلة بطي الخمسمئة في بطن كفي، والهروب من غسق الذي تأكدت الآن لمَ تسميه غالية "وجع قلب"... ألم أقل أن يومي سيء من أوله؟!

لم ينتهِ بعد يوم المعجون المتقاطر، ففي الصباح غسق وزبائنه، والآن هذه السيدة:

– لحظة، لحظة...

يد دفعت باب سدرة النصف مغلق، ولولا أنني شديدة التروي لكسرت لها ظفرا بحركتها المتهورة تلك.

– لو سمحت خمس دقائق أخرى فقط أعدك، فقط خمس دقائق لغرض محدد أعرف مكانه! كانت السيدة ترفع كفها ملصقة السبابة بالإبهام، وتمسك باليد الأخرى باب سدرة. نظرتُ للساعة وكانت تشير للعاشرة ليلا. المرأة التي تدخل إلينا بعد لف السوق كله، غير تلك التي تصعد من سيارتها مباشرة لتأخذ غرضا محددا، فالأولى تتعلق بعباءتها رائحة المطاعم، وبخور محلات العطور الشرقية... مزيج يخف أو يتركز بحسب الوقت التي قضته السيدة في المول. أما هذه السيدة فكانت لها رائحة "زهرة ملكة الليل"، لذا هدأتُ واستسلمتُ لرغبتها. لم أفتح لها كل أنوار سدرة، فإن لم أخطئ فهذه المرأة من مواليد برج الجدي اللماح، ستكفيها نظرة لتحدد غرضها.

– قسم عطور ومستحضرات الرجال من فضلك!

أشارت رنيم للرف المهجور من سدرة، ثم طَيرت لي قبلة في الهواء، ولوحت مودعة وهي تنزل السلم الكهربائي، فوالدها ينتظر في الأسفل بحسب كلامها، وحتى لو لم يكن ينتظرها، ستفضل رنيم أن تتسكع في

المول، على أن تعمل عشر دقائق إضافية بدون فائدة تعود عليها. أشرت بدون حماس وبصـــوت فاتر، للجديد المحدود على رف المســـتلزمات الرجالية:

– بلسم حريري يهدئ ويبرد الجلد فورا، ويقلل من الإحساس بالحرقة والتهيج، الذي يحدث أثناء أو بعد الحلاقة...

اقتربتُ من الرف أكثر:

– هذا مقشر وجه جديد أيضا، ومطلوب مؤخرا، يأتي معه مصل لحماية العين... هذا هو.

أشرتُ له بينما الســـيدة تنظر في جهة أخرى، لم تلقِ بالا وكأنها لم تسمع مني شـــيئا منذ البداية. كانت تنظر في رف الرجال، وكأنها ســـتعثر على شيء نخبئه بعيدا عنها.

– ببالك شيء محدد أساعدك به!

تجاهلتْ سؤالي، وواصلت التحديق.

– أظن الخمس دقائق انتهت سيدتي، بعد أذنك تفضلي.

– مممـــــ... ألا تبيعون مراهم اللعق، التي توضع في الأماكن الحميمة وقت الـ...؟

ألم أقل منذ تقاطر المعجون من فمي صباحا، بأنه سيكون يوما عصيبا!؟

– أأأ... فهمتك، لا طبعا، لا نبيع هذه السخافات هنا.

قلـــت لها هذا وأنا أطفئ إنارة ســـدرة تماما، وأقلـــب المفاتيح في يدي، وأبتســـم مجاملة لها كما تقتضي وظيفتي أن أمثل. أفزعني قليلا أنها بقيت واقفة في المحل وأنا أمسك بالباب، والمفتاح يتأرجح في الجهة الخارجية من الباب.

– من فضلك أريد الإغلاق الآن، سائقي بالأسفل ينتظر!

تقدمتْ خطوة خارج ســـدرة، ســـمعتُ فيها صوت كعبهـــا، وأنا أدير

المفتـــاح في الباب، بينما تتلفت هي لتقـــرأ واجهات المحلات المجاورة، ثم حين تقدمتْ نحو النور أكثر في أروقة المول، تســـنى لي أن أقدر ثمن عباءتها الفخمة، وحقيبتها من فرساتشي، وفهمت كم أنني ساذجة حين ظننت أنها تريد عطرا من سدرة.

– أنا معتادة أن أحضر طلبيتي هـــذه من محل أتعامل معه خصيصا لهذا الســـبب، لكن خروجي المتأخر، وزحمة الشوارع في جدة سرقت وقتي، فتوقعت أن أجدها هنا، فالمول في طريقي، وأنا أحتاجها الليلة... آسفة على تعطيلك.

مدت يدها لتناولني مبلغا، لكنني لم أنزل عيني عن وجهها وفمها الذي يجيد الابتسامة، حتى وقت الكلام... قابلت يدها بيد رافضة:

– لا... لا يا سيدتي! لو سمحت أنا لا أقبل إكراميات على الإطلاق!

دفعت يدها للخلف والغضب يفور من قمة رأسي، فلمســـت أنعم يد مـــرت علي، أنعم حتى من غلاف مجلة ســـدرة، فانطفـــأ الغضب دفعة واحدة.

– إكرامية!! لو كان مديرك هنا لعوضك عن هذا تحت مســـمى «وقت إضافي»، وهذا حقك يا آنسة.

هل التقطتَ معي رنة الراء في صوتها؟ تشـــبه راء حبيبك طلال يا أبي. ماهي النصائح الأمثل في التعامل مع امرأة، أنت متأكد تماما أنها متهاونة جدا مع مـــن يدعوها لشرب فنجـــان قهوة أو ســـهرة خاصة!؟ وأنها فضولية تجاه ما هو مختبئ تحت الملابس، وتجيد أشياء كثيرة بهذا اللسان المســـتعجل، وأن تهذبها هذا هو طريقتها المترفـــة في جذب الرجال! في نزولي السريع لبوابة الخروج من الدرج العادي، شعرت أنني مجبرة على المشي بصرامة، ربما خفت أن يفضحني شيء في داخلي تجاهها!!

ربما انتهى بي المطاف للطريق الخاسر، وهو الإعجاب بها. لاحظت أنها

تســير خلفي، وأنني بدون قصد أســلمت خطواتي لوقع كعبها. أسرع في خطاي حين يقترب، وأبطئ حين يبــدو صوته بعيدا. فصلتني عنها بضعة أمتار، لكنني شــعرت بها تحاول أن تقصر المسافة بيننا وتقترب. أخرجت هاتفي فلم أجد أي مكالمة مفقودة من أمي رغم أنني تأخرت. فقط مكالمتان واحدة من السائق وأخرى من أحلام.

اتصلت على السائق فورا، أخبرني أنه فضل أن يشتري شاورما من مطعم خلف المول، حين لاحظ أنني لم أرد على اتصاله، ولم أخرج في موعدي، فتوقع بأنني سأتأخر عليه. قال إنه لن يتأخر فهو فقط في انتظار استلام طلبه، وأنهى المكالمة لأن الضجيج كان عاليا عنده، ولا أظنه ســمعني وأنا أقول:

– اسرع خذني من هنا، ثم نعود معا لنستلم لك طلبك!

وقفت أمــام البوابة قريبة بعض الشيء من بكــر حارس الأمن، وهذا طمأننــي، رغم أن بكر أحيانا يبدو وكأنه جــزء من ديكور المول، لكنه شــخص ثالث الآن، وكفيل بإبعاد الشيطان عنا. عائلة تنزل من السلم الكهربائي، لتفصل بيننا أنا وهذه الســيدة، أخّرتْ طفلة كانت تتسكع خلف أسرتها اقتراب هذه السيدة أكثر:

– تفضلي معي أوصلك في طريقي!

ضحكت وهي ترفع يديها وكأنها تكبر للصلاة:

– هذه التوصيلة ليست إكرامية، لنقل ضريبة تعطيلي لك، ينفع؟

قالت هذا وهي تبتسم، لتخبرني فقط أن على خدها الأيمن غمازة. كانت تشــع نضارة، وهي تعيد تثبيت طرحة رأسها التي أفضل أن أظن بأنها انزلقت صدفة، فانكشــف ذراعها عن لون مشرب بسمرة صافية جدا وبشرة لامعة، ســاعة فضية من نوع أوميغا. عباءة أنيقة تتلفع بجسدها لا العكس، لها كمان واسعان كجناحي فراشة، تتخللهما زهرات دانتيل

سكرية اللون، وجهها ليس جميلا للحد الذي تقول عنه من أول نظرة:
- أوه ما أجمله!
لكن هــذا لا يعني أنك وبعد قليل فقط من التأمل في طريقة كلامها لن تتدارك خطأك لتقول:
- يا للفتنة!
كان نقابي مشــدودا على وجهي، لذا لم أحمل عــبء الخوف من ظهور جاذبيتها على ملامحــي، ففمي يتلوى ويقلد طريقــة كلامها، ثم يبقى مفتوحا كما تفعل هي بفمها النصف مفتوح، فهي من القلة الذين يهبهم الله طريقة معينة في حركة الشفاه واللسان، بحيث يبقى الأخير وكأنه في حالة تماس مع الأسنان ويوشك أن يُعَظْ.
- شكرا لك... سائقي في الطريق إلى هنا.
أخذت وقتي قبل أن أرد على اقتراحها هذا، ولم تستعجل هي الرد.
ضحكت وهي تقول:
- أنا بنت مثلك... ما المخيف لهذا الحد يا أزهار!
انتفض نهدي الذي يقف تحت المســتطيل الذهبــي، الذي يحوي بطاقة التعريف باسمي، فالمســكين لا يعرف متى نظرت إليه، وقرأت الاسم فوقه.
- ممَّ أخاف أصلا؟
نظراتنا لبعضنا البعض،كانت تأتي كملامسة خائفة، أولها صارم وآخرها حنون. حاولت أن أباعد بيننا بمسافة معقولة، لكن سيارة من نوع فورد كانت تقف أمام مدخل البوابة، بها سائق ينظر إلينا وهو أكثر ما يخيفني الآن. زجاج سيارته من النوع المظلل بدرجة خفيفة لذا كنت متأكدة أنه وحده في السيارة.
كادت أن تبدأ كلاما معي لولا أن غازي وصل، ليس مســتحيلا

أن يزورك حســـن الحظ من وقت لآخر على كل حال. لم أودعها، انسكبت في السيارة، مستحضرة كل حوارات أفلام الأكشن:
– بسرعــة غازي تحرك، وغير طريق البيت، وتأكد ألا ســيارة تتبعنا في الخلف!
رائحة الشاورما تشوش على عطر «سيدة اللعق». حسنا أطلقت عليها هذه التســمية الآن، وغدا سأقدمها لرنيم بهذا الاسم، إذ لابد أن لحركة لسانها الجميلة علاقة بما كانت تفتش عنه في المحل!
ننضج حين نتقن الــرد على من يسيء لنا، لذا رددت بهدوء وطول بال، على اتصال أخي محسن الشاتم والغاضب، بسبب تأخري ساعة كاملة عن موعد وصولي للبيت.

لفتنـــي لأول مرة، أن قدمي أمـــي منتفختان كبالونـــين مملوءين بالماء، حمراوان كوليمة ناموس، ربما لأنني لم أنظـــر إليهما منذ مدة، وربما للتو انتفختـــا. لا أعرف إن كان التهاب الدوالي قد عاد، من ســـيجد الوقت ليخبرني على كل حال؟ جلست قريبة منها، أغمضت عيني بفتور شديد وأنـــا أعيد رأسي للخلف. استنشـــقت رائحتهـــا في الصالة، مزيج من دخان الأرجيلة، وبـــودرة الأطفال. تخيلت لو أن أمي تلقي بهذا «الليّ» المتدلي من فمها، وترفع ذراعها قليلا، لتنساها على كتفي الليلة مثلا... فقط الليلة، لأخبرها بما حدث في النصف ساعة الأخيرة من يومي، فلا مساحة بقيت بداخلي أتكوم بها صامتة. والخبر السيئ أنها لو فعلت هذا، سيخطر ببالي تلك اللقطة في برنامج الكاميرا الخفية، حين يجيء أحدهم فاردا ذراعيه ويظـــن الآخر أنه قادم ليحضنه، وبمجرد أن يفتح ذراعيه ويتهيأ للعناق الودود، يظهر شـــخص من الخلف يخطف الحضن كله، ويبقى الذي صُنع به هذا المقلب واقفا في حالة دهشة، وسط ضحكات مسجلة، تعرفُ مسبقا أنها ستأتي بنفس الرتم في نهاية كل لقطة.

– سخني عشاءك أو نادي أختك تسخنه لك.

قرنا دخان خرجا من فتحتي أنفها بعد كلامها هذا. من محاسن أمي أنها ومن دون ضجة وإلحاح، تجعلك تكتشف أعماقا لا حصر لها من الصبر في داخلك.

– أمي.. قدماك متورمتان.. لاحظت؟

عينـــاي بدأتا تحرجاني، إذ أننـــي بالكاد أنظر لغـــير قدميها منذ دخلت البيت، لهذا كان لابد أن أســـألها. قذفتْ بوســـادة كانت خلف ظهرها فوق الطاولة التي أمامها، ثـــم حاولت أن ترفع قدمها بوجه عصبي لا خطورة فيه إلا على نفسها، فقد كانت تضغط ظهرها للخلف بعدوانية، لأنها تحتاج لمســـاحة أوســـع تعيد ظهرها إليها، لتتمكن من رفع رجلها دون ثنيها باتجاه بطنها. كان وجهها مكرمشـــا وعيناها يعصرهما التعب، لأنها ترفع قدميها فقط! قمت من مكاني، جلست على ركبتي، أمسكت بســـاقيها ورفعت قدميها الواحـــدة تلو الأخرى، مســـدتها قليلا فقد اتســـعت عروقها الخضراء، وابتســـمتُ لفكرة أنه في حالة أمي، ما من مبرر لأن تكون الجنة تحت أقدامها.

صرخَ جارنا مناديا باســـم زوجته في العمارة اللصيقة بعمارتنا، وبالشقة المقابلة لشـــقتنا، فرفع عني وعن أمي حرج فتح أي نوع من الحوارات. صراخه المعتاد هذا، كان ســـببا لكرهي للقصـــص الكرتونية المدبلجة، التي كانت تصور لنا الأشـــجار وهي تطل من الشوارع على النوافذ... أذكـــر أنني في أول مراهقتي انتظرت الغمام مـــن هذه الفتحة ، انتظرت جرس درّاجة تليه رسالة تقذف إليّ من مرسل ما، حتى أني انتظرت أن يمـــر رجل وحيد لأحبه في وقت فراغه مثلا، كـــما في الحكايات العالمية التـــي كنت أقرأها أو أتابعها في أفلام الكرتون، لكن هذه النافذة لم تطلّ كل تلك الســـنين إلا على سرداب ضيق نتن الرائحة، وصوت شـــجار جارنا عبد العزيز وزوجته مريم.

– صبر الله هذه المسكينة على زوجها.

قالت أمي هذا وهي تنفث في وجهي دخانا كثيفا بنكهة التفاح، وتحدق في قدميها كطفل يكتشف للتو حركة أطرافه.

أخرجتُ لساني من حلقي قبل أن يصيبه الجفاف:

– ويمكن أن نقول صبره الله عليها، يمكـــن أن يكون عيبه الوحيد أنه زوجها!؟
لا تحتاج لأن تكون معنا، لتعرف أن ردي كان مصحوبا بنبرة "أنا آسفة! أنا غلطانة! أتوب..."
مررتْ كفها على جبينهـــا، ورفعت غرتها الناعمـــة عن وجهها، وهي تنفض رأسها للخلف، كأنها ترد كرة قذفت باتجاهه:
– هاتِ الورقة من جانب التلفزيون... خلينا نلعب باصرة.
كلامي عن الجارة اســـتفز أمي، ولعب الورقة هـــو طريقتها في رد هذا الاستفزاز الآن.
– هه، هه... عيبه الوحيد أنه زوج مريم؟
تســـخر من كلامي، وهي تهم بإنـــزال إحدى قدميها بدون مســـاعدة مني، بينما يدي لازلت معلقـــة على القدم الأخرى، وكأنها تمنحني وقتا لأبعدها عن قدمها، قبل أن تقذف بها بنفســـها. قامت أمي من مكانها، تركت حفرتها الكبـــيرة المضغوطة في الكنبة البنية. بدأت الحفرة تتنفس وتمتلئ بالهواء وتعود للأعلى بالتدريج بعد أن غادرتها، وكسفينة توشك أن ترسو باتجاه المطبخ، سحبت علبة ورق الباصرة وقذفت بها إلي وهي تقول:
– وزعي...
ثم الحقتها بـــ
– سأحسب حسابك معي في الشاي.
كيف لأحدهم أن يلعب مكرها! لا أعرف إن كنتَ من مكانك البعيد، لازلتَ مقتنعا بأنها تســـكنُ في ظلام زوجة أبيها، لذا تبدو قاسية هكذا، كما كنتَ تبرر لنا دائما حين نشـــتكيها إليك، أم أنكَ حين بعدتَ قليلا، وصرتَ ظلالا، رأيتها كاملة وغيرت رأيكَ بها!

عاقبتني على تأخري ودفاعي عن جارنا بـجولتين، ملأت فيهما رصيدها بالأوراق المتشـــابهة. فمرة هزمتني بالولد، ومرة بأخذ ورقتين هما نتاج جمع ورقة عندها، ثم بينما تعد هي رصيدها ونقاط الباصرة، خرجتُ أنا من اللعبة بنفاذ الأوراق، ورفعتُ يدي مستسلمة.

رفعتْ يدها متحمســـة وهي تخبرني باســـتعراض، أنهـــا جمعتْ أغلب الأوراق على الطاولة قبـــل هزيمتي الكبرى بالولد! أيدتُ هزيمتي بهز رأسي وأنا أنظر لعينيها، ربما تعي أن وسيلة دفاعي الوحيدة أمامها، هي تلك الهزيمة المستمرة في لعبة بالأساس لا أحبها.

(مضت ربع ســـاعة وهذه الرنيم تحدق في أنفها أمامي، أحيانا عليك أن تأتي بأي حركة كي نتأكد نحن المرايـــا أنك لازلت حيا، لا يوجد دليل لأســـباب هذه الهواجس عندنا، غير أن البعض يقول أنها حالة اســـتياء عامة نشـــأت أولا بين مرايا المصاعد، وذلك حين يُفتح الباب ولا يخرج الشـــخص بسرعة فتبـــدأ المرايا بالظن أن الواقـــف في المصعد قد مات، ثم انتقلت حالة ســـوء الظن هذه من مرآة في حقيبة ســـيدة كانت تقف في مصعد، وشـــت فيما بعد لمرآة ســـيارة عن مخاوف مرآة المصعد تلك، وهكذا انتشرت وشاية القلق من سكون البشر أمام المرايا.

ها هـــي أخيرا بدأت تصفر هـــذه الرنيم، أراها اليوم شـــائكة لا تغري بالاقتراب، لهذا كان رأس الثقيلة أزهـــار يغفو فوق صدرها من الملل. كل شيء في وجـــه رنيم اليوم ذابل، ويعبـــث به حتى هواء هذا المكيف. تداخلت أزهار معها بتصفير بسيط، فصارتا آلتين بشريتين لنفس المقطع الـــذي يدندنان به اللعنة... يصر البشر عـــلى الحصول على كل الأدوار، حتى لو كان دور آلة موسيقية).

– شاطرة يا بنت! تحسن تصفيرك.

(تجامل رنيم أزهار بدون أن تنظر إلي وجهها، وهي تعبث بخاتم لم أرها يوما بدونه.)

– لآخر مرة أســـألك يا رنوم، أعرف أنه حصل معك مشكلة بالبيت، هذا أمر منتهي، لكن المهم الآن متى ستطلعيني عليها؟

– طليقي سـيُبتعث لبريطانيا لإكمال دراسته، وسترافقه أخته للدراسة أيضا... ارتحتِ؟

– وإياد؟

– سيكون مع والده بالطبع.

(ألصقت رنيم جبينها بزجاجي، وخبأت عن أزهار دموعها. هذا الماء الساخن يجعلني لامعة أكثر من منظف الزجاج كريه الرائحة، الذي تسكبه أزهار فوق وجهي كل يوم.)

– يمكن أن يكون كلامي الآن محبطا، لكن لمثل حالتك ومع عائلة بحجم عائلة زوجك، لن أقترح عليك المحاكم ودوامة القضاء وأمزجة القضاة، ولدك هذا سيبقى ولدك حتى لو أُخذ إلى آخر العالم.

(رأيت في الميناء كرة كريستال سحرية، تعكس الصور مكررة آلاف المرات، أريد أن يتكرر بكاء رنيم بذاك العدد من المرات، حتى أعتاد جمالها وهي تبكي.)

– كلمي طليقك... اقترحي عليه مواعيد يوميه مع ولدك في مكالمات مرئية. اطلبي منه هذا بدلال وضعف، لا تحاولي أن تثبتي أنك قوية في كل مرة!

– بضعف!!

– بضعف يا رنيم. ولأنني متأكدة أن مذاقك لازال في فمه، قولي بخبث إن أردت أن تحضر معه المكالمة لتطمئن لنوع كلامي معه، وأنني لا أحرضه على العودة، فأنا لا أمانع... قولي هذا بضعف أيضا!

(اللعنة... اللعنة على أزهار وعلى كلامها الذي دفع رنيم لتمسح وجهها وتبتعد عني.)

– لا أظنه يجازف بتفويت فرصة النظر إليك بثيابك المنزلية، والتي ستلبسينها متعمدة، مرة أو اثنتين، ثم ستتصاعد رغبته في أن تكوني

قريبة، حتى لو لم تسـمحي له بالنظر إليك مجددا، سيكتفي بصوتك في أذن إياد.

(يا لزيف البـشر!! تدفعها للعب مع طليقها لعبـة المرايا المتقابلة، تريه حضورا يبدو عفويـا في ثياب منزلية، تكرر أمامه هـذا الظهور وهذه البساطة المتعمدة، ثم تنتظر أن ترى انعكاسها اللانهائي عليه!)

– صدقينـي يا رنيـم، لو أنعشـت عاطفته تجاهك، سـيحرص على إرضائك، حتى وإن كان مع امرأة أخرى.

(رنيم لم تستمع للجزء الخاص بحزن أزهار، الذي بدأت تسترجعه بعد كلامها عن طليق رنيم، ورغم أن الثقيلة بدأت تدمع عيناها، وأرجو ألا تأتي إلي، إلا أن رنيم كانت مشغولة بمسح كحل جاف تحت عينيها سال وهـي تبكي قبل قليل. مدت يدها لرف على يسـارها، وأخذت روجا بدا مائلا للحمرة في أول الأمر. التصقتْ بي، ومدتْ على شفتيها الروج الذي صار برتقاليا حين لامس فمها، ثم بحركة تفعلها معظم النسـاء فقط أمام المرايا، أدخلت إصبعها حتى غاب كله داخل فمها، ثم سحبته للخارج بهدوء شـديد، وبقايا لون الروج ملتصقة بأطراف إصبعها! لمَ يفعلن هذا؟).

– للتو مددتِ بحبل نجـاة لي يا أزهار، فلا تتذكري والدك الآن، لأني لن أمد لك بحبلي الوحيد!

(مع لون الروج الفاقع هذا، وأسـنان رنيم البيضاء... كم هو جميل أن يُخلق الإنسان بنتا!)

– ممـ... نشرب قهوة يا أزهار؟ ها.. قرعة؟

(مسحت الثقيلة دموعها بطرف كمها، وأنفها الغريب يسيل، وهي تهز رأسها موافقة على القرعة.)

– لبستِ وجهك بالمقلوب اليوم؟
هذه العبـــارة كانت تســـبق كلام أبي، إذا ما أراد أن يقـــول لنا: أجلوا مزاجكم العكـــر إلى ما بعد فترة الصبح. وأنـــا قلتها بعد الحادية عشر ليلا، لذا لم تفِ بالغرض مع أحلام:
– لديك أمر يضايقك، لاحظت أنك تكومين من الغسيل المتسخ مقعدا لك في الحمام، تجلســـين عليه وتبكين هنـــاك! أو أنك تكلمين أحدهم؟ صارحيني.
– تتجسسين علي؟
– تسمين قلقي عليك تجسسا! نســـيتُ بطاقتي معلقة في عباءة العمل، وحين عدت لأخذها بعد خروجك وجدتُ الســـلة مقلوبة رأسا على عقب! لذا أسألك فقط!
تململتْ مني بتنهيدة، ثم تشـــاغلتْ بهاتفها. لم أشأ أن ألح عليها، أردت أن أقترب من عمرها، فاقترحت عليها شـــيئا تحبه، وكنا قد فعلناه معا مـــن قبل، وهو أن نهزأ من معلماتنا الممتدات من جيلي إلى جيلها، إذ أنها تدرس بنفس الثانوية التي كنت أدرس بها، وفي عالم المدرسات لا شيء يتغير. بدأنا مشاهد تمثيلية صامتة من بطولة أزهار وأحلام:
ملأتْ ما تحت قميصها المقلم بمخـــدة صغيرة، وأرخت جفنها لتصير في هيئة شبه النائم وهي تمشي، باعدت بين قدميها لتقلد امرأة حامل...
– أبله منى!

مددتُ سبابتي نحو وجهها وأنا أصرخ بالاسم، وافقتني برأسها وعلى وجههـــا خيبة صغيرة، ففهمتُ أنها ودتْ لو أنني تعذبتُ قليلا، قبل أن أعـــرف الإجابة بهذه السرعة. قامت باتجاه شـــماعة الملابس، وحشرتْ صدرهـــا ببجاماتنا كلها، وجمعتْ شـــعرها من الخلف فـــوق عينيها، على هيئة غرة منكوشـــة. أخفتْ في منديل باطن كفها سعلة مصطنعة، وتكررت السعلة، وهي تضرب الجدار بكفها وتقول:

– يا صف أول... وبعدين معاكم؟

بالطبع كان سهلا أن أقول أنها أبلة علياء، لكنني فهمت اللعبة أخيرا..

– أووووه ...سهليها يا أحلام!!

ضحكتْ بلؤم لأن الأمر بدا وكأنه صعب عليّ، فأحلام طفلة محشـــوة بقلـــب طيب، وجينات أم ســـمينة. ثم عجلت في مشـــيتها وهي تنظر للأشياء من حولنا، تفتش عن علامة أخرى تدلني على الجواب:

– لاااااا... لا تقولي أبلة علياء!

أغمضتُ عيني بيدي، لتزيد حماستها، هزت رأسها موافقة وهي تتلوى من الضحك:

– برافووو...

ســـمعنا ارتطاما حادا أســـفل باب غرفتنا، بينما كنت أفرق شعري من منتصفه، لأتهيأ لتقليـــد أبلة ليلى. فتحتُ البـــاب وخلفي أحلام، وإذا بملعقة طعـــام مقذوفه من طرف الصالة، مســـتلقية أمام باب غرفتنا، وكأنها جاءت مشـــيا، وتوقفت حيث يجب أن يتوقـــف الزائر، ليطرق الباب...كانت أمي تغوص في الكنبة البنية كعادتها، أمامها التلفزيون، ونجم سينمائي يقف وحده في الشاشة، ويبدو وكأنه يبتسم لي. لا يظهر من الكنبة التي تبتلع جســـم أمي إلا طرف قميصها الأخضر، ووجهها المدور الصغير وهو يحـــاول أن يلتفت للخلف ليحدثنـــا. لولا اهتزاز

شـــحم حنجرتها، وحلَق أذنها الطويل، لقلت أنها في هذه اللحظة فقط: زهرة فل!

– يا باســـط ابســـط بناتي!! كسّرتم الغرفة من الضحـــك! تعالوا هنا، وضحكوني معكم!

ما إن خرجت أحلام متحمســـة لهذه الدعوة الســـخية من أمي، حتى تلقت منها ثلاث أوامر في لحظة واحدة:

– هاتِ الريموت، وجهزي الأرجيلة بماء بارد... لا تنسي براد الشاي.

أعترف أنه لم يعد يهمني أن أواجه رنيم بمشـــاويرها، التي تصر على ألا يفشي بها غازي إلي. يقول أنه يوصلها لعمارة في شـــارع الأمير سلطان، وبعد ســـاعة ونصف يعود إليها، وينتظر أيضا ربع ســـاعة أخرى قبل أن تنزل إليه. ولم يعد يشـــغلني سر أحلام كثيرا، خصوصا أنني صرت متأكـــدة، أنها تتعمـــد أن تجعلني ألمح التغير الذي تحدثـــه متعمدة، فور دخولي لمكان هي فيه. لعلها تحاول أن تلفت انتباهي لا أكثر، كما فعلتْ قبل يومين، حين كنت على وشـــك أن أضع المفتاح بباب الشقة لأدخل بيتنا. سمعتها تضحك وتعلق مع محسن على لبس مذيعة النشرة الجوية، وما إن دخلت حتى تبدل وجهها، الذي كانت ضحكته قبل قليل تبتلع تجهمه الطارئ بمجرد وصولي.

محسن يحدث أمي عن مصادفته لقريب لنا، وبخه كثيرا لأنه ويوسف منذ عزاء والدي، لم يرهما أحد من أفراد العائلة، ولم يحضرا أي مناسبة داخل الأسرة، فنحن كما تقول أمي دائـــما، لا نحتاج الأقارب إلا في الضراء. كان محســـن يحدثنا، وأمي منهمكة بتقشـــير برتقالة موضوعة في صحن دائري فوق جزء من بطنها، ولأنها ســـيدة أنيقة جدا، فقد قشرتها دون أن تقطـــر منها قطرة واحدة. ها هي (المارشـــميلو) أخيرا تلتزم بحمية الطبيب.

– كيف كان زواج زميلتك البارحة؟

التفتتْ أمي نحو أحلام فجأة، فكلام محســـن عن قريبنا، ذكرها بطريقة

ما أن تســأل عن عرس البارحة الذي اعتذرت أنا وأمي عن حضوره. أما وجهُ محســن المتعجب في زاوية الصالــة، وفمه الذي صار بئرا وهو ينتظر أي ردة فعل على كلامه لأمي، فإنه لم يذكرها بشيء.

– الله.. الله يــا أمــي... البارحة تمنيت لو أنك وأزهــار حضرتما معي العرس.

قامت أحلام من مكانها لتلتصق بكتف أمي كعادتها، وسمعتُ صوت قبلتها تتخضخض على خد أمي، بينما أنا منشــغلة بشــق كيس نايلون شفاف يغلف مجلتي الجديدة. لا أعرف لم يسبب لي هذا الدلع قرفا منهما معا، لذا لا أنظر إليهما.

قاطعتها أمي في قصة العرس أربع أو خمس مرات، دون أن تلقي بنظرة واحدة لوجه أي منا، فالبرتقالة أهم...

مرة قاطعتها وهي تشير للجهة الغربية من بيتنا:

– كانت جيرة أم عادل أحسن جيرة، بارك الله لهم في عرسهم.

ومرة وهي تضيف:

– عادل أم نادية أم نجلاء... من ولد قبل محسن بأربعة أيام فقط! أذكر أننا كنا في النفاس معا، والجارات يقسمن وقتهن بيننا.

هذه إحدى المرات النادرة جدا، التي تنبش فيها أمي شــيئا من ذاكرتها، لذا تحمستُ أنا أيضا وأضفتُ شيئا من ذاكرتي:

– كنا نســمي نادية التي درســت بنفس صفي، قبل أن تنتقل من حينا بـ"ضفدع البركة"، لأن يديها مبللتان وباردتان دائما.

لمَ يحدق بي الجميع هكذا الآن، وكأني وحدي من قاطعت كلام أحلام ؟

– لنادية أخــوات منتشرات في كل مرحلة، وأخ واحد أصم، أم لهم أخ سواه يا أمي؟

– هو بعينه الأخ الأصم "عادل" يا أزهار، كان عرسه البارحة.

ردت أحلام بوجهها الذي بدا مسالما جدا، وهو متكئ على كتف أمي، وكأن مقاطعاتنا لها لم تثر غيظها، ولم تحول مسارها عن إتمام ما تريد قوله عن العرس.

– عروس عادل اســـمها أمل، وهي صماء أيضـــا. تخيلي كنا نرقص على إيقاع لا يســـمعانه، وكانا يرقصان على إيقاع لا نسمعه. إيقاعهما داخلي هنا يا أزهار...

كانت تشـــير إلى جهة قلبها، وكأنها تختبر دقاتـــه وهي مغمضة العينين.

لاحظتُ أن المســـافة بين الأمس واليوم ضاقت في نظرها، وعادت بها للعرس، وهي الآن تحدثنا من هناك:

– لا أعرف على ماذا كانا يرقصان، لكن وهما يستندان لكتف بعضهما، بدا أنهما أسعد من كل الحضور.

ثم فجأة توارت كوشة الرقص تلك، على وقع صوت قذفة قوية للقمة برتقـــال، وجهتها أمي مباشرة للصحن، وفمها مزموم للأســـفل وهي تقول:

– حامض...حامض، حمير كوالدكم، لا يمكن الاعتماد عليكم ولو في ربع كيلو برتقال!!

حين كان أبي يخلع عن فمي سني الصغيرة ويقول :
ارسلي للشمس أمنية...
كنت أغمض عيني ، و أتساءل :
لمَ لزاما على الأمنية أن تأتي مصحوبة بكل هذا الألم !؟

– العبوا مقابل هذا الباب... فاهمين!!
سـيدة ممتلئة، صرخت بأطفالها الثلاثة قبل أن تدخل سدرة، في الساعة الأخيرة من الفترة المسائية.
– عيونكم عليهم بالله.
لم أشعر بالمذلة حين قالت ذلك، وهي تشير لأطفالها، إذ أنني ورثت عن أبي يقيني التام بأن التعامل بلطف، هو ثأرنا الأقوى من حياة لا نثق بها. أما رنيم فلازالت تعاني نقصا في الاهتمام بالآخرين، لذا نظرت للسيدة بسخط، ورأسها مستند إلى الجدار:
– عيوننا عليهم؟ هذا شغلك أنت يا أمهم!! أما أنا فموظفة هنا!
تصرفتْ السـيدة وكأنها لم تسـمع رنيم، أو لعلها فعلا لم تسمعها. كان لطفهـا يميل للحماقة أكثـر، إذ أنها تبخ العطور على عباءتها، ثم تشـم نفسها، وهي تهز رأسها رافضة للرائحة، ثم تبخ عطرا آخر فوق الأول، وهكذا حتى سئمتْ من رائحة نفسها:
– ساعدوني أكثر يا بنات! أنا مع العطور بدون حظ ولا ذوق، آخر عطر اشتريته، كان يشبه رائحة «بروسبان» دواء كحة الأطفال!
كنتُ مخلصة لها في مراقبة أطفالها، وكانت رنيم عازفة عن خدمتها، لذا احتجنا لشيء كفتّاحة العلب، لنصنع ضحكة على وجوهنا، نسـاير بها مزحتها. لطيفة هذه السـيدة لولا أن صخب أطفالها جعل من وجودها أمرا ثقيلا على سدرة وعلينا، فهم ينظمون قفزات متتالية لقرع أجراس

سدرة، ومن لم يصل بسبب قصر قامته، كان يرسل كيس «شيبس» فارغ ليقرع الجرس بالنيابة عنه.
حسنا هذه أول مرة ألحظ أن لقوارير لعبة البولينج وقفة الناس، والكرة الثقيلة المقذوفة نحوها قد نسميها القدر، وتلك النقاط المسجلة أعلاه هي نصيبك من الدنيا! الثلاث قوارير المزعجة أمام الباب والتي كانت تتقافز لتقرع الأجراس تفرقت الآن، واصطفت خلف رجل أسمر، دخل مقذوفا ككرة لعبة البولينج، لكنه سرعان ما هدأ حين رأى السيدة.
سأل بصوت ناعس أحلم به كل ليلة تقريبا،كل ليلة منذ صادفته، وأنا أصب زيت الأستوما في الفواحة أمام الباب:
- خلصتِ يا غادة!؟
غلطتي أنني كلما وجدت باب العشب مفتوحا دخلته بقدمين حافيتين، لذا لازلت أُقرص من أبسط أحلامي... التفت إلى الرجل أراقبه، وأتخيل أنه رفع يديه ولوح بهما كعلامة إكس فوق رأسه، ليخبرني أن الحلم انتهي، وأنه كان يُجلب من فراشه كل ليلة مكرها، وأنني أقلقتُ نومه، فجاء بعائلته كلها شفيعة له من أحلامي به طوال الأشهر الماضية.
رنيم المرتبكة الآن بين أن تنهي مهمة البيع، وأن تلتفت لتضمني قبل أن أصرخ، تؤيد أي اختيار يطرح عليها لتتخلص من هذه الأسرة سريعا، وتُلحق اقتراحاتهم المتناقضة بكلمة:
- ممتاز، اختيار موفق... نحاسب؟
قرر أخيرا لزوجته عطرا كلاسيكيا اسمه حلم... يا للذوق، ولعلها شفرة يرسلها إلي! اشترى لزوجته عطرا آخر وهو الذي أضع منه عادة: عطر الكرز الياباني. ربما هذه أيضا شفرة ليخبرني أنه شمني.
جَزَّ الصمت أصواتنا، وأنا آخذ منه بطاقته الزرقاء، وأمررها في الجهاز

كنصـــل يحفر قلبي. مســـحت بأصابعي على أرقام بطاقتـــه البارزة، ثم ناولته إياها متعمـــدة أن المس أصابعه، فهذه أبســـط حقوقي. دون أن أرفع وجهي إليه، ودون أن ينحني هو لضجيج أطفاله من حوله، رتبتُ لزوجته أغراضها، وناولته إياها.

خـــرج الحلم دون أن يلتفـــت حتى، وحولـــه حبات البولينغ الثلاث، وأمهم السمينة تتبعهم. الآن فقط فهمت يا أبي إحساس أغنية «الله يرد خطاك»، حين مات طلال مداح وتركها ناقصة على المسرح.

(خيط عنكبوت وجد طريقه لزجاجي، من أين أتى هذا العنكبوت! مما زاد الأمر سوءا أن مكيف سدرة يعبث به، فيصيبني هذا الهبوط والصعود لخيوطه بالدوار. دخان الفواحة المتصاعـــد، وأنوار جديدة وضعت في الممرات، تنبعث بســـطوع قوي داخل ســـدرة، لتنعكس على زجاجي. هـــذا ما أعاق رؤية رنيم لهذا الخيط، لكن الحمقاء التي تقف أمامي هربا من ثرثرة غالية، لا بد أنها ترى هذا الخيط اللعين. دخلت غالية لســـدرة بوجه غاضب، لأنها وقبـــل خروجها من بيتها، أحرقت «غترة» والدها بالمكواة، وغضبها هذا لأنه لم يكتفِ بسيل اللعنات والشتائم أمام جدها وجدتها وزوجتي أبيها وأمها، بل استغل أنها بقربه في السيارة ولن تهرب لأي مكان أو تغلق أي باب في وجهه، فاستمر بتوبيخها حتى وصلا معا إلى باب المول. هذا ما تظنه هي أما ما تخبر به المرايا الجانبية لسيارة والدها فهو أكثر، إذ أن عصبيته تلك كلفته مخالفة قطع إشارة وتجاوز سرعة.)

– لا يلام يا غالية واسمحي لي في هذا، تحولت الآن من علامة «كشخة»، إلى خرقة للمطبخ.

(تحويل الغتر والفنايل لخرق هي عادة تخص أزهار، إذ أنها تأتي من وقت لآخر بفنيلـــه مقصوصة الأكمام لأحد أخويها لتمســـح بها زجاجي... اللعنة عليها وعلى كل ما يجيء من بيتها.)

– فكيها يا غالية!!

(مالت رنيم برأســـها فوق كتف غالية، كما تميل على زجاجي حين تقرأ رسائل هاتفها.)

– حقيقة والله...أكره الغتر يا بنات، وأكره كيها حتى، ولن أجتهد أبدا في تعلمه! أذكر من أيام المتوسط أن جدتي قَدمت لي تعريف «الشرف» بإيجاز لافت بواسطة غترة بيضاء... تخيلوا! عرّفتني عليّه أول مرة وهو ممدد فوق طاولة للكي، أرتني وهي تمرر المكواة فوق غترة جدي بعناية وحذر، كيف أن الأبيض قماشٌ قلقٌ ضعيفٌ يُدنس بأبسط الأشياء، وأنها لابد وأن تشبهني أو أنني أنا من أشبه الغترة ، وكيف أن قطرة الماء تلك التي بلا لون والتي نفثتها المكواة تركت بقعة من اللالون هناك:

(الشرف يشبه المرايا! آمُل أن ألتقيه يوما ما، فوصف غالية له، يجعلني أتأكد أنه ينتمي لنا أكثر من انتمائه للبشر.)

– بهذا رنيم وأنا وأنتِ يا غالية، بنظر جدتك ثلاث غتر تجلس في سدرة!

– ركزوا معي للحظة بدون مزاح بالله عليكم! لمَ على الشرف أن يجلس فوق رأس أبي مثلا، وليس محيطا بوجه جدتي كشرشف صلاتها الأبيض المعطر!؟ كنت سأحبه أكثر لو كان شرشفا؟

– شرشف جدتك يا غالية يغسل في الغسالة، ولا تتنصل خيوطه، أما غترة جدك فغسيلها يكون يدوي، وأصعب طبعا!

– ما الذي تعرفينه يا رنيم على كل حال عن الجدات؟ غالية تتكلم بجدية، وأنت قلبتِ الموضوع لغسيل وغسالة!!

(خيط العنكبوت سقط عني أخيرا، لأن الثقيلة حين انفعلت أزاحت الكرسي وهي تقوم من مكانها، فاحتك الجزء العلوي منها بزجاجي. رنيم وقفت هي الأخرى، ثم سحبت قارورة ماء كانت في يد أزهار، وأخذت تضرب بها على كتفها. يسمي البشر هذا الحركات مزاحا، يخيفك ويؤلمك وهو يضحك، ثم يتوقع منك أن تضحك معه لأنه يضحك. وقفت رنيم على الكرسي حذرة، ثم أخذت تضرب أسفل القارورة بضربات متتالية بقلم كحل مغلف بالبلاستك الشفاف...

هذا بالتأكيد لا يؤلمه)

– انتباه، انتباه... نأكل مع بعض بعد الظهر، ونكمل كلامنا عن الشرف أمام البحر، نتسكع حتى وقت فترة الدوام المسائي! موافقين؟

(أطلقـــت رنيم واحدة من أجمل صرخاتها وهـــي تحتضن كل من تبادر وتوافق أولا، ثم أخذت كل منهن تحضن الأخرى، دون أن يبدو أن لهذه الأحضان نهاية. لولا أن أزهار أزاحـــت خيوط العنكبوت عن وجهي ، لوشـــيت بها: تذكروا أن إحدى الواقفات بينكن تطلق عليكن بسوء نية: «حلاوة قطن» و«صندوق فاكهة» وتسميني «مرآة سدرة الخرفة»!)

خيارنـــا كان أي مكان، وأي فعـــلٍ غير العودة للبيت هـــذا اليوم، لذا غازي وســـيارته هما الأنسب لنا. خلعت نقابي وارتديت معهن نظارتي الشمسية، وتوجهنا نحو مطعم أثنت عليه رنيم، وهو عبارة عن سفينة قديمة لها خطاطيف وسيور من حديد، ترسو على شاطئ البحر وحولها شـــباك صيد وصخور كبيرة. يرتدي «جرســـوناتها» لبـــاس البحارة، ويحدقون بوجه رنيم ونحن نســـير معها. بعـــض الأمور تعودت عليها مـــن رفقة هذه البنت، أما غالية فيبدو من تنهيدتها أنها لم تتعود على دور الوصيفة بعد. قادنا ممر خشبي طويل، له رائحة خس طازج إلى باب في جانب الســـفينة، صعدنا منه إلى ســـطحها. هبت رائحة البحر وتمايلت مفـــارش الطاولات المثبتة بعلب المناديـــل وعبوات الملح في الأطراف. بينما نحن نختار طاولتنا، ونوشك على الجلوس حولها، سألت البنات:

- بظنكم كم عدد قصص الحب المكومة على هذه المفارش!؟

- والله مهما كثرت وتنوعت فلن تتعدى الخراب! رجل ترك امرأة لأنها لم تعد مغرية. امرأة تركت رجلا لأن ممارســـة الجنس معه صارت مملة. خائنان يمثلان الحـــب على الطاولة، وطبعا لـــكل منهما عالمه الخاص، أاااا... ولا تنسوا: فاسدان يرتبان للقاء مدفوع في آخر الليل!

قالت رنيم هذا، وهي ترفع نظارتها الشمسية أعلى رأسها، وتجر خصل شـــعر فوق جبينها، لتبدو وكأنها هبطت بعفويـــة، وبدت كذلك حقا. أخذني رأسي المحشـــو كمصران خروف، وأنا أنظر إليها، لكلام غازي عن مشاويرها السرية!

كانت غالية تعبث «بمنيو» مكتوب عـــلى ورق مقوى، قبل أن تضيف ملاحظة خبيثة، لاحتمالات القصص التي بدأتها رنيم:

- كل احتمالاتك تدور حول الجنس يا رنيم!!

ضحكتْ بارتباك، وهي تعيد لسانها لحلقها سريعا:

- أمممم أمممم، أنا آخذ سمكة مشوية مع بطاطس وبيبسي، وأنتم؟
رمـــت بالمنيو على الطاولـــة، وفردت يديها في اتجاهـــين كطائر قادم من أفق البحر. أظافرها أنيقة جدا ورأســـها مرفوعة صوب الشـــمس، لذا لمع خزام أنفها الذهبي، وصار سوارها في العباءة السوداء تحت الشمس بلون البرتقال. بارعة أنا حين ســـميتها صنـــدوق فاكهة... فمها خيط رفيع يغطيه روج شفاه وردي لامع، وفي منتصف الطريق بين الضحكة والابتسامة، فتحتْ فمها وكأنها تشرب الهواء، لكن رنيم قاطعتها فجأة:
- غبية... غبية!! سكبتِ الملح على الطاولة برميك للمنيو بهذه الطريقة!!
- وإذا سكبته يعني ياموسوسة!!
رنيـــم تلملم الملح وتخبئه تحت منفضة الســـجائر، وهي مرتبكة وتحرك أنفها و تجعده بعصبية، وكأنها على وشك أن تعطس.
- ســـكبُ الملح على طاولـــة الأكل حظ سيء يا بنـــات، صدقوا أو لا تصدقوا، لكنه حظ سيء والله، وعســـى ألا نجد الدليل على كلامي بعد قليل!
ضحكت أنا وغالية، ولم أضحك من تفسيرها، بقدر ما أضحكني قول غالية:
- هذا على أساس أننا نتمرغ بالحظ الحسن؟
أعادتنا غالية لكلام رنيم قبل قليل:
- يوجد احتمال سقط من احتمالات قصص الحب يا رنيم، هناك احتمال أن يكونا شخصين متحابين فعلا!!
أشارت غالية بعينيها وإبهامها يسارا، دون أن تلتفتْ للطاولة الوحيدة، التي يجلس عليها اثنان الآن.
انظروا... خوفهما مفضوح، وحبهـــما مفضوح أكثر، وإلا لما كانا فضلا اللقاء في هذا الوقت الميت من النهار، والذي يُستبعد طبعا أن ترى فيه

«سيارة الهيئة». ألم تلحظوا كيف تلفتا في كل جهة حين شعرا بصعودنا الدرج!
نفثت رنيم حزمة دخان من شيشة الورد التي طلبتها قبل الأكل، فتذكرتُ أمي، ونظرتُ لهاتفي ولم أجد أي اتصال مفقود منها.
– ما المهم إلى هذا الحد في مواعدة حبيب؟ ما الذي سينقصها لو كانت الآن أمام تلفازها في بيتهم، تتابع مسلسلا سخيفا، في مكان آمن على أن تعيش هذا القلق هنا ؟
شعرت بنظرات الاستغراب من رنيم وغالية.
– أقصد ما الفائدة من هذه المغامرة الآن! لو كان حبا خالصا بدون رغبات جنسية، ألا يكفي أن يتحدثا على سكايب مثلا أو الفيس تايم؟ يتعارفان بقدر ما يشاءان، إلى أن يصبح الأمر رسميا، ثم يخرجان مع بعضهما بثقة تامة.
لطالما قابلت رنيم وغالية أسئلتي بأفواه مفتوحة وصمت طويل، أما الآن فجاء الرد بحك رنيم بالسكين، في طبق به قطع فيليه سمك الهامور بالسبانخ. ليس قاسيا لتضغط عليه بهذه القوة، لذا خمنت أنني أزعجتها بكلامي عن سكايب.
– عن نفسي... أصوتُ لقصة الحب الحقيقية، ولو خسرتني أعصابي، ووقتي، وثقة أهلي... ولو خسرتني حتى مليون ريالا.
كانت كف غالية لازالت مرفوعة، وتصوت وحيدة في الأعلى، وعيناها مسحوبتان لليسار باتجاه طاولة العاشقين.
– وقت التراجع لم يفت بعد، مازال المليون معك ، اخفضي يدك وحافظي على مليونك بالله عليك قبل أن يطيره الهواء! أرجوك لا تبددیه، لأجل أهلك وصديقاتك!
أول شيء فعلناه بعد كلام رنيم هذا أننا ضحكنا، وضحكنا كثيرا طوال

وجبة الغداء تلك. هل بوسعك يا والدي أن تسامحني على هذه السعادة؟ إن أبعدتك عن ذاكرتي قليلا، فلن يغير هذا في حالك شيئا، ستظل راقدا وعاريا تحت التراب في كل الأحوال.

همومنا كانت تنحسر ونحن معا أمام البحر، فيما ثرثرتنا تتمدد، حتى أن مشـــهد الحبيبين صار ملائما لفرحنا. ربما لا نحتاج في حياتنا إلا للرضا وبعض الحرية، لنسامح الآخرين على ســـعادتهم التي تنقصنا. توقعتُ بـــما إنه دوام الفترة الصباحية، فلن يفتقد أحد غيابي وقت الظهيرة، لأن إخـــوتي عادة خارج البيت في هذا الوقت، وأمي أقســـى من أن تتصل، وأحلام غريبة عني في هذه الأيام، فلن يرن هاتفي... إلا أنه رن.

– السسساعة تتتتشير إلى كم ففففي يدك يا آآآنسة؟

سؤال يوسف كان خفيفا على القلب، بخلاف ثقل لسانه. رددت عليه بسرعة لم أخطط فيها لتحديه بطلاقتي، وأوهمته أن لعجلتي هذه سببا:

– البطاريـــة مخلصة، طمئن من حولك، أرجـــعُ للبيت بعد دوام الفترة المســـائية، وأعلمك بالتفاصيـــل. ألو... ألو... أغلقـــت الهاتف فورا، وقذفت به في حقيبتي مع شحن للبطارية لا يقل عن ٪70.

لم أرد أن أفوت الوداع بين العاشـــقين، لعل هذه أول مرة أرى فيها قبلة مباشرة أمامي بعيدا عن الأفلام وصـــور الإنترنت. رأيت أعينا وادعة كثيرة، لكن ليست كهذه. كانا قد ألفا وجودنا، وربما تصنتا على كلامنا كما تصنتنا عليهم لحظة جلوسنا، فتأكدا أننا ثلاث ستائر طيبة، ومناسبة لأن تكون ساترا حنونا حول قبلتهم. يا ألله... على باب هذه القُبلةِ وجهٌ يتدلل، وجهٌ يراوغُ الاتجاه ويبتسم ليُطيل الاقتراب زمنا أطول.

صوت رنيم جاء خائرا، وهي تنسى على ماذا كانت تنادينا لنرى معها:

– بنات... بنات شـــوفوا...

الواضح أنها ليست المرة الأولى لهما. هذان العاشقان يعرفان الطريق نحو

شـــفاه بعضهما جيدا. داعبها بقبل متتالية خفيفة كنقر، جسر من الحوار بلغة خاصة وبرأســـين مائلين نحو بعضهـــما، لغة عن نفسي وعن غالية بشـــهقتها الصادقة، لم نتكلمها بعد. غادرا بعد أن نقلا حوار الشـــفتين لأصابع كفيهما، وخلفا وراءهما ما تبقى من الأرض.

يبدو أن رنيم نسيت ليّ الأرجيلة في فمها، كما نسيت غالية مزاز العصير معلقا، أما أنا فكنت كخيل تقف عـــلى قدميها الخلفيتين وتصهل وهي رافعة قدميها الأماميتين في الهواء. كان في داخلي صراخ ونحيب، لكنني مثل صديقتيّ نفثته صوب البحر.

– لازلتِ متأكدة أن الاتصال المرئي يفي بالحب يا أزهار؟

قالت رنيـــم في محاولة لإغاظتـــي. خرجنا بعدها لنمـــشي أثناء صلاة العصر، حيث توقفت المحلات عن تقديم الطلبات، وفي انتظار أن يأتي غازي إلينا، انفصلت عنا رنيم بمقدار خطوات جلست ونصف وجهها باتجاهنا، وقدماها تغوصان في البحر. مرت من خلفنا ســـيارة مسرعة، صرخ شخص يجلس في المقعد المجاور للسائق:

– أصير لك بحر... هات أقدامك لترتاح على وجهي.

ضحك صديقه الذي يقود الســـيارة بضحكة هســـتيرية، صارخا فيها بجملة:

– صاروخ يا وحش...

كنت أنظر إليهما، وكانـــا ينظران إلى رنيم، لعل هذا الذي خلف المقود، مثلي أنا وغالية تســـتفزه جرأة صاحبه، كما يســـتفزنا جمـــال صديقتنا. يضحك لينســـى، كما نضحك أنا وغاليـــة لأن الرمل صار عالقا بعباءة رنيم، بينـــما عباءاتنا لازالت نظيفـــة. التفتتْ عائـــدة إلينا، وقد سرق الشرود ما بقي من ملامحها، لذا لم تنتبه للمكان الذي أشـــارت له غالية في عباءتها، لتنفض الرمل عنه.

في السـيارة وفي طريق عودتنا، مسـحت غالية وجهها بكفيها، وكأنها تنتزع منديلا أو شالا دفعه الهواء نحوها، وهي تقول بتململ:
– يا بنات... منظر "البوسة" عالق في ذهني!
– يا غالية يكفي كذبا... أصدق جدا أن أزهار لم تجرب هذا الإحساس من قبل، أما أنتِ فاسـمحي لي! على الأقل "بوسـة" يتيمة وخاطفة في غسق!
رفعـت رنيم يديها كعادتها حين تمسرح كلامها أمامنا، ثم نظرت في كل اتجاه، وهي تسكب ضحكتها الجانبية، وكأنها في انتظار التصفيق الحار، لتنحني للجمهور قبل أن يغلق الستار.
– من قال أنني لم أجرب؟
لا أعرف لمَ شـعرت أن كلام رنيم مهين لي، لمَ وحدي لم تتجاوز خبرتي مشـهدا على الشاشـة، بينما تؤكد هي على أنهما عاشتا التجربة، رغم أن غالية تنكر هذا!
– مستحيل طبعا!
ثقة رنيم الزائدة في حكمها، شـجعتني لأكذب كذبة محبوكة، وجهل غالية بي شـجعني أكثر. غالية تغرس مرفقها فوق فخذ رنيم الجالسة في المنتصف بيننا... تمد كفها من الجهة اليسرى في السـيارة، وتحاول شد كفي من الجهة اليمنى، لنلتقي في منتصف السيارة، فوق فخذ رنيم:
– قولي لنا بالتفصيل.
مطب كبير أوقعنا فيه غازي، منحني وقتا لأفكر.
– مممـ رجل تعرفه رنيم، جاء مرة لسدرة، يسأل عن محل رياضة دله عليه أحد رفاقه، ويـ...
– لحظة...لحظة! أعرف هـذه القصة بالتفصيـل، تكلمنا عنها مئات المرات، وجـاء ومعه قطار أطفـال، وزوجة غبية، وغـادروا بعدها،

وكلفتنـــي هذه الزيـــارة، كآبتك ليومين، وإجـــازة لحضرتك، وضغط مضاعف لي.
– أزعجنـــي أنها قالت هذه الجزئية عن الإجـــازة، فلا أذكر أنني عيرتها يوما، بإجازة أخذتها.
– أقصد يا أزهار... لا أذكر موضوع القبلات هذه!!
قاطعتني رنيم، وهي تعيد يد غالية إلى صاحبتها، وتدير رأســـها لجهتي يمين السيارة، وتلتصق بوجهي أكثر، كمن يحذرني من مغبة كذبة قادمة أمام غالية. في الحـــالات التي تكون فيها رنيم جـــادة أكثر من اللازم، تتفتح أبواب أنفها بطريقة مربكة، لذا هربت من وجهها لنافذة السيارة، نحو كاميرا ساهر اللئيمة المترصدة يمين الإشارة.
– رجع لســـدرة في اليوم الثاني ليوم لقائنـــا الأول، دخل وتجول وكنت للتو فتحت المحل، وقبل أن أطبع بصمتي على الشاشة، دار بين الأرفف قليلا ثم انتبه فجأةً:
– أووه !! نســـيت، هذه المحلات للعائلات فقط؟ وجودي يسبب لك مشكلة... صحيح؟
– الهيئة نائمة "حياك" .
قلت له هذا، ثم ابتســـم وأكمل هو تسكعه. أشار لعطورنا التقليدية في الخلف، وهو يقرأ أسماءها.
– هيه!! هيه لحظة!! أنتِ قلت الهيئة نائمة؟؟
تجاهلت سؤال رنيم. لم أشأ أن اقطع أفكاري المتسربة الآن، بالدفاع عن جرأتي أمامها.
– الأجمل بالنسبة لك الياسمين أو الفراولة أو المسك الأبيض؟
سألني وهو يفرك أغطية زجاجات التجربة، برقة وتمهل، متعمدا إثارتي بحركة أصابع يده، وحين كدتُ أسأله: ما شأني أنا بما تشتري أنت؟ حمل

عطر الياسمين واقترب مني. حدق بوجهي لدرجة أربكتني، فسارعت إلى محاسبته، ورائحة سجائره المنبعثة من أنفاسه مع عطر ثوبه، تنسحب من مقاعدها، وتتخذ مكانها الأبدي في رأسي.
التفــتُ للجهة اليسرى، فكانت عينا رنيم وغالية تؤكدان لي، أن قراءتي للمجلات لم تذهب هباءً، بخلاف ما تظنه «المارشــميلو» بي وبمجلاتي دائما.
مددتُ له بكيس العطر، مدبســا في أعلاه الفاتورة، لكنه أعاده إلي وهو ممسكا بكفي:
– هذا الكيس، هدية مني إليك.
وقبــل أن أنطق بحرف، أو أرفض هديته، شــدني من ذراعي، وأكل فمي بقبلة لم أميز فيها إلا رائحة حلوى النعناع «بولو»، ممزوجة بالسجائر.
لوحة إعلانية في الشــارع لعطر من شانل، مرســوم عليها رجل بثوب وشماغ، وهو ينحني أمام امرأة مطموســة الوجه بعلامة مائية، ترتدي عباءة. مكتوب تحت العطر «فاجئها بهدية»! هذه اللوحة القديرة عندي، هي من أسعفتني بالقصة العاجلة هذه.
أصابع كف غالية متشــبثة بشــفتها الســفلى، ووجه رنيم بين مصدق ومكذب، لذا ختمت القصة:
– فمه يا بنات ليس المفتاح المناســب لفمــي صراحة، لم أكن أعرف أن شفاه الرجال رطبة إلى هذا الحد!!
نفضت كتفي وأغمضت عينــي بقوة، وكأنني متقززة من رطوبة القبلة تلك.
– لكن القبلة التي وضعهــا على ظهر كفي قبل خروجه، كانت مطابقة لذوقي تماما.
طبعا خرج بعدها من سدرة، تاركا على الطاولة كيسه الذي صار كيسي.

– كل هذا صار وأنا آخر من يعلم يا حيوانة؟
استغراب رنيم حمسني جدا، هذا يعني أنها صدقتني، لذا وبنفس ملامح الشرود التي كنت عليها وأنا أحكي قصة الأسمر الأستومي أكملت:
– يومها يـــا بنات حَملتُ قبلتـــه على ظهر كفّي من باب ســـدرة، حتى غرفتـــي. كنت حذرة كمـــن يمشي وبين يديه إناء يفيـــض ماؤه مع كل خطوة. خفت عليها كثيرا لهذا ضيعتها، ونسيت أن أخبرك بها!
للحظة ابتسمت لهما، كنت على وشك أن أقول:
– تررراا.... مقلبتكما.
لكنني وجدتني بدلا من هذا أبكي!! أبكي بصدق، وحرقة من أضاعت حبها، وكأنه حضر الآن كذكرى حدثت بالفعل، وأحرقتني العودة إلى أماكنها قبل قليل!!
بصوت التجربة العميق قالت رنيم، وهي تحضنني، بينما غالية تخرج لي من حقيبتها منديلا:
– هذا يفسر تعلقك به يا بقرة، وأنـــا كنت أظن تعلقك به مجرد مراهقة متأخرة.
– ما اسمه؟
قالت غالية وهي تناولني المنديل. عصرت أنفي ، ثم كســـاحر يستغل القماش ليمرر لعبته من تحته، أخفضت المنديل للأسفل، ورفعت رأسي بثقة من لن تخذل صديقاتها. أخذت نفسا عميقا لأسترد صوتي بعد كل هذا البكاء:
– حسن... اسمه حسن.
تلفتتا لبعضهما وهما تهزان رأسيهما. رنيم تتفوق على غالية بسبق الرؤية لهذا الأستومي، لذا كانت تهز رأسها مؤكدة بثقة لغالية:
– لائق، لائق عليه اسم حسن... الأسمر حسن.

آآاه... لِمَ كلما ابتعدنا عن الحقيقة، نصير مقنعين أكثر؟!

في حياة أخرى سأعود عصفورة كهذه، سأراقب امرأة تلتقط لي صورة وتفرح، لأنني لم أطر قبل أن تكمل لقطتها. أعدتُ هاتفي إلى حقيبتي، بعد أن أرسلت الصورة لقروب «بنات سدرة» متجهة للبوابة رقم واحد. وصلت مع الذين وصلوا قبل العاشرة بقليل، ألقيت السلام على بكر، وصديقه الجديد الذي بادرني بابتسامة، كشفتْ عن أسنان كبيرة أكاد أسمع من مكاني حركة لسانه حولها. فتحتُ سدرة، ثم أضأت الأنوار ريثما أفتح الجهاز لأوقع ببصمتي على شاشته، وقبل أن تهب رائحة فواحتنا في ممرات الدور الثاني، دخل في هذا الأثناء ما لم أظنهما زوجين، فيبدو أنهما اختارا أن يكملا نقاشهما همسا، وبمكان أقل اكتظاظا، متجاهلين وجودي:

– من متى وأنا أجري وراءك يا رباب ؟

قرع رأسه أجراس سدرة، وهو يمسك بذراعها غاضبا.

– من فضلك هذا مكان عام... لا تمسك يدي بهذا الشكل!

وجهها وفزعها منه في البدء، جعلني أشعر أن محلنا هذا هو الجبل الذي آوت إليه من هذا الطوفان. الأخوان اللذان يملكان محل أحذية «كل جديد لمشية من حديد» في هذا الدور يأتيان أحيانا مع بعضهما، وأظن أحدهما يتعمد ملاقاة رنيم حين تسبقه في الصباح أو المساء. يمر متعمدا من أمام سدرة. يرفع يده مسلما ومبتسما، وهو يسأل عن الأحوال بصوت كصوت من يقرأ الرسائل في الأفلام:

– عزيزتي رنيم... كيف حالك اليوم؟!
أما حين أكون بمفردي في سدرة، فينشغل بإكمال كلامه مع أخيه. حين مر اليوم ورأى ظهر هذه المرأة، وهذا الرجل ممسكا بذراعها، ظنها رنيم، وأن هذا الرجل يحاول إيذاءها، فانطلق إلينا دون أن يقرع رأسه أجراس بابنا، فهو قصير بعض الشيء مثلنا. دخل بينهما، تاركا المرأة خلفه، وهو يحدق ويصرخ بوجه رجل أطول منه بعشرين سنتيمترا أو أكثر!!
– ماذا تريد منها يا قذر؟ لمَ تسمح لنفسك بأن تمسك يدها هكذا يا حيوان؟
لم يشغلني هذا العراك عن ملاحظة أن له نفس أسلوب رنيم البذيء حين تغضب! تلفتت المرأة حولها، وهي تمد يدها نحوي، وتؤرجح كفيها بيني وبينهما:
– من هذا القزم الغبي؟ تدخلي إن كنت تعرفينه من فضلك! زوجي ما ينمزح معه!
كانت تكررها، وكنت آمل أن يلتفت جارنا، ويميز الوجه طالما لم يميز الصوت بعد. كل هذا حصل ربما في دقيقتين، لكنني استغرقتُ النهار كله في إعادة سرد الحكاية لرنيم، وبعض الليل أيضا في سرد الحكاية نفسها لأحلام.
في ذات اليوم أغلقنا سدرة وقت صلاة الظهر، وكانت رنيم كلما تذكرت ما حدث قبل وصولها اليوم، تضرب بكفها على طاولة الكمبيوتر، وتخفض رأسها كتلاميذ الصف الكسالى، وهي تضحك بصوت عال:
– يا الله... كل هذا في صدرك يا حامد القزم! وأنا كنتُ أظن أخاك سعد هو من يحبني!!
«يا للبذخ!!» كدتُ أن أعلق على كلامها. أو ماذا أبقيتِ لنا، وأنتِ تكدسين الرجال من حولك؟

لكنها جاوبتني قبل أن أســأل، برقصها على نغمــة جوالها، من متصل تجاهلتْ الرد عليه، حتى تكمل رقصتها.

(تسـمي المرايا الـ«تان» الذي تصر النسـاء على تسمير لون بشرتهن به: خيانة. حتى لو قلن أن مفعوله لا يـدوم أكثر من عشرة أيام، كما قالت رنيم الآن للثقيلة، سـيبقى بنظرنا خيانة للون الأصلي للبشرة. ثم أنهن كاذبات، فمن من البشر، وليس النسـاء فقط، يستطيع أن يفكر بجسده على أنه ملكه تماما!)

مسـحتُ ألوان الحمرة والكريمات، التي جربتها على ساعدي، لتختار منها الزبونة ما يناسـب درجة بشرتها قبل قليل. أردتُ أن أحكي لرنيم مشـكلتي مع أحلام، التي يبدو أنها لا تحـزن وتغوص في أفكارها إلا حين تراني! اقتربـتُ من مكان جلوس رنيم خلف طاولة المحاسـبة، لكنها بادرتني:

– عجزتُ عن النوم البارحة... سـهرت مع إياد على سـكايب، وهو يكلمني عن معلمته، وعن متحف زاره مع والده.

بدأت رنيم في تقطيع فاتورة رمتها إحدى الزبونات قبل مغادرة سدرة، وهي تكمل كلامها:

– دار بي أنحـاء غرفته يريني ألعابه، ومكان سريـره! مر قرب مكتب والده، ليريني مجسم سفينة كسـبها في بازار. على فكرة!! لم يرفع ماجد رأسـه ليراني، أو ليرى هـذا التان الذي كررتُ اسـمه كثيرا أمام إياد، ليسمعني ماجد ويلتفت، ولو بدافع الفضول حتى! لم يفعل يا أزهار!!

– مشـغول بالدراسة يارنيم، الأمر طبيعي جدا، ثم هل يعنيك أمره إلى

هذا الحد؟ طالما صغيرك معك على الشاشة، أقصد هذا كل ما أردناه... صح؟؟

– ماجد الذي كان يطاردني، ليصورني على غفلة، ويتلذذ بتكبير تقاطيع وجهي في الصور، كلما غيرتُ لون الروج أو رسمة الكحل... لم يرفع رأسه لينظر للتان على«رومي» كما كان يسميني.

وجه المهزوم لا يلائم رنيم. شردتْ بذهنها، وهي تقلبُ بين يديها زجاجة عطر، هي خليط بين شذا ليمونيّ وزهرة الفريزيا المهجنة. هذا اللقاء بين الرائحتين، يشبه لقاء عائلة ماجد بعائلة رنيم، عائلتان من منطقتين مختلفتين، إذا اجتمعتا على ما بينهما من اختلاف، سيكون لهما عطر معقد كهذا.

حسنا... تقول المرأة: نعم صحيح كنت أحب في الماضي وتعافيت من الحب، ثم إذا انحنتْ، وزيفت وجهها بابتسامة عريضة، لتحجب سيل الدموع بمطب الضحكة المزيفة، تأكد تماما أنها لازالت تحب!!

سلمتُ لأمي راتبي مقطوعا منه مصروفي. دعتْ لي بالتوفيق وهي تدق الجمر بملقاطها، حتى يتكسر قطعا حمراء مثلمة، تناسب رأس أرجيلتها. شحم ذراعها يتأرجح، وهي تناولني من صحنها قطعة معجنات بالسبانخ صنعتها بنفسها، وكانت ظاهرة في أعلاها بصمة إصبعها على العجين قبل خبزه.

دخلتُ غرفتنا، ثم حدقت بوجهي في مرآة الدولاب الطولية. وجهي أكبر من أن أكون عشرينية، وهذا العِرق الذي يقدح في جبهتي هل هو جذاب حقا كما تقول عنه رنيم؟! لا أعرف لمَ شعرتُ الآن أنني ثمرة تفاح مقسومة، نصفٌ على الطاولة بهت لونه، والآخر أُكِل منذ زمن... دخلت أحلام الغرفة، وصُدمت لرؤيتي، لأنني عدت مبكرةً. مجرد وجودي أنا وهي في غرفة واحدة، يشعرني بأن ثالثا يجلس معنا، ووحدي لا أعرفه!

– أحلام... غير معقول ما يحصل بيننا، أمر ما يزعجك، ويوترك كلما رأيتني أمامك، وأعرف أنك تتعمدين أن تُريني هذا التوتر. افتحي قلبك لي وقولي ماذا يحدث معك؟!

اقتربتُ منها، وقمت ببعض الأمور المهملة في بيتنا. حضنتها، لمتُ رأسها فوق صدري، وضبطتُ شعرها المتطاير في حزم صغيرة. شامات ظهرها مرصوفة بشكل مائل، وكأنها تصف الطريق إلى كتفها:

– بالله عليك قولي لي ما الذي تكتمينه عني، ويتعبك ويتعبني معك.

قميصي من جهة ظهري صار مشـــدودا الآن، أحلام تتشبث به وتبكي، وأنـــا أضمها بقوة كي لا تتبخر من هـــذا البيت وتلحق بي. عرفتُ بعد هذه الزفرة أنها ستتكلم، لذا أعدتُ كتفيها للخلف:

– كلي معك... تكلمي.

دموعهـــا التي بللت عنقها، جعلتني ألوم نفسي لأنني لم أصنع من قلبي مرصدا خاصا بالنجوم، فأختي الصغـــيرة هذه نجمة لم ألتقط مرورها قبل الآن. كل الحقائق تبدو أبســـط بعد أن تنكشف المهم أن تنكشف، هذا ما قرأته يوما، وأراه الآن وأحلام تتفتح وتكشف لي سرها البسيط، ولولا صغر ســـنها لما تعقد الأمر عليها هكذا. فهـــي تعيش حبا أولا، وحبيبهـــا يعيش معها خاتمة لقصصه. تفصـــل بينهما عشرون عاما، هو رجل يقرأها كمنهاج مكرر وســـهل عليه، لذا يتمسك بها، أما بالنسبة لها، فهو عينا الضرير التي عادت إليه بعد فترة عمى قاسية. يريد منها أن تهيئنا لقدومه... يهددها بتركها مرة، ثم يعاود الاتصال بها مرة أخرى. هي مـــن ترفض الارتباط قبـــلي، لأنني الأكبر، ولأن هـــذا الزواج قد يجرحني، أنا العانس الموبخة من الحياة في نظرها.

الأمـــور في البدايـــة لم تكن واضحة لي كما أقولها لـــك الآن بالطبع، فلا تلمني لأنني لم أعرف ماذا يخبئ الغيب لأحلام.

صوت عمر رصين جدا، وأكبر من هيئته التي أرتني إياها في صوره على هاتفهـــا. حين أملت علي رقمه لأتصل عليه من هاتفي لم تنظر للهاتف، ولم ترتبك في رقم من أرقامه، وهذا بطريقة ما جعلني أطمئن لعلاقتهما، الاطمئنان الذي لازلتُ ألوم نفسي عليه حتى الآن.

اتفقنا أنا وعمر على تحديد موعد للخطبة الرســـمية، بعد مفاتحتي لأمي وإخوتي، والذين لا أظن أن أحدا منهم سيســـأل عن العريس، بعد أن يعرفوا أنه مهندس، وأن أباه كذلك مهندس، فبعض الوظائف يصعب

أن ترد، فما بالك لو كانت هذه الوظيفة متوارثة في العائلة الواحدة.
تركتني أحلام في الثانية فجرا. نكهة عمر تتسلل من حلمها الآن، ويبدو أنها حسمت أمرها بعد إقناعي لها بأن زواجي أو زواجها، لا علاقة له بمن وصلت للدنيا قبل الأخرى. رتبت أمرها كذلك حتى من ناحية دراستها، فهي لم تبالِ بالوقت الذي استغرقناه في الكلام، ولا بموعد الاختبار المدون بتاريخ الغد، في ورقة معلقة على باب دولابها.
يؤرجح هواء مكيف غرفتنا الورقة المدون عليها جدول اختبارات أحلام، ورغم أنني أتابع حركة الورقة منذ ساعة، إلا أنني لا أدوخ ولا يرتخي لي جفن. في ليلة كهذه طبيعي جدا أن يهبط الشوق للأسمر الأستومي، والذي نسيتُ بماذا أسميته لرنيم وغالية. همستُ له كما همست أحلام لعمر قبل أن تنام:
– آاااااه لو أنني أجيءُ إلى بيتك بعد أن تنام، وأرتشف بقايا قهوتك قرب طاولتك، أقبّل مسار القهوة العالق على أطراف كوبك، فهنا تريثت شفتاك. كنت سأكمل كلامي معه، لولا أنني تخيلت أنني أتعثر في ألعاب أطفاله المنتشرة في كل بيته هذه الساعة، ولأنني متأثرة بالمهندس عمر فقد تخيلت الألعاب عبارة عن:
خوذة صفراء، مسطرة مرقمة، مجسمات لمباني صغيرة، مثلث رسم كبير... وأصفر أيضا.

هذه أول مرة يزورنا حامد من بعد يوم المشـــاجرة مع الغريبين، والذي فضضته بطرد ثلاثتهم من سدرة، وبالمناسبة هذه أول مرة لا أراه ملتصقا بأخ له:

– استمري، استمري...

– عفوا؟

ملامح رنيم التي تصطنعها أمامه متعالية جدا، وتســـتعجل طعنه، رغم أنه كان يحاول أن يكون ظريفا، وهو يدير كفيه كعجلة تلف:

– قصدت اســـتمري بالتصفير، هذا ممتع، كنت أحاول أن أميز الأغنية فقط، لذا دخلت.

فرقعة زيت فواحة البنفسج في مدخل سدرة جعلت حامد يتصنم قليلا ، كمن قُطع عليه تســـميع كلام كان يحفظه متسلســـلا، لكنه عاد ورفع سبابته في الهواء، لأنه وجد جملته الضائعة:

– كنت تصفرين لحن أغنية مليون خاطر...صح؟

ضحكت رنيم بصوت عال، وكأنها لازالت تصر على إحراجه:

– أول مرة أسمع بأغنية بهذا الاسم! مليون خاطر؟ أغنية مصرفية هذه يا حامد!

بحكم العـــشرة أعرف أنها تتصنـــع كل هذا الضحك، وهـــذه النظرات المتعالية. تهدّل وجهه، وارتخى فكه قليلا، وربما شـــعر بالخذلان وكأنه هو مـــن ألّف كلمات الأغنية. تلفت قليلا ليهرب من ضحك رنيم المبالغ فيه،

ثم جاءه الفرج في هيئة زبونة مشبعة عباءتها برائحة البخور، حين دخلت إلينا مع طفلتيها، ففر حامد هاربا خارج سـدرة. أخذت أشرح للسـيدة مكونات جل المحيطات للاسـتحمام... كانت رنيم تدندن أغنية، لم أركز بها إلا حين سـمعتها تقول:«خاطرك عندي ترى مو مثل غيرك، خاطرك يسوى ترى مليون خاطر».

بعثرتني أغنيتها، جعلتني أحسـم مشـتريات الزبونة بالتوجه مباشرة للخزينـة، وأنا أتلفـتُ لوجه رنيـم لأتأكد أنها لا تُسـمع كلماتها من جوجل. حدقتُ بها وأنا أهز رأسي مسـتغربة، ثم في عجلة وبدون أن أغري الزبونة ببقية منتجاتنا الحديثة، حاسبتها على مشترياتها، ثم التفت لرنيم:

– لم كل هذه الشيطنة على هذا المسكين العاشق؟ أليست هذه هي الأغنية التي سألك عنها قبل لحظات؟ لو كنتِ انتبهتِ لوجهه فقط وهو خارج من هنا!!

رفعت رنيم أصابعها الرخامية، وبـدأت تحركها وهي تكمل الأغنية، وتتغنج بكتفيها وترقص.

– أكره أن تتعمدي إحراجه بهذه الطريقة، وألوم نفسي لأنني لو لم أخبرك بملاحظتي باهتمامه الزائد بك، لعاملته اليوم بشكل ألطف!!

– أزهـاري، حبيبتي...تتكلمين عن حامد وكأنه طفل يلعب بسـكين!! رجل ومعجب يا سيدتي، وأحاول استفزازه... أين المشكلة؟ حتى إناث الحيوانات تفعل هـذا، أم أنه يجب علي أن أقـع في غرامه من أول نظرة، وأمزق خيالي وقلبي على أوهام أعيشها بمفردي؟

بعض الإهانات مثل الصناعات اليدوية، متقنة ومحبوكة وتعمر طويلا، كهذه الإهانة مثلا.

إذا وقفتَ على مجرى نهر، لا تقطع طريقَهُ..
فكر فقط ممَّ هو هارب؟

أيام كثيرة تسارعتْ خلف بعضها، وكانت متعبة جدا لأمي، لأنها أخذتها في الاتجاه الصحيح للأمهات. فمعدتها الحمضية، صارت متشنجة معظم الوقت، بسبب التجهيزات لعرس أحلام، ولا نراها إلا وهي تميل برأسها، تطبق على سماعة الهاتف الثابت تحت رقبتها، كي لا تقفز من تحت أذنها، فيما تمسك بقلم، وتشطب وتضيف في ورقة، استعانت بخبرات كل الجارات لتملأها هكذا.

هذه الأيام متعبة لي أيضا، ليس كما يظن الجميع، بأن سبب حزني هو لأني لست العروس الأولى في بيتنا، بل لأنني صرت أرى سيارة أبي كثيرا. يجيء السائق من بعد صلاة العصر، ينتظر نزول أمي... أحيانا ترافقها أحلام، وغالبا جارتان في مشاويرها هذه، وتقوم إحداهن بدفع كرسي تجلس أمي عليه أثناء تسوّقها. اشترى محسن هذا الكرسي، بعد خطبة أحلام مباشرة، ووظب له مكانا في سيارة أبي الفان.

قبل توجهي للفترة المسائية من عملي، وجدت سيارة الفان البيضاء واقفة أمام باب بيتنا، والسائق يصلي العصر في المسجد. تجاهلت غازي الذي زمر، لينبهني أن اتجاه خطواتي ليس نحو سيارته. التصقتُ بالباب الأمامي لسيارة الفان، لم يعقني رف الصعود الرصاصي الموضوع أسفل السيارة، عن حضن الباب الذي لامس يدي أبي أكثر مني. ثم من سمح لـ «مرزا» بتعليق هذه الخردة تحت المرآة الأمامية؟ كان أبي يرفع رأسه لينظر في المرآة، ويرتب بأطراف أصابعه شاربه الخفيف... ذلك فقط

قبل نزول أبله ابتســـام، المعلمة التي لم ينادهـــا بابنتي، ولم ينس يوما أن يعطر السيارة قبل أن تصعد معنا، بمعطر جو برائحة الياسمين:
– آسفة تأخرت عليك يا أبو محسن.
حيرني أنها كانت تعتذر في كل مرة، رغم أنها لم تتأخر في أي من المرات. وكان والدي يوقعني في نفس الحيرة، وهـــو يهز رجله مرتبكا، في تلك الفجوة المظلمة عند الدواسات، ويرد بصوت متورم لا يشبه صوته:
– تحت أمرك أم فارس.
السقف الأزرق فوق المقاعد الخلفية في سيارة أبي، صار مترهلا كقماش، لم يعد سماء زرقاء، كما كان وأبي يقودها. صوت طلال مداح الذي كنت أظنه مربوطا بمفتاح تشغيل هذه السيارة كل فجر، لاحس له الآن.
وصلـــت أمي أمام بوابة العمارة، وهي تمشي متحاشـــية نظرات العابرين، فهي لافتـــة جدا بحجمها هـــذا، وتخجـــل وترتبك إذ مـــا توقف طفل وحدق في مشـــيتها. تنزل ببطء من الرصيف المجـــاور لمنزلنا، تنزل أولا قدمها اليمنى، ثم إذا اطمأنت لنزولها، تصب باقي جســـدها فوق القدم تلك، تمســـك بذراع الهواء قبل أن تلتقط أنفاسها، وهي تصرخ بي لأنتزع وجهي ودموعي من زجاج سيارة أبي:
– اكبري اكبري .. بنـــت بعمرك وبعباءتك، وملتصقة بالســـيارة بهذا المنظر!!!
يا ألله .. لمَ يُصر علينا آباؤنا أن نكبر؟

– أتى اليوم الذي تفتح رنيم سدرة قبل وصولي..!
قلت لنفسي هــذا حين رأيت من بعيد البــاب مفتوحا، وحين اقتربت وشممت رائحة فواحة بذور الفلفل الوردي ترشح في الجو والممرات، عرفت أن مزاج رنيم اليوم أصيل، وغالبا ستمضي النهار كله تغني لأم كلثوم. دخلتُ ســدرة، رأيتهما هي وحامد يتبادلان الحديث على مقربة من الباب، وهو يهمس لها:
– نعم ... مصر أن أعرف ماذا كان يقول لك بكر البارحة قـــــ...
صمت حين رآني، وهو ممســك في يده بخمسمئة ريالا، وكأنه يفتش في سدرة عن صرف لها. هذه حيلة مألوفة يقنع بها الباعة رجال الهيئة، فيما لو مر أحدهم واتهمهما «بالخلوة».
شــعرتُ بالحرج حين صمتا، لذا ســجلتُ بصمة حضوري وخرجت مجددا، رغم محاولات رنيم الغير ملحة بأن أنتظر.
أســوأ الرجال حظا ذاك الذي تســتخدمه امرأة لإغاظة رجل آخر. ويبدو أن لعبة رنيم هذه الأيام هي إغاظة حامد ببكر، إغاظة بكر بسالم من كشك الحقائب، وإغاظة سالم برجل عابر يضحك لها من بعيد.
لم تخطر ببالي غالية إلا حين رأيت واجهة غسق. في طريقي إليها انتبهت أن الســوق مزدحم، وهذا يعني أن رواتب الموظفين صرفت اليوم، أي أن عدد الزبائن سيكون أكثر، لذا عرجت على سايمون لأشتري قهوتي قبل المغرب، بخلاف ما تعودنا عليه أنا ورنيم.

متكئة عــلى طاولة من الرخام في انتظار قهوتي، أراقب العائلات تمشي معا، أقارن بين نظــرات الأزواج لبعضهم البعض، فبالنظر لأناقة هذه الســيدة مثلا، تقليمة أظافرها المســتطيلة، وطريقة لبسها للعباءة وهي مزمومة كلها تحت ذراعهــا الأيسر، وتطقيمة كعبها العالي وشــنطتها المقلــدة، ثم تقدمها عن زوجهــا بخطوات، حتى يتســنى له أن ينهي مكالمته المحرجة، والتي يقول فيها بصوت عال لشخص على هاتفه:

– بدون أعذار يا أبو وليد، الرواتب نزلت، أنت صديق وحبيب، لكن جمعيتي أستلمها كاملة... أنا لدي ضغوط هذا الشهر!!

وهذا زوج آخر يمشي كشــبح بلا ظل، فهذه السيدة تحتل ظله، فيما هي متشبثة بذراعه وكأنها ستهوي من جبل. فمها لم يتوقف ثانية واحدة عن الكلام، والعبوس في وجه أي امرأة تنظر لزوجها. لســتُ وحدي من يلمح عنقه المهورة بحمم الليلــة الماضية، وفمه الضجر من كل شيء حوله، ونظراته التي تصرخ:

– مللت هذه المرأة الغيورة المعلقة في كتفي!!

هــذا لا يعني أننــي لا أرى أيد مغلولة في الحب أثناء مشــيي في المول، لكنني بصراحة أتجاهلها وحســب. وصلت لغالية قبل المغرب، وحين دخلت كانت منشغلة مع سيدة وبناتها، بتعداد القطع الموجودة في حقيبة أرواب الاستحمام:

– روبان بلونين مختلفين، ســت مناشف بمقاسات متعددة، لكل روب مناشــفه الخاصة طبعــا، وجواربــه، يوجد أيضا رباط شــعر للروب النسائي، وحذاءان من القماش.

نظرتْ إلي وابتسمتْ، ثم عادتْ لتكمل للسيدة وبناتها جملتها الأخيرة:

– وطبعا يوجد بالداخل ميزان لقياس الوزن، العرســان تتغير أوزانهم كثيرا بعد شهر العسل.

لم يضحــك أحد ســواها من ملاحظتهــا الأخــيرة. رن هاتفي بنغمة خصصتها لرنيم، لذا لم أخرج هاتفي من جيبي. لم يكن لي رغبة بالعودة لسدرة الآن، ربما أردتها أن تشعر بالوحدة، ولعلها في وقت فراغها الآن ستظنني أغار من تكدس الرجال حولها... لا يهم.

توقعــت أن غالية تعطشــت لكذبة أخرى تدعم تلــك التي قلتها عن الأسمر الأســتومي في السيارة، لذا تشــاغلت بتأليف واحدة أخرى. انتهت من زبونتها وجاءت تســلم علي. كان يفوح منها عطر قوي يشبه العطور التــي تدخل في تركيبها زهور الباتشــولي، لكنه أنعم وأبرد... عجز أنفي عن عصر الرائحة في زجاجة، ربما لأن ذهني كان مشــغولا، لذا قلت وأنا أرفع يدي علامة الاستسلام:

- أعترف... رائحة حمراء، رائحة حمراء! ما اسم العطر؟

ضحكت غالية... وكم يظلم الصمت وجهها ولمعة عينيها.

- أرسلتُ صورته وسعره قبل يومين في «قروب بنات سدرة»!!

وفرتْ علي المقدمات، وذكرتني أنها سألت عن الأسمر في القروب ولم أرد عليها. وضعتْ تحتي كرسيا بلون أسود وقصير جدا. برمتُ ساقيّ للخلف وأنا أضبط جلســتي عليه، بينما هي تسألني بهمس إن كان قد عاد الأسمر الأستومي للمحل ؟ كنت أتشاغل بمكان قدمي، لأقنعها بأني أتجنــب الإجابة. هذا التهرب، أشــعرها بأنها أذكــى مني، وأنني مكشــوفة أمامها، لذا كان هذا كفيلا بإشعال أسئلتها، ووعودها بعدم إفشاء الأسرار إن تحدثت معها. كانت زميلتها في غسق، تلك الشاحبة الطويلة هــي وكل شيء في وجهها، تتبعنا بنظراتهــا في زاويتنا، وتعلق ســبحة في يدها. تستغفر بفمها وأصابعها النحيلة المتشنجة، وهي تمشي ببطء، وتدير باتجاه مدخل الباب رؤوس لوحات حمراء صغيرة، علقت فوق بعض الأركان ومكتوب عليها «تخفيضات ٪70».

أخفضنا أصواتنا ريثما تمر «الراهبة الثلجية» كما اتفقنا أنا ورنيم على تسميتها، فهي ترتدي عباءة وغطاء شعر يشبه ما تضعه الراهبات في الأفلام. كما أننا رأيناها في إحدى المرات، تكاد تسقط في السلالم الكهربائية أمام سدرة، وهي تحاول أن تلتقط سُبحتها التي وقعت من يدها، ثم حين التقطتها، قبلتها وخبأتها في باطن كفها.

- إحم... ظنك بمحله يا مكارة، قابلت حسن مرة ثانية.

كنت أهز رأسي علامة على أن الأمر خرج من يدي أمام دهاء غالية، وأنسق كذبتي لإطفاء فضولها، الذي يأخذ شكل حرائق تندلع في غرف عينيها التي تلبد الكحل في زاويتيهما، وهي تقترب وتلصق ركبتيها بركبتي، وتهز رأسها بنقرات متتالية لتستعجلني في الكلام...

- هاه ..هاه .. قولي وبالله عليك قولي كل شيء!!

سقط بيني وبين غالية الكثير من الكذب، الكثير من الخيالات والأمنيات المحترقة باللحم العاري والرغبات، وكلما رأيت دهشة وجهها تماديت في لسعها بالقصص، سكبتُ كل خيالاتي في أذن بليدة لا تميز الكذب من الجد. كل مشهد تمنيته في فيلم ولم يُقره المخرج، أو حذفه الرقيب... كل حلم حلمتُ به بعد قراءة قصة حب... قلته لغالية الآن، وكأنه حدث معي وحدي.

- أنت مصيبة يا أزهار!! أنت كافرة؟ كافرة والله!!

التفتتْ زميلتها بحدة، حين سمعت كلمة كافرة.

لم أنطق يوما كلمة «أنا» إلا أمام غالية، قلتها بتغنج ودلال دخيل علي، هو شيء سرقته من رفقتي لرنيم، لذا لا أسترجعه إلا في غيابها:

- أنا!! حرام عليك.

وصلني الآن صوت صفيرها، وهو يسافر من سدرة لغسق، محملا بأغاني العتب واللوم. وحدي أسمعه كطيور تتنبأ بالزلازل قبل

وقوعها، أما غالية فلم تلحظه، كانت تنظر إلى وجهي وتكز على أسنانها كمن يزعجه صوت احتكاك الملعقة في قعر قدر محترق.
– مصدومة من جرأتك، ومقهورة من تساهلك هذا معه يا أزهار!
– لا تقهري نفسك... هي حياة واحدة، ولابد أن نستغل متعها لآخر قطرة.
كنت أسمع من غالية الكلام الذي ألوم به رنيم دائما، لكنني حقا لا أعرف ما تلك الشعلة التي كانت تتقد في صدري كلما كذبتُ عليها؟ أمر ما يجعل يومي أجمل، وروحي أخف. رغبة تقودني للتمادي في جوف التفاصيل أكثر، ملابس نوم كنت أجمع صفاتها من القمصان المعلقة خلف غالية، لو أنها ركزت حولها قليلا، لا بالقصص التي أرويها، لعرفت أنني أكذب! حقائب وأحذية طبق الأصل من واجهة محل «العندليب» المجاور لغسق، كانت كافية لأتم وصفي الدقيق للهدايا التي أغرقني بها الأسمر السخي. شقق زرتها في طوابق عالية، أمدتني بوصفها صور في واجهة محل «السندباد للسفريات والرحلات». كل كذباتي كانت مأخوذة من زوايا وأركان حول غالية... لكنها لم تلحظ هذا.
بعد هذا اليوم، ما لم أسدده من قصص لغالية في غسق مباشرة، بسبب ضغط العمل والصديقات من حولنا، كنت أؤجله لها في البيت، وأكتبه بشكل أفحش في «الواتساب» وحين أنتهي من الكتابة، ترتخي كل عضلة متشنجة بي. كلام له تأثير المساج، وأنا أراقب ردة فعلها على كلامي، لدقائق قبل أن أسأل:
– أنتِ معي؟
أراها تكتب كلاما كثيرا، وفي أثناء انتظاري لردها الطويل الذي تكتبه، أنقر بإصبعي الشاشة مرارا كي لا تنطفئ. أستغل الوقت لألتفت

وأبتسم لأحلام العاشــقة في السرير المقابل. كلانا مستمتع الآن، وكل بطريقته، وحين أعــود إلي غالية، أجدها لازلت تكتب، قبل أن تتوقف أخير لترد برد واحد:

– معك، أنا معك...

– محوتِ الكلام؟ كتبتِ كلاما كثيرا ثم محوته... صح يا غالية؟

يــأتي ردها في هاتفها دائما بنفس الشــكل، صمت قليل، ثم خروج من «الواتســاب» متبوعا بوقــت آخر ظهور لها، وقــت يبقى كما هو حتى اليوم التالي... أعرف أنني كنت أستنزف مخزون صبرها،كما تفعل رنيم بصبري.

كطرحــة العروس هو الحــب، تُجهزها للفرح أيــدٍ كثيرة، ويدٌ واحدة تنزعهــا في آخر الليل، لتصبح عبئا ثقيلا على الدولاب... هذا ما تقوله الجهة التــي أفرغناها من دولابنــا، وعلقنا فيها فســتان عرس أحلام المنفوش وطرحتها الناعمة، وما يقوله حزن وجهها المدسوس في حضن أمي بعد عودتها من شهر عسلها. قمتُ لأجهز لأحلام «لقمة حارة»، كما طلبت أمــي، ومن مكاني في المطبخ كنت أتلصص على شــكواها، وبكائها من شيء لم أفهمه في البداية، لأن أحلام كانت تعرضه على أمي في وسيلة إيضاح طازجة فوق جسدها:

– لا لا... هــذا كله أمــر عادي يا أحــلام، بنت جارتنــا أم صقر... تعرفينها؟ زوجها مثل عمر، بعض الرجال يده قاســية في غرفة النوم، هي صفة خلقت به، مثل أنفه واســتدارة وجهــه، ليس بيده حيلة على نفســه، نقدر نقول لأحدهم غير خلقتك! هل نقول لعمر غير نفسك يا باش مهندس لأن بنتنا لا تحب أسلوبك؟

تكررت هذه الجملة مرتين. لم يســكتْ أحلام هذا التكرار، كان صوتها خافتا يرتجــف، وبكاؤها مقضوما تحت فكهــا، وكأنها تقول لأمي أن ضرب الحبيب هذا ليس زبيبا حلوا، كما تقول الأمثال.

خفــت أن أطل برأسي وأرى ما تريه أحلام لأمي على جســدها، خوفا مــن أن يراه أبي المقيم في داخلي دائما، فتؤلمه قلة الحيلة مثلما تؤلمني الآن. جلستُ على بلاط المطبخ، فالكرسي كعادته يتنقل مع أمي في كل مكان،

ونادرا ما نجــده قرب الطاولة هنا. كنت أحــاول أن أفهم من صوت أحلام الباكي كلام عمر، الذي تعيده على أمي:
– يقول... كما يوجد أناس يفقدون شهيتهم في الأكل الذي أمامهم إذا لاحظوا أن من حولهم يراقبونهم وهم يأكلون، فهو أيضا يفقد شــهيته إذا رآها تراقبه أثناء الممارسة، لذا هي معصوبة العينين في كل ليلة من بعد ليلة عرسها، وهذا يخيفها كثيرا.
وجهة نظر عمر، لم تعقب عليها أمي إلا بقولها:
– العبرة من الزواج هي الصبر، وانتظــار ما تخفي لنا الأيام، لأنه لابد وأن يأتي يوم يتغير فيه الحال!
حرقــتُ دون قصد منــي الأرز الأبيض بالخضار الذي كنت أســخنه لأحلام، فصار الأبيض بنيا قاسي الحبات. شــغلتني محاولة ربطي بين نصيحة أمي لأحلام، وعلاقتها بأبي طوال تلك السنين.
ما الذي كانت تنتظره أمي ليتغير الحال؟

مضى وقت قبل أن أقول بـــأن ذاك الثقب في حياتي، كان أهون علي من رقعة الكذب التي خربت بها حيـــاة غالية. كنت كحبة الفوار في كأس لأشهر مضت، نبع كذب يفور ويفور... وغالية هي الماء الوحيد الوافر الذي استوعبني.

اتصلتْ عـــلي، وأصرّت أن نتقابل غدا قبل بدء ســـاعة الدوام، لتأخذ نصيبها من مشورتي وخبرتي في العلاقات، بما يتناسب مع حالة تعيشها حديثا، وهـــي أيضا لا تريد لصديقتها القديمـــة رنيم أن تعلم بما يدور بيننا.

– قصة حب جدّية يا غالية؟

أخفضتْ صوتها عـــلى الهاتف، وبدأت تتكلـــم بالألغاز لأن أحدا من أهلها يجلس قربها:

– أعرف أن من يعمل عملا طيبا يا أزهار، لا يحب أن يضع اسمه عليه، حتى لا يضيع أجره. وأنت عملت عملا طيبا أنقذني، ولن أنســـى ذكر اسمك عليه.

للحظـــة خطر ببالي أن هوايتي ليســـت قراءة المجـــلات بل الكذب... هوايتي الحقيقة التي أبرع فيها هي الكذب:

– أنتِ أنبوب مفرغ يا بنت! أي شي يســـكب في داخلك يمر ببساطة؟ دققي! ركزي! كل شيء أخذتِه مني على أنه مسلمات!!

صعب علي أن أقول عن نفسي بشكل مباشر: أنا كاذبة.

ظننت أن كلامي هذا عن الأنبوب يعد تلميحـــا كافيا، لكنها غالية... البنت الأغبى من أن تفهم بالتلميح:
– يا وجه الخير... لا تخافي! دور البطولة دائما لك، هذه قصة جانبية إلى جانب قصتك مع حسن.
كان في فمـــي الكثير مـــن الوصايا فأنا الأخت الكـــبرى دائما، وكانت قبضتي جاهزة لهزها كثيرا حتى تتســـاقط القصص الجريئة من رأسها، وبـــذات الصوت الـــذي حرضها، يمكن أن أردعهـــا، لكن ردها كان محبطا:
– أحتاج أن أجرب يا أزهار، كيف أعرف الخطأ ما لم أجرب كل شيء؟ هاه؟
هذا تحديدا هو كلامي لها، حين حذرتني من عواقب علاقتي بالأســـمر الأستومي.
في اليوم التالي، أطلقتُ كل صفارات الإنذار في داخلي حين رأيت غالية تدخل من البوابة ثلاثة. لم أرها كصندوق فاكهة هذه المرة، بل كجالون بنزين. كانت قادمة باتجاهي في مدخل المول، قبل بدء الدوام بســـاعة كما اتفقنا، وهي تفتح يديها وتهم باحتضاني:
– أحبك يا أزهار، أحبك يا وجه السعد.
قالت هذا بصـــوت يضمر الضحك، وهي تنظـــر لطرف الممر خلفي، حيث يقف عامل صيانة المصعد. لا أعـــرف ما الإجراءات المتبعة بعد كلمـــة أحبك، فلم يقلها لي أحد من قبل. بالعـــادة تفتحُ فمي أي كلمة لطيفـــة، أما هذه تحديدا فقـــد كانت جديدة علي، لـــذا كنت خالية من أي تعبير على ملامح وجهي. كنت مشـــغولة الفكر فيما لو أنني شيطان معروف بين الشياطين باسم معين، أم أنني لازلت مجهولة بالنسبة لهم.
– أزهار.. يا أزهار من أين أبدأ في هذه القصة المجنونة!

جلســنا على طرف طوق من الرخام، يحيط نافورة تتوســط المول. كان ماؤها ســاكنا بخلاف حماس غالية الذي صار يشــبه حماســة صاروخ يصغي للعد التنازلي، يطلق دخانه استعدادا للصعود، ولاشيء سيوقف مســاره إلا كارثة في الفضاء. لمَ أقول كارثــة وليس قصة حب حقيقة؟ هذا لأني أعرف غالية ليس من مدة طويلة، لكنها كافية لأثق أنها كانت بحاجة لكُتيب يعمل كدليل استخدام لتسير عليه، وأنا منحتها إياه:

– يا غالية، يا حبيبتي، مثلــما أصغيت لي كثيرا قبل اليوم، اصغ إلي هذه المرة أيضا... هذه المرة أهم من كل المرات!

– أزهار أنا مواصلــة من الأمس، وكلي طاقــة للمواصلة للغد حتى، فرجاء لا تحضري لرأسي النوم بنصائح جدتي هذه! لازال وراءنا دوام يوم طويل.

قالت هذا وهي تعيد لف طرحة رأســها حول وجههــا، بطريقة أكثر تســاهلا مما رأيتها عليه من قبل، حتى أنني رأيتُ حلق أذنيها، لكثرة ما تمهلتْ وهي تعدل طرحتها.

– صباح الخير يا صبايا المول، له له له!! هذه خيانة، أين الملبن الثالثة عن هذا التجمع؟ أُفتن عليكم عندها؟ رقمها عندي على فكرة.

أثنــاء كلام غالية وفواز العامــل في محل الألحفة في الــدور الأرضي، لاحظتُ أن خيطا مربوطا حول ســبابتها، فعرفت أنها تحاول أن تُذكر نفســها بشيء ما. بعد مغادرة فواز وقفت غالية، نظــرت لعباءتها من الخلف ومســحت شــيئا ليس موجودا، ثم فكت الخيط عن إصبعها، ونظرت لساعتها باستعجال:

– عطلنا هذا الفواز!

شــعرتُ بها تتهرب من قول ما جئنا هنا لنتشاركه. تتشاغل مرة بنميمة بين فواز وإدارة المول، ومرة بنميمة عن رنيم ورقمها المشــاع حتى عند

فواز الغبي، ثم حـــين بدأ الباعة يفتحون محلاتهم، وبعض المتســـوقين يصلـــون، كانت نظراتها تتأرجح في دوائـــر عديدة، ثم تضحك وتخفي وجهها بكفيها:

– الـــكلام يحتاج إلى مكان أهدأ من مولنا، لنا موعد آخر يا زهورتي، أما الآن فالراهبة الثلجية في إجازة اليوم، ولابد أن أصعد لأفتح غسق".

لم ألح عليها لأن اللعبة التي لعبتها معها، بدأت تأخذ شكل هزة أرضية بالنسبة لي، لذا تجنب هذه الشـــقوق على الأرض هو الأفضل، طالما لا أســـتطيع أن أثنيها عن الحدوث. من بعد هـــذا اليوم صارت حيلتي في الهروب من غالية، تجيء دائما في أعذار سخيفة:

تأخر الســـائق عن موعدنا، ألم الدورة الشهرية، صداع رأس قوي يشل حركتي، أختي وزوجها ينتظراني في الأســـفل... وهكذا صرت أدس لغالية الأعذار بين المواعيد، حتى فهمتْ بنفسها أنني أتجنبها. طبعا هذا ما ظننته، قبل أن أعـــرف أنها هي من كانت تتجنب قول أي شيء محدد لي.

(قُرعت الأجراس فجفلت بعوضة كانــت ملتصقة بي... اللعنة عليها وعلى كل حشرة تظن نفسها تضاجع حشرة أخرى على زجاجي. خلف الأجــراس كان صوت بكــر حارس الأمن، الــذي كان ينتظر خروج السيدة هذه، لذا قرع الأجراس بيده ليستعجلها)

– العم صالح ســلمني الجمعية هــذا الصباح، وقــال لم يبقَ إلا بنات سدرة... خير يا بنات؟

– أنا لســت مشــتركة معكم في الجمعية يا بكر، خــذ جمعيتك من هذه الرنيم.

(قالت أزهار هذا، وعادت لتلون بكحل أســود مكســور، بقعا بيضاء تســبب بها لبن كانت تشربه في الصباح، وســكبت بعض قطراته فوق فخذها، وعوضا عن غسله بالماء، أخذت تلون الأبيض بالأسود... أي طريقة تتبعها أزهار لحل مشكلاتها!!)

– ليســت متوفرة معي الآن، إذا توفــرت أحضرتها لك بنفسي وعليها بوسة!!

(تصرفت رنيم وكأن بكرا لم يعد موجودا. التفتت لتحك بطرف مفتاح في يدهــا، بقعة صدى على أحد الأرفف. جبين بكر يتصبب عرقا، رغم برودة المحل التي تشــتكي منها البنات دوما. اقترب مني، ووضع كفه منفرجة الأصابع فوق زجاجي)

– أعرف نصيبي... تماطلين دوما يا رنيم! الجميع دفع، ولم يبقَ إلا أنتِ!

– لا... لم يدفع لك الجميع، لكنك تفرد عضلاتك علي أنا فقط!
(انزوت رنيم على كرسيها خلف طاولة المحاسبة، وهي تبدل أماكن شفتيها، تخفي شفتها العلوية بتلك السفلية التي تنقبض في نهاياتها، حتى بدت وكأنها ستبكي، فيما تتلو بشفتيها صلاة لا أفهمها)
– تتعوذين مني لأني أطلبك حقي يا بنت الناس؟
(ضرب المسكين زجاجي ضربتين، ثم مسح ندى كفه المتعرقة علي سطحي بنفس اليد، وعاد للخلف وهو يخرج من جيب أعلى صدره، ورقة صفراء مخططة، ومكتوب عليها بشكل عمودي أسماء من دفعوا له الجمعية)
أيمن / إكسسوارات
توفيق / بخور
جواهر/ عبايات
حسن / جلابيات
رشا/ حريمي
أيمن 2 / جزم
غالية / عيب
العم صالح...
(قاطعته رنيم، وهي تقذف بقلم حمرة باتجاهي، كانت ستصيبني لولا أن الثقيلة وقفت بيني وبينها وهي تنفض عباءتها مما كانت ترسمه عليها، مع هذا كانت ستكون ضربة رنيم لطيفة)
– غالية عيب؟
– عيب يا ست البنات لأنها تبيع هذه...
(كان مرتعبا، وقلبه ينبض بدون انقطاع، وهو يشير لصدره ومنطقة خصره، ثم بدل مواقع قدميه دون أن يرفع رأسه)

- آسف .. والله آسف

(كمـــرآة أثق في بياض قلب بكر منذ عبر هذا الباب، حتى غادره بعد أن وافق على أخذ نصيبه من الجمعية ناقصا. النوايا الطيبة عند البشر لا تعني شيئا فيما بينهم، ما لم يكن صاحب النية الطيبة غنيا، فحينها سيقولون عنه متواضعا. أما لو كان قليل المال كبكر هذا، فإنهم يسمونه أحمقا، بخلافنا نحن المرايا، فقد فُطرنا على تقديس النقاء أيا كان مصدره.)

– نحن و أمريكا في نفس العالم يا أزهار؟
سؤال أحلام كأسئلة أمي التي لا تنتظر جوابا، لذا لم أهتم بالرد. كانت جالسة في الصالة، تتابع مشـــهد محاكمة من فيلم يوشك على الانتهاء، كنتُ قد شاهدته في الصيف. ترتدي عباءتها منذ ربع ساعة مضت، لأن عمر عودها على أنه إذا كان قادما من أي مكان لأخذها، ســـيرن رنتين بمعنى اســـتعدي، وإذا كانت رنة واحده فذلك يعني: انزلي فورا... أنا بانتظارك! كما تـــرى... عمر يضع القواعد وعلى أحـــلام الالتزام بها. كنتُ جالســـة معها مجاملة، لأنني مرهقة جدا، وأريد أن أنام ولم أشأ أن أتركها لوحدها في الصالة. فمنذ غادرتنا يا أبي، وأمي تنام وباب غرفتها موارب. اعتدنـــا أنا وإخوتي والتلفزيون، أن نتهامس بمجرد أن ينطفئ نور غرفتها:
– صارت أمي تنام بدري... هاه؟
– أممممـــ ... أحيانا أجيء الســـاعة العـــاشرة والنصف ليلا، وتكون نائمة. وأحيانا أخرج الساعة التاسعة صباحا، وتكون لازالت مواصلة السهر.
وافقتني أحلام بهز رأسها، ويبدو أنه بعد هذا السؤال لم يعد هناك كلام نقطع به الوقت، لكنني انتبهت للتو وهي تهز رأســـها أنها لم تعد تقص غرتها كما كانت تفعل قبل زواجها، وكنت سأسألها لمَ تهملها هكذا، لكن الحصالة «يوسف» دخل من باب الشقة، ولثوان بدت عليه الدهشة، ثم

ضحك وهو يمد يده، ويسلم على أحلام. ربما لأنها تزوجت صار لسانه أثقل معها، كما هو الحال مع الغرباء:

- ححححسبتك أمي يا ددددوبا !!

توقعت أن تبكيها العبارة فهي حساسة جدا، لكن يبدو أن الزواج غيرها. أكملت كلامها معه بشكل عادي، ثم وصلتها الرنة، قطعت كلامها وهي تقفز من مكانها، ثم غطت وجهها جيدا بعد أن مسحت جبينها بمنديل تركته على الطاولة، وخرجت أثناء دخول يوسف لغرفته.

تأملت منديلها الأبيض المتروك على الطاولة بعد خروجها، وتخيلت لو أن لهذا المنديل قوى خارقة فيمسح الخمسة أشهر الأخيرة من ذاكرتنا معا، ونعود إلى غرفتنا، ربما كنا سنبدأ من جديد بشكل أفضل كأختين!

على سريري طار النوم الذي كان حاضرا في وجود أحلام قبل قليل، وبدأت أفكر في مشاهد فيلمي الطويل مع غالية... لو كان هناك قانون يقاضي مخربي الأنفس، سيكون نصيبي السجن المؤبد، كما حدث في الفيلم الذي لفت أحلام قبل ساعات. صحيح أنه لم يخطر ببالي حين تنفست القصص والخيال أمامها، أنني سأكون المفتاح الملائم لسياج المحمية التي تربي نفسها خلفها، ولكن هذا لا يعفيني من كوني كنت سببا رئيسيا في إطلاقها في البرية.

ربما ليست القصص من عصفت بها، لعلها زياراتي الخاطفة لها في غسق، حين كنت أمر من أمام بابهم وأشير لها بسبابتي لتقترب، ثم أهمس لها كي لا تسمعنا زميلتها:

- بسرعة... بسرعة... قولي لي قبل أن تلحظ رنيم وصولي، هل تشمين رائحة عطر رجالي في عباءتي؟ هل يوجد في وجهي أو عنقي أي علامة؟ أخاف أن تلحظ رنيم تأخري ثم تبدأ بالتفتيش في وجهي.

كان ردها دائما مشدوها، كملامح وجهها التي ألمها وأبعثرها بمزاجي. أتعمد أن ألفت نظرها لترى تلــك العلامة قرب فمي، والتي حككتها بظفري في الســيارة بطريقي للمول، ثم ثبتها ببودرة حمراء ومســحتها بمنديل لتبدو حمرتها طبيعية.

– يا ألله!! هنا .. هنا يا أزهار!!

كنت أتظاهر بالجهل أمام الجهة التي تشير إليها بسبابتها، وهي ترتعش دون أن تلمس البقعة قرب فمي. تســاعدني في إخفاء بقعي، بوضعها على أثر العلامة المزعومــة، بودرة وجه تحملها دائما في حقيبتها. تضغط ضغطات متتالية بتلك الإســفنجة في يدها، ثم حين تطمئن لاختفائها، تهمس وهي تدفعني باتجاه سدرة:

– وجعلنا من بين أيديهم ســدا ومن خلفهم ســدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون.

ناولت محســـن وهو يتحدث معنا منديلا، ليمســـح زجاج نظارته، فأنا أتحسس من البقع على الزجاج، وأفقد تركيزي وأنا أتتبع أثر البصمات:

- هي لا تأخذ أدويتها... توهمني أن يوســـف يشتري لها ما ينتهي منها، وتوهم يوسف أنني أنا من يشتريها لها، وأحيانا تقول أنك أنتِ اشتريت لها ما ينقصها، وفوق ذلك ترغب في أن ننقل لها التلفزيون في غرفتها!

صفق بكفيه، وأخفض رأسه. لست وحدي من سمعت تنهيدته، وليس شـــقاءً هذا الذي يحمله محســـن بين كتفيه، فكلنا نتقاسم التعب معه في هذا البيت، لكنه إحساسه باللا جدوى، وهذا متعب أكثر. كنا متقاربين هكذا في الصالـــة، ومرتاحين في الكلام، لأن صوت الدش الذي تقف أمي تحته منذ نصف ساعة في الحمام، لازال مسموعا.

- لا يمممكن أن نســـمح لها طبببعا، لن يتتتغـــير مكانها ففففي الصالة، يمممكن أن أحضر لها تليفونا لاسسســـلكيا، بحيـــث تتتتنقل من كنبة لكنبة لو ملت من مممكانها، أو أن تأخذه مممعها للممطبخ.

وافقتُ يوســـف بحركة من رأسي وبدون كلام. وكذلك فعل محســـن، الذي رد بصوت رشـــفة شاي، وهو يحدق شارد الذهن في أعلى الجدار الذي أمامه:

- أمما بخصوص الددواء، فأأأنا شـــخصيا من الآن ســـأناوووولها حبوبها كل ييييوم، ولن أتتتحرك من جانبها حتتتى أتتتأكد من بلعععها لآخر حبة!

حساس وأنيق جدا يوسف كما يليق ببرج السرطان، لذا كان صعبا علي

ألا أســتغرب لطخة صفراء أسفل كمه. ترك وجهي ووجه محسن تحت رحمة رأســه المائلة للأســفل، لأننا ظننا أنه لم يكمل كلامه، ولم نعتد أن نقاطعه حين يتحدث، كمل نفعل ببســاطة حــين نتبادل كلامنا نحن. التلفزيون على يسارنا تضيء شاشته، وصوته مكتوم، لذا شعرت بصوتي يتدفق على البلاط وحيدا حين بدأت أتكلم:

- بالنسبة لي صراحة لا يعني لي شيئا إن غيرت مكانها! تجلس في الصالة أو غرفتهــا، ما الفرق بــالله عليكم! عمليا هي لا تهتــم بأحد كما تهتم بمزاجها، وتليفونها، والجارات.

من نظراتهم شــعرت بلكماتهم دون أن تلمسني أيديهم، فتداركت هذا بتعديل سريع:

- لكني أشــارككم الرأي طبعا، أحس وكأن الأم، أمي أقصد، مركزها في وسط البيت هنا تحديدا، مكانها هذا يحفظ توازن البيت، ولو انزوت داخل غرفتها سيميل بيتنا كله نحو الغرب!!

نوّمت ضحكاتي المصطنعة اســتنكارهم بعض الشيء، لذا رد يوســف وكأنه يعضني فقط:

- ععلى كككل حاال ههذه أممك، وو ليســـت ببيت ششجرة يا أززهار!!

- ما مشكلتكم مع المجاز؟! ما مشكلة الرجال عموما؟ ثم إن جئنا للأمر الطبيعي فهي من عليها أن تعتني بنا ، وتقلق علينا، وليس العكس، هه!

سكتُ قليلا لأتأكد أن الدش لازال مفتوحا:

- على الأقــل قارنوا بينها وبــين أمهات أصدقائكــم، ربما الرجال لا يتكلمون عن شــؤون بيوتهم، لكن لي صديقات ونتحدث كثيرا معا... وصدقوني أن الأمهات يعملن بطريقة مختلفة تماما عن أمي!

لم أبــكِ أمامهم، لكن هذا صــوت البكاء الذي يلازمنــي كعادة كلما

انفعلــت، ورغم أنني كنــت أنتظر جوابا منهما، إلا أن محســن نظر إلى يوسف وهو يجدد أنفاسه، ويصب لنفسه كأس شاي آخر:
- لاحظت على الباب الأمامي لسيارتك طعج!! خير! هذا جديد؟
ربما بالغتُ قليلا حين توقعتُ ردا أفضل من هذا، ونســيت أننا إخوة، ورثنا بالتساوي عن أبينا، نعمة التجاهل.

(عطــرت الثقيلة الجو اليوم بعطــر دهني يتكــدس رذاذه فوق مرآتي، وغبشت بالأدخنة الرؤية علي وهي تطوف بفواحتها في أطراف سدرة، ثم بصقــت بلبانة كانت تطحنها في فمها منذ دخلت ســدرة، تعلق بها آخر لعابها قبل أن تســقط في ســلة المهملات. يا للقرف... لم يقم أهل هذه البنت بالحد الأدنى في تربيتها وتعليمها. اللعنة عليها وعلى مزاجها الذي تبدل منذ قالت لها رنيم صباحا، بأنها اتفقت مع طليقها بعد طول نقاش، أنها ســتعود له. وليحدث هذا، لابــد وأن تتزوج بحامد، هذه هي الطريقة اللازمة للعودة للزوج الســابق، أمر متفق عليه بين البشر، ويحدث بهذه الطريقة فقط)

– ما ذنب حامد؟ ألأنه أحبك؟ سيدخل المسكين في عدة قروض ليفي بمتطلبات وشروط الزواج بك، وقبل ســداد أول قســط بعد الزواج، ستطلبين منه الطلاق! أي قلب تحملين يا رنيم؟!!

– قلب أم!! أحبُ ولدي، وســأفعل أي شيء في سبيل أن يكبر أمامي، أي شيء يخطر ببالك يا أزهار صدقيني سأفعله، ولو كنتِ أما لم احتجت أن أشرح لك هذا، ولــو كانت أمك أما حقيقيــة لفهمت تصرفي هذا لوحدك.

– أهلا بالقوس سليط اللسان، طبعا الطريق مسدودة أمامك، وحيلتك الوحيدة هي إحراجي بالأمومة وأمي ووو... لكنك تعرفين أن كلامي صحيح! تعــودت على وقاحتك. تفضلي أكمــلي كلامك، قلت أمي؟

أكملي أمي ما بها!!

- وأنت تعيشـــين على الحد الفاصل بين عالمين يـــا أزهار، بنظرك أنك طاهـــرة جدا، لكنك في الحقيقة واقفة جدا جـــدا بمكانك! تنظّرين هنا وهنا، تتكلمين عن الأســـود ولا تعرفينه، تصفـــين الأبيض بكل ثقة، وتجهلين أن بين أبيض وأبيض مئة درجة من الأبيض! لون السكر غير لون الحليب، أبيض القطن غير أبيض الشطرنج، وعلم الهزيمة الأبيض غير البيت الأبيض! وكله أبيض في أبيض!!

(انسحب الكلام منهما مع دخول مجموعة بنات بروائح مختلفة، ومعهن طفلة بغيضة أصابتني بالذعر وهي تتوجـــه نحوي مباشرة، فاتحة فمها ويديها المتســـختين بعجينة ملونـــة، أخذت تكورها ثـــم تلصقها فوق زجاجـــي. اللعنة على هؤلاء الأقزام، الذين يطلق عليهم البشر ملائكة. تكفلت أزهار باثنتين من الزبونات، رغم أن وجه رنيم يجذبهن للتكوم حولها، وهن على استعداد للانتظار حتى تفرغ لهن. لكن الثقيلة أصرت على خدمتهن بنفســـها. عندما غادرت الصديقات المحل، كانت الطفلة قد نســـيت على رف الهدايا، قطعا من هذا الذي تسميه رنيم صلصالا. لم يعودا لذاك الشـــجار، لكن القلق عاد، فتشاغلت الثقيلة عنه بترتيب الأرفف التي بعثرتها الزبونات قبل قليل، بينما انشـــغلت رنيم باللعب بعجين تلك الطفلة على طاولة المحاســـبة، قطعته دوائر كثيرة، وصنعتْ عشرةَ وجوه ملونة، وشـــكلا آخر أجهله، ومن باقي العجين شـــكلت شـــجرا أخضر، وطيورا بيضاء، كتلك الطيور التـــي كانت تحوم فوق مخازن الميناء، لتقذفنا بســـائل كريه الرائحة، كلما نقلونا من مكان لآخر. تركتهـــا رنيم على الطاولـــة، ثم حين جاء وقت الصـــلاة، تجاوزن باب ســـدرة وكل منهن في اتجاه على غير عادتهن. أثناء هذا كانت ثلاث من قطع الصلصال قد جفت وتفككت مفاصلها عن جذوعها، وتقشرت

أعينها، وربما تجمدت بسبب التكييف الموجه عليها. راقبتها وهي تجف وتتساقط دون أن تتكلم أو تصرخ حتى. عادت البنات بعد الصلاة، ولولا أن صوتي سيفزعهن وهن ينظرن بذهول للصلصال المتناثر على الطاولة، لقلت لهن مواسية بما نواسي به المرايا المتكسرة: ما أسهل الخلق وما أشقى البقاء!)

مُكلِف جدا أن تمر الأيام وهي تقدم رجلا وتؤخر الأخرى، وكأنها
في حالة انطلاق دائمة، لكن في الحقيقة ما من إشارة بدء لهذا السباق.

تلبس المرأة الإشـــارب في الصيف لســـببين، إما لتخفي فراشـــة تركها حبيبها عـــلى عنقها ليلة البارحة، أو لتـــداري غصة تتحين من ينصت، وأحلام مصابة بالاثنتين معا. كنت أستعد للخروج للدوام، وأنا أكمل آخر لقمة من ساندويتشي بشهية عالية، حين دخلت غرفتنا فجأة:

– أها... أنتِ عندنا يا لبابة الخبز؟

كان وجهها بلا أثر لأي ضغينة على أحد، ومع ذلك كان تعيســـا جدا. ترتدي فستانا قطنيا رمادي اللون، وتلف عنقها بإشارب زهري مشجر، ثم حين حاولت أن أسحبه عن عنقها لأجاملها وأجربه، بالرغم من أنه لم يعجبني، مدت كفها الأيسر بسرعة وأمسكت بآخره، قبل أن يتسرب كله عن عنقها، فشددت طرف غرتها، كما كنا نفعل قبل زواجها...

– خلّيه مكانه يا أزهار بالله عليك، وبدون مزاح الأيدي هذا!

لا يمكـــن أن تكون أحـــلام مذنبة، هذا رأي كل مـــن ينظر إلى وجهها الطفولي هذا. في ظرف آخر، لو أن هذا الســـواد الذي استوطن ما تحتَ عينيها يصير سائلا، لتمكنت من أن أتكحل من سواده لأسبوع كامل. تذبـــل أختي وحيدة، وأنا بأكتافي الكبيرة هذه، عاجزة عن ضمها، رغم كل هذا الحب الذي بداخلي لها:

– أحلام كلميني... يفترض أن الأخت هي شـــخص آخر يعرف عنك كل شيء... صح؟ إذا كان الأمر بخصوص ســـلوك زوجك العنيف في غرفة نومك، اعترضي على حيونته معـــك... واجهيه! هل واجهتيه...

تحدثت معه بهذا الخصوص؟
كنت أســألها وأنا ألحق قبضتها التي تتشــبث بطرف اللحاف، قبل أن تتسرب كلها تحته، كما تسرب الإشارب بخفة قبل قليل:
– عمر سافر للشرقية، وأنا هنا ليومين فقط، وأحتاج أن أنام الآن...

رغـــم تأخري، إلا أن رنيـــم متأخرة أكثر مني هذا اليـــوم. كنت أعتذر وأنا منحنية فوق الباب، لأفتح ســـدرة لامرأة تركتها تنتظر. لم ترد على اعتذاري، فالتفتُ خلفي لأتأكد أنها لازالت واقفة:

– تفضلي...

تنحيتُ عن البـــاب قليلا لتدخل. تبعتها وأضـــأتُ الأنوار، فيما ظلتْ تتجول بـــين الرفوف، وتتجاهل عرضي لخدمتها. يبدو أنها نســـيتْ ما جاءتْ من أجله، لذا قررتْ أن تفتش عنه بصمت. تركتها مستغرقة في الطواف، دون أن تحرك شـــيئا من مكانه. تصل لزاوية ثم تدير وجهها، وتعود للزاويـــة التي كانت تقـــف فيها. توجهتُ للمـــرآة العجوز في ســـدرة، ووقفت لأضع الكحل والماسكارا، ولونا مشمشيا فوق عيني التـــي أطفأتها أحلام ببكائهـــا تحت لحافها، قبل أن أخـــرج من البيت. لاحظت في صورة المرأة المعكوسة أمامي على المرآة، أن عباءتها متسخة من الخلف. نقابها ليس محكما، ولا حقيبة في يدها، أين تضع فلوسها أو بطاقتها إذا؟!

وصلت رنيم وتهامســـنا عن صباحاتنا المتناقضـــة، فهي مغرمة بطليقها الذي يقفز فوق فارق التوقيت ليُصبح عليها قبل خروجها للدوام، وأنا مثقلة بهموم من الوزن الثقيل، فأختي مبقعة بشـــكل يقتضي التدخل، وأمي بالكاد تغادر غرفتها.

أشارتْ رنيم إلي بحاجبيها، وبهزة خفيفة من رأسها لتستفسر عن السيدة

الواقفة. كانت كلما مشـــت، انكشـــفت عباءتها من الأمام، عن فخذين أسمرين وعاريين إلا من الشـــعر الكثيف، وفوقهما عضو ليس بأفضل مـــن حال الفخذين. وبين ضحكنا ودهشـــتنا مما نـــرى، منحنا الزبونة الغريبة عشر دقائـــق بعد، اتفقنا عليها بالإيماءات فقط. ثم التفتت إليها رنيم وهي تنفخ بنفاذ صبر، وتفتح يديها للأعلى، وكأنها ســـتتلقف شيئا يسقط من السماء:

– يا أختي لو تسمحين لواحدة منا أن تساعدك على الأقل!

نظرت الســـيدة لرنيم بعينين تتكوم حولهـــما الرطوبة، ولم تنطق بكلمة. تقدمت قليلا نحوها، ثم أوشكت أن ترفع يدها المختبئة في كم عباءتها، لكنها عادت وعدلت عن رأيها.

تحمســـت رنيم للطرد بعد هـــذه الحركة المريبة، فرفعـــت يدها اليمنى كشرطي المرور وسط الشارع، و أشارت نحو الباب بسبابتها:

– تفضلي خارج سدرة... أظن حاجتك في مكان غير هذا.

نظرت المرأة باتجاه ســـبابة رنيم عندئذ، وكأنها للتو ترى المخرج، أو أن هذا ما كانت تفتش عنه، فتحمست للخروج، وهي تقول:

– عمى، عمى، أشكال وسخة!!

– لاحظتِ النظرات؟

قالت رنيم هذا، وهي تلقي بمنديلها الذي لم أعد أعرف رقمه، لتخرج من حقيبتهـــا منديلا جديدا، فهي مصابة بالـــزكام، لذا بمجرد خروج الســـيدة غريبة الأطوار، وضعت رأســـها على طاولة المحاسبة ونامت.

الساعة الثانية عشرة والثلث قبل إغلاقنا بعشر دقائق لصلاة الظهر، مر بكر وهو يرفع حزامه الأســـود الذي بالكاد يستقر على خصره النحيل، ليســـأل عن نصيبه من جمعية رنيم، وكالعادة لم يجد طلبه في محفظتها، بل على العكس تبرع بأن يحضر لها في المســـاء دواء فعال للزكام وأعراض

البرد. ثم قبل أن يغادر، جرب أن يفتح معنا حوارا ريثما يُؤذن للصلاة:
– سمعتم أصواتنا بالأسفل؟!
جاوب بنفسه على سؤاله:
– تلاعنا مع الدورية، التي جاءت تفتش عن المرأة المجنونة، التي خلعت عباءتها ورقصت عارية تماما وسط الشارع الموازي لنا، أمام الإشارة... هنا.
أشار بكر بيده اليسرى جهة البوابات الأمامية من المول:
– طبعا يقولون أن المرأة كانت تحمل في يدها ساطورا بحجم طفل رضيع، وتخفيه تحت عباءتها، عوضا عن طفلها الذي فقدته وأفقدها عقلها، كما قال زوجها الذي كان يقف مع العسكر.
كان يحاول أن يتباهى أمامنا، وكأنه يتوعد وهو يعض على شفتيه، ويثني سبابته السمراء المعقوفة تحت رأس إبهامه، والذي للتو ألحظ أن باطن كفه أبيض جدا قياسا بظاهرها.
– ذليتهم أنا والشباب ذل!! طبعا قبل أن نسمح لهم بالدخول ليفتشوا المول!
ضحك وهو يغمز لنا، ويضم يديه في قبضتين كمنتصر:
– يا طيبين، يا عساكرنا يا محترمين، عيب عليكم نحن شباب عزوبية! لو دخلت هنا امرأة عارية لرأيناها، وشممنا رائحتها.
ضحك بصوت عالٍ، ثم فزع من ضحكته على ما يبدو، فخرج خلف الأجراس، أمام باب سدرة وأكمل كلامه من هناك:
– لكنني بالآخر حكمت عقلي، وأعطيت الإشارة للشباب، وسمحنا للأمن بالدخول والتفتيش... التعب عليهم بالطبع، لأنهم لم يجدوها.
تجاهلتُ نبرة التعالي في كلام بكر وإفراطه في تضخيم صلاحياته عند البوابات، ونظرت لرنيم التي كانت بدورها تنظر إلي بفزع! كنت أعرف

أنها تفكر فيما أفكر فيه الآن، تلك السيدة العارية بساطورها، وقفت في محلنا قرابة الساعة صباح اليوم.
في طريق خروجنا غيرنا مسلكنا أنا ورنيم كي نتحاشى بكر. توجهنا للبوابة «12»... تخيلنا لو أن رنيم جُنت بعد سفر إياد، ولو أنها هي من فقدت عقلها هكذا، ووقفت عارية في سدرة!! أخذها الضحك قليلا، وأخذني أنا الخيال بعيدا. قبل أن نصل للبوابة، أعادتني لوحة إعلانية لقناة تلفزيونية، تعرض عناوين مسلسلاتها، إلى المول مجددا. رأينا غالية تقف قريبة منها، هادئة وصامتة كالدمى في فاترينات غسق. كنت سأتقدم إليها لولا أن رنيم أمسكت بيدي لأتمهل، وكما في أفلام «الأكشن» أعادتني خلفها. وقفنا تحت ممر درج كهربائي، غير ذاك الذي أمام سدرة.
في المرايا العاكسة على أطراف السلالم، رأيت وجهي معكوسا ومضغوطا كمسطرة قياس صغيرة. كنت سأكمل إشغال نفسي عن مراقبة غالية بلعبة انعكاس وجوهنا، وافتعال حركات كتلك التي كنت أفعلها أنا وأبي أمام زجاج سيارته، لكن رنيم شدت إبهامي لأنظر صوب غالية. كانت تقف بكامل زينتها... عيناها الصغيرتان مشبعتان بالكحل، تضع فوقهما لونا برونزيا منحها إضاءة جميلة حول عينيها. قلم شفاه وردي من النوع المطفي اشترته من عندنا، أعطى فمها منظرا طبيعيا يدوم طويلا، فيما ترتدي عباءة لأول مرة أشاهدها عليها، لها كمان واسعان، وتنسكب بنعومة فوقها، ومن تحت الركبة، لها كِسر كثيرة بلون رمادي فاتح، ذكرني بفستان أحلام الرمادي هذا الصباح.
بعد وقت قصير وصلت سيارة مرسيدس صغيرة، وقفت أمام البوابة مباشرة، رن أثناءها هاتفها، ثم تلفتت وهي تخرج مسرعة حاملة في يدها كيسا صغيرا من غسق، وترتدي كعبا عاليا، ليس من عادتها ولا عادتنا

أن نلبســه، فهو لا يناســب الوقوف الطويل في محلات البيع. تحركت السيارة قبل أن تغلق الباب حتى. همست رنيم:
– هذه السيارة هي نفسها التي صعدت إليها غالية، في مرآب السيارات آخر مرة.
– متى!؟
هزت رنيم رأسها، وكأن الوقت الذي أسأل عنه غير مهم:
– المهم أن غالية التي تخاف أن تبلل شــفتيها الجافتين بلسانها أمام رجل عابر، كي لا يفهمها خطأ، خرجت مع أحدهم.

قدماي تؤلماني لكثرة ما سـلكت هذا اليوم دروبا لا أحبها، أظنني لا أجرؤ على مواجهـة كل ما يحدث حولي كما تعيبُ علي رنيـم دائما. وحتى وقت دش الماء هذا الذي أقف تحته، لا أستطيع الانفصال تماما عما هو خارج هذا الباب. رذاذ ناعم على سطح مرآة الحمام كافٍ لكتابة حروف اسمي، أو أي كلمـة أخرى، كلمة أحبك كما في الأفلام مثلا، ولكن لمن! لمن سـأكتبها! خطرت ببالي فكرة أفضل، وهي شـتيمة دنيئة جدا، شتيمة تفي بالغرض. لكن ما هي الشتيمة الأنسب لحياتي!؟

ذكرتني المرآة وهذا الرذاذ بسـبورتنا في (ثالثة/ أ)، وبتلك الجملة التي كتبتُها في بداية الفصل الدراسي الثاني في الصف الثالث الثانوي، والتي كلفتني نسفا في درجة السلوك، وحقدا ظاهرا بين معلماتي:

«أبله هنية تمارس الزنا»

لم تأتِ أمي للمدرسـة حين طُلب منها الحضـور، لأنها كانت في فترة العدة، فلم يمضِ على موت والدي إلا أسـبوع واحد فقط، وأرسلتْ بالنيابـة عنها جارتنا أم جابر. لم تحاول أي من المعلمات أن تسـألني: لم كتبـت هذه العبـارة؟ ولمْ أجرؤ أن أقول بأنني كرهـتُ أبلة هنية، منذ أهدت لأبي لوحة البحر الباهتة التي علقتها في فصلها سنينا، ثم قذفتها لأبي لتتخلص منها، فيما اعتذرتْ عن تسليمه أجرته الشهرية لظروفها المادية التي تمر بها، ومع ذلك جاءت للمدرسـة في اليوم التالي، بشـعر مقصوص ومصبـوغ بلون فاقع. سـمعتها تلوم إحـدى المعلمات في

الطابور:
– حرام عليك... كلفني ثمانمئة ريالا، وتقولين كبّرني في السن!!
تناسيتُ مع الوقت أنني أخطأت يومها، باعترافي بأنني من كتبت تلك العبارة على السبورة. لم يكن لأحد حينها أن يكتشفني، حيث أنني استخدمت للكتابة على السبورة، بخاخ ألوان من غرفة الأعمال الفنية، وهذا لا يعتبر قرينة خط يد واضحة على أية حال.
لكنني اعترفتُ لسبب آخر غير غبائي، وهو أنني ضعفتُ بعد محاضرة دينية أعدتها لنا معلمات التربية الدينية، وأكدن لنا فيها أن من تحلف يمينا كاذبة، وهي ما تسمى باليمين الغموس، فإنها ستخلد في نار جهنم للأبد، ولن تحظى بفرصة الغفران على الإطلاق. كنتُ حينها لازلت أطمح أن أرى أبي في الجنة، فرفعتُ يدي في الطابور، واعترفت على نفسي بصوت مسموع، قبل أن يصل المصحف إلي لأحلف عليه.
لازمني حظي السيئ فور خروجي من الحمام، يبدو أن أمي حين نادت على من غرفتها كانت تصغي لدوران المفتاح في الباب، فصادتني لحظة خروجي. كنت أمرر المنشفة عبر شعري وأنفضه. أنظر إليها ممدة على سريرها، وجسدها الأبيض المنفوش، ساكن كباقة ورد. توقعت أن تُخرج من تحت لحافها فاتورة، أو ورقة ضمان تسألني عن تاريخ انتهائها أو حتى بندقية كتف!! فلاشيء غريب على أمي. أعادت شعرها للخلف، وشدت وثاقه في مطاط أسود رفيع.
– أكلتِ المحشي؟
تعلمتْ أمي من زوجة أبيها الكثير من الأكلات الشامية اللذيذة، لكنها وكحالة نادرة من الأمهات لا تطبخ بحب، وإذا أرسلتْ لنا إحدى جاراتنا «سكبة صحن» وأعجبتنا، ثم قلنا لها بعفوية اسألي كيف أعدتها، كانت ترد بسخرية:

– والله...عجبكم طبخها؟ صيروا أولادها وأريحوني من وجوهكم!!
بكفها الأيسر ربتت على سريرهـــا لأجلس قربها، وهذه الحركة الحنونة من إرث أبي، حين كان ينادينا وهو يبتســـم لنا، ليخبر الخوف فينا، بأن أخطاءنا الصغيرة مفيدة ما لم تتكرر.
– عمر مهندس محترم وناجح في عمله يـــا بنتي، يحب أختك، اختارها من بين كل معارفه وعلاقاته لتكون زوجة له، ذكريها بهذا وشـــجعيها على الصبر، اشرحي لها أن الزواج مشقة بالذات في السنوات الأولى.
– زوج لا يستمتع إلا بقضم وعض وتمزيق لحم ابنتك! وعصب عينيها حتى تصل إليه نشـــوته البطيئة! ترين أن هذا الرجل مكسب لأحلام يا أمي؟
داهمتني تلك الحالة التي لا أستطيع فيها أن أكمل نقاشا دون أن يغلبني صوت البكاء.
– يحـــب أختك... يحبها والمحب يتغير لأجـــل حبيبه، وطول البال يهد جبال يا أزهار.
اقتربت منها، وأمســـكت بكفها بحذر، فنحن قليلا ما نتلامس في هذا البيت:
– لو أنك ترين أن هذه الأذية تســـمى حبا، فـــلا عجب أنك لم تفهمي حب أبي الصادق لك!
نفضتْ يدي، وكأنها تطفئ نارا تشتعل بأطراف أصابعها:
– أي نقاش معك يا بنت هو خســـارة وقت، أي جلســـة مشتركة بيننا، لابد وأن ترفعي العتـــب عن قلبك وتذكرينا أنك البـــارة التي لم تنس والدها! أكلمك عن أختك وزوجهـــا، فتقولين أنت وأبي! أنت تظنين أنك الوفية الوحيدة فقط لأنك تذكرينا به؟
ضغطت بإبهامها فوق معدتها حتى غاب تماما في لحمها، عصرت عينيها

بقــوة، عرفت بعدها أن معدتها الحمضية ثــارت عليها، فهذا ما يحدث حين تحتد في نقاشــها. تشبثتْ بلحافها بمشقة، لتنقلب للجهة الأخرى من السرير.

– أمي... أمـــي أنا آسفة!

بدأ صوت أنفاسها يتصاعد في الغرفة! إما أنني مكثت هنا وقتا طويلا، وإما أنها تدخل في النوم سريعا. خرجتُ من غرفتها وأنا أفكر، ألا يُحتمل أن تضمني وسط النقاش، أن تشدني لحضنها بقوة حين لا أحسن وضع حد مهذب بيننا! لطالما أخافني أن تموت أمي في الليل فجأة، ألا يتسنى لي وداعها كأبي. أعرف أني لن أتحمل لومي لنفسي لو أنها ماتت غاضبة مني. لو أنني أضمن حياتها لما اعتذرت منها إلى يوم موتي، لكن شــيمة أهل هذا البيت الانســحاب ليلا، لذا ترددت على غرفتها طوال الليل، لأتأكد من حركة جســمها وهي تتنفس نائمــة، فأضع كفي أمام أنفها إلى أن تلامس أنفاســها الحارة باطن كفي، فأغادر غرفتها على رؤوس أصابعي، وقلبي لا يخلو من كره لها.

أتُمَيِّزُ الحمامةُ الريشـــة التي سقطت من خاصرتها، إذا وجدتها صدفة على ســـطوح أحد المنازل؟ أتقول أوه... هذه سقطت مني؟ أيؤلمها أن ريشة منها صارت تدوسها الأقدام، كهذه التي التقطتُها وهي منكمشة تحت حذاء طفلة أمام البوابة رقم واحد؟

حملتُ معي الريشـــة الرمادية المبقعة بالأبيـــض، ومنحتني رفقتها زهوا غريبـــا في ممرات المـــول. فهمتُ بعدها لمَ يقول النـــاس على رأس فلان ريشة...على بعد خطوتين من أجراس سدرة سمعتُ رنيم تغني:

«وافتكرت فرحت وياك قد أيه... وافتكرت كمان يا روحي بعدنا ليه»

لم أقاطعها بالســـلام، حيث دخلتُ ســـدرة وأنا أدندن اللحن مباشرة. علقتُ الريشـــة فوق المرآة العجوز، وحين التفتُ للجهة التي تقف بها رنيـــم، لاحظتُ غالية بين الرفوف، تجلس عـــلى المقعد الأحمر القصير، وأظنني قرقرتُ كدجاجة وأنا متفاجئة بها:

– تجلسين هنا يا هاربة، وأنا مررتُ بغسق أسأل عنك قبل قليل؟!

اللامبالاة هي الراعي الوحيد لكذبتي هذه، والتي ســـقط لساني بعدها كحجر غارق في جوفي، حتى غادرتْ غالية سدرة.

– لا تحـــاولي أن تجديها يا أزهار، لولا أنني صدتها صدفة أمام البوابة، لما وجدتها هنا أمامك!

انحنتْ رنيم من خلف كـــرسي غالية، ومالت فوق كتفها، فصار وكأن لجسد غالية رأسين:

- إلا ســؤال يا غلّوو...كيف برمجتِ صديقتك على طاعتك والتستر عليك بهذا الشكل؟ الله وكيلك عجزت أن أغير بعض الناس هنا!
نظرت إلي رنيم وهي تغمز وتضحك لي، لكنني لم أســتطع أن أجاريها بضحكة، فمجرى حلقي مسدود بكذبتي الأخيرة على غالية قبل قليل.
لمَ أكذب أمامها هكذا!
- المحبة يا رنوم، البنت طيبة وتحبني.
(حين ابتســمتْ الثقيلة البلهاء بنابها المقلوب قبل قليل وهي تنظر إلي، عرفتُ أنها تنوي أن تؤذيني، وها هي غزتْ ريشــتها القذرة بين عيني، ومضتْ تشرب قهوتها وكأن لا شيء محشور هنا!!
اللعنة عليها، صرتُ أرى نصفين متجاورين لكل شيء حولي. سمعتُ رد غالية مرة واحدة، وكان متعقلا بالنسبة لما ينتظرنه منها بنات سدرة، فقد كن ينتظرن نكتة أو تعليقا ســاخرا حول زميلتها التي لا تروقهن في غسق. ابتســمت غالية وهي تنظر لهذه الريشة المبقعة فوقي، ولابد وأن مظهري يضحكها، ثم أنزلتْ طرحتها السوداء على كتفها، وعدلتْ لف شعرها في قبة صغيرة أسفل رأسها، وهي تعرض على البنات أن يخرجن معا، كما كن يفعلن في الســابق، لأن لديها كلاما كثيرا ســتقوله لهن. لم تنزل عينيها عن الريشة الرمادية هذه! ليتها تأخذها معها وهي مغادرة، ألا توجد خزائن لهذا الريش القذر في غسق؟!
قامت الثقيلة لتلملم أكواب الورق التي شربن فيها القهوة، ثم خرجت تجر ركبتها، التــي تتيبس كلما أطلقت عليها لعنــاتي. وقفت أمام باب ســدرة قليلا، وهي تنظر للجهة التي ذهبت منها غالية، بعد أن أضافت نقاط من زيت لم أميزه بســبب هذه الريشة التي بدأت تصيبني بالحول. وفي عودتها ضربت بيدها الأجراس المعلقة في مدخل باب سدرة، لتظن رنيم أن زبونة دخلت، لكنها لم تلتفتْ وكأنها لم تسمع الأجراس)

– أزهار... لاحظتِ أن غالية لا تعلق حلقا في أذنها هذه المرة؟
– هههههه... وإذا لم تضع حلق! أنا أيضا لا أضعه إلا في المناسبات.
– لا هي ليست مثلك، هي تحبها جدا، الوحيدة التي أعرفها تنام بحلق في أذنها، ولا تشتري من الإكسسوارت إلا هي!
– وإذا صح كلامك يا رنيم... لا أرى في الأمر أية مشكلة؟
– الأذن المثقوبة والمتعودة دائما على حمل كرستالة أو وردة، ثم فجأة تصبح مجرد ثقب، صدقيني الأمر ليس طبيعيا... ولعلها تحاذر كي لا تُؤذي شفة حبيب تصل قبلته إلى هناك!
– لم تتوقعين أننا نتشابه؟! وأن كل البنات شبقات يا رنيم!
– نتشابه وشبقات!! من أجل قبلة صارت شبقة بنظرك؟ وأنت حين قبلك الأسمر حسن أكنتِ شبقة حينها يا أزهار!
(ندمتُ أنني أردتُ في الثلاث دقائق التي تلت كلام رنيم، أن تصدر أزهار أي حركة منها لأتأكد أنها لا زالت حية. نظرت إلى جسدها الضخم الذي شطرته الريشة إلى نصفين، لكنها استغرقتْ وقتا قبل أن تتحرك أخيرا، وذلك حينما طير هواء المكيف الريشة الرمادية القذرة بعيدا عني، ومع سقوطها تحركت أزهار باتجاهها، ثم التقطتها من الأرض، وقادتها لزاوية أخرى مني، لتغزني بها مرة أخرى)

صار كل من حولي كقفل صدئ لو حاولت فتحه فإنه سيكسر في الباب، لذا كان عليّ أن أتحسس بيدي ماذا يوجد من حياة خلف الأقفال... ما الذي يستحق أن يُكسر باب لأجله؟!! عاد عمر من سفره القصير، ولبابة الخبز تستعد لمغادرتنا بعد قليل. ترتدي فستانا ضيقا يليق بامرأة تستقبل زوجها بعد السفر، وتضع مشبك شعر ينتمي لعالم الأطفال الذي لم تغادره بعد... مشبك على شكل شمس تضحك، لكن وجهها أتعس من انتظار رحلة متأخرة. تتحرك في الغرفة ببطء، لتتأكد من أنها لم تنس شيئا. كنت أنظر أمامي لجسد بالٍ كلما باغته الوقت ببعض اليأس اتسع، لذا أظن وزنها زاد كثيرا عما كان عليه قبل الزواج.

يا ألله!! هل جرب أحد مثلي شعور مكتوف اليدين؟ حملتْ حقيبتها الصغيرة على كتفها، وابتسمتْ وهي تُقبل نحوي باتجاه الصالة، لتسلم علي وهي تجر خلفها حقيبة سفر صغيرة أيضا، لتكون جاهزة لنزول سريع عندما يرن عليها عمر إحدى رناته الرمزية: اثنتين «استعدي»... واحدة «انزلي»...

– لا تنتظري أن تقابلي أمي بالصدفة يا أزهار! ادخلي غرفتها، واجلسي معها.

– نحن بخير... انتبهي أنتِ لنفسك يا لبابة!

ضحكتْ وهي تلبس طرحتها، وترد خصل شعرها خلف أذنها كما تفعل أمي حين تضحك:

– لبابة!! صرت مخبز كامل يا أزهار، واللبابة الصغيرة في بطني الآن.
رنتان في هاتفها قضتْ على تلك الابتسامة، وقبل أن تجيء الرنة الواحدة وجدتني أقول لها بسرعة كمن يُسمّع ما حفظه، وأنا في وضع الاستعداد مثلها:
– هذا الرجل «مَقْلَب»... ليس بالضرورة أن نكمل المقلب حتى آخره طالما اكتشفناه. لا تجاملي... أنت غير سعيدة وهذا واضح للكل!!
هزتْ رأسها كثيرا وأنا أتحدث، في محاولة منها لمنع صوتي من الوصول لأذنها:
– أولا أنا أحب عمر، أحبه جدا!! وثانيا قلت لك اللبابة في بطني، أنا حامل يا أزهار...
جاءت الرنة الواحدة كرد حاسم علينا معا. خرجتْ مسرعة، وأغلقتُ الباب خلفها. أطفأتُ اللمبات وأنا أنظر لسرير أمي من شق باب غرفتها، لها وجه طفلة وجسد أبيض ككومة ياسمين، تجلس على سريرها، وهي تأكل المكسرات، وتعصر عينيها لتقرأ الترجمة بشكل أوضح، لأنها تتابع مسلسلا أجنبيا، فيما تضحك مع أوان الضحكات المسجلة في نهاية كل مشهد مضحك.
اتصلتُ بأخويّ، لعل أحدهما يأتي قبل أن أملأ البيت عويلا. محسن اعتذر بعرس صديقه، فكان أوفر حظا من يوسف الذي تأتأ كثيرا... يبدو أن غريبا يجلس إلى جواره. اعتذر بأنه سينام في مكتبهم الذي استأجره هو وثلاثة من أصدقائه، ثم قال كلاما كثيرا بشيء من التفاخر عن توسع نطاق عملهم. استغليتُ زهوه وحرجه من الرفيق الجديد، وانهلتُ عليه لعنا، ثم أغلقت هاتفي في وجهه، وأرسلتُ له بعد ثوان فقط: أنا آسفة يا حصالة...
مع أن أحدا قد لا يصدقني حين أخبره غدا، ولكنني فتحتُ التلفزيون

في عتمــة الصالة، فخرج صــوت ماجدة الرومي مرحبــا بي. مد يده وصافحني بأغنية:
«أنا اعتزلت الغرام، اعتزلت الغرام، اعتزلت الغرام»
أريد أن أســتعير هذا الصوت القوي والحاد، كما هو في هذه الأغنية... أريد أن أصرخ به في وجه كل شيء حولي، لكني أخاف أن أعيدهُ لحنجرة صاحبته مشروخا.

يروقني الاستغراق في قراءة المجلات لساعات هكذا، أقرأ فيها كل شيء تقع عليه عيناي، ورغم أن كل هذا الشيء موجود على الانترنت، إلا أنني لازلت أفضل تصفح ورق المجلة الناعم، ولمس أطرافها المصقولة، وشم رائحة الألوان الكثيفة في الصور. هذه إحدى أهم متعي خلال اليوم. أنا وفية للأشياء القديمة، ففي سدرة مثلا تغيظني بعض الزبونات السلبيات حين أستخدم صوتي الذي أبيع به. أحيانا أريد أن أقول لزبونة أمامي: لمَ بمجرد أن ألّمح بأن هذا جديدنا، وهو من نفس المنتج، فورا تفلتِين العبوة القديمة، وتغطين ذاكرتك بيديك، وتبدئين بقراءة تركيبة العبوة الجديدة؟ أما من وفاء حتى لمنتج جربتهِ ومنحكِ كل هذه الثقة للعودة لشرائه؟

أحيانا أريد أن أقول بصوتي الذي لا أبيع به:

– الجديد مختلف، لذا نظنه أفضل... هذا كل ما في الأمر!

– أختك اتصلت؟

في طريقها من غرفتها للصالة، تمشي ببطء وهي تسألني هذا السؤال للمرة الثانية. يبدو أنها شاردة الذهن ولم تسمعني حين أجبتها في المرة الأولى بـ لا.

– وآخر ظهور لها في الواتساب كان قبل أربع ساعات.

قلت هذا لأوفر على نفسي مزيدا من أسئلتها، وعدت لمجلاتي.

– خير يارب، لطفك يارب، خير خير... قلبي مشغول على هذه البنت.

لطالما شعرت أن حبلا سريا مربوطا بين أمي وأحلام، ولا وجود له

بينها وبين بقية أبنائها، لذا فقدت دهشة أن تسأل عنها أو تذكر اسمها، ثم بعد دقيقة تتصل أحلام. كان يوسف واقفا وهو يزرر كمه، ويقرأ خبرا عاجلا على شاشة التلفزيون، لكن الخبر العاجل لم يبتلعه شريط الأخبار كالعادة، بل صار في ثوان خبرا عاجلا بيننا.

مالت أمي على جانبها الأيسر، مبتعدة عن الكنبة ذات الفجوة الباهتة. لم تزن المسافة هذه المرة، فهي بخلافنا تنظر جيدا أين ستنزل بجسمها الثقيل، وتحسب المسافة بدقة، لكن بالها كان مشغولا بأحلام، فسحبها ثقلها للأسفل، موقعة معها كوب قهوتي عن الطاولة، قريبا من رأسها على الأرض. المارشميلو صارت تحت قدمي، كنت أظنني مصابة بالدوار لهذا لا أرى ما أمامي جيدا، لكنها كانت دموعا تحجب عيني بطبقة من الماء، لم ألحظها إلا حين بدأت تتساقط فوق بطن أمي، ليصير اللون الفوشي الذي ترتديه لونا مبقعا بالأسود.

رنين التليفونات لم يتوقف، كان الثابت وجوال أمي معا يصرخان، وهي مستنفذة على الأرض، ويوسف يدس تحت رأسها فخذه، تتلفت وتتنفس بصعوبة وهي تتعرق من كل مكان، ترفع شعرها المتلاصق فوق جبينها الأبيض اللامع، وتدفع بأيدينا بعيدا عنها وكأنها تسبح في الهواء وهي تقول:

- البنت تتصل!!!

الخوف معدٍ لذا كنا ثلاثتنا نرتعش، سقيتها كوبا من الماء عصرت عليه ليمونة، قرأت هذا في إحدى المجلات ولم أعد أذكر لأي مناسبة كانت هذه الوصفة، عامة لم يخطر ببالي سواها! مضت قرابة الربع ساعة كنا أنا ويوسف خلالها نمسح عرقها، ونمسك بيديها فقط، ولا نحسن تدبير تصرف أفضل من هذا.

- أووومي هذه الددوخة عرض لششيء .....لازم من

زيييارة للمستششششفى.
استغرقت الجملة وقتا، وتقطعت مرتين قبل أن يكملها يوسف، هززت رأسي موافقة على كلامه قبـــل أن ينهيه حتى، ثم نظرت لأمي التي تلم ترهل بطنها بين يديها، ثم تهزه كمن يهز شرشفا وهي تقول:
– عشت معي وستموت معي يا بلاء!! حتى الحمية لا تنفع معك!!
كانت تتنهد بصعوبة، وتهز رأسها كمن يســتمتع بأغنية، لكنها ليست أغنيــة تلك التي في رأس أمي، بل مســيرة جســدها في ذاكرتها، ترفع سبابتها في الهواء، وتلفها لتريني نُحلها وهي تقول:
– كنت كذه... كذه، أبوكم خربني، أتلف جسمي بالحبوب...
لطالمــا احتقرت أمي والدي. هذا الأمر معتــاد، لكنها المرة الأولى التي تتهمه بشيء.
– أحب الممتلئات، أحب الســمان...وهذه حبوب لفتح الشهية، وهذه أبر أسرع، وهذه أفضل.. ضربت على بطنها ضربات متتالية:
– هذه هي المرأة السمينة صارت عندك؟ أنت فين عنها؟
أظن هذا من تأثير ارتطام رأسها بالطاولة وهي تقع. اتكأت على ذراعيها لتقوم:
– كتفي..كتفي.
كانت تتألم، لكنها لا تبكي مثــلي... انقلبت باتجاه الكنبة البنية خلفها، وهي تلتقط أنفاسها:
– هذه دوخة الحمية، الحمية... الحمية صعبة علي.
لازالت أمي تتحدث مع نفسها، وتكرر الجمل بغرابة، حتى رن هاتف البيت مرة أخرى، ثم علا صوتها بشــكل أقرب لطبيعته قبل السقطة، وهي تشير لمكان الرنين على الطاولة وتقول:
– ردوا على المتصل يا همج!!

في حفلــة خطوبــة رنيم المصغرة جــدا في بيت أسرتها، كنــت وغالية الصديقتين المدعوتين فقط. جلســنا متجاورتين طوال السهرة، نصفق لبنات خالات رنيم وهن يرقصن ويغنين، ويبدو أن حب الغناء متوارث في العائلة. نتبادل كلاما قليلا، ونشكر الضجة والأغاني أن وفرت علينا عناء تبرير قلة الكلام. أسرة حامد متوسطة في كل شيء، حتى في مستوى الأناقة كانت والدته وأخواته بسيطات جدا في مظهرهن، وحتى اللحم على أجســادهن كان ضئيلا. كن يصرين على تجنــب الرقص، والتزام الصمت والاكتفاء بالمراقبة. لذا لا عجب أن والدة رنيم كانت تمرر بين الأغنيات بعض مميزات حامد لصديقاتها وقريباتها من العائلة.

– حامد شاب عصامي، نفر من الدراسة كحال معظم العباقرة.

تضحك وهي تنتظر الدعم من أم حامد التي تؤيدها بهز رأســها فقط، وتكرار جملة واحدة طوال السهرة:

– هو أطيب إخوانه.

– فتح في البدء محل مع والده وإخوته للمنتجات الأوروبية من الأحذية والحقائب... مللنا من الأمريكي البسيط والله!

قالت الخالة إقبال هــذا وأيدتها معظم الحــاضرات، ثم أكملت وهي تقضم قطعة من الشوكولا:

– طبعا وبفعل إرادة الشباب، صار للمحل أفرع كثيرة في معظم مولات جدة الكبرى، والتوجه الآن سيكون للرياض بإذن الله.

قاطعها ضجيج أغنية، منحت أم حامد وأخواته وقتا لفهم أن الحديث عن ابنهم حامـــد. توقفت الأغنية، فعادت الخالـــة إقبال لطاولة مزايا حامد:

– زوجي نجيب يقول كل ما يحتاجه الســـوق هو التميز في شيء واحد، حتى لو كان بســـيطا، المهم أن الشـــخص يبرع فيـــه، وزوج رنيم ذكي والتجارة لا تحتاج إلا للذكاء ولبعض الحظ..

– وهو أطيب إخوانه والله.

لا أظن أن أحدا سواي سمع جملة أم حامد المكررة.

– الحظ طل عليه من يوم خطب رنيم.

إحدى خالات رنيم تنتزع بكلمتها هذه نظرات الحاضرات:

– صحيح والله، وأنت صادقة والله.

تفاعل أهـــل رنيم مع الخالة، بينما لازالت والـــدة حامد تؤيد كل شيء الليلة بأرجحة رأسها، حتى سألتها إحدى الحاضرات:

– ما اسم محل ولدك وإخوته يا أم حامد؟

طبعا لا أظن أن اسم «كـــل جديد لمشية من حديد» سيكون مقنعا كمحل للأحذية الأوروبية، خصوصا لسيدات تعودن أن يلكن الأسواق، لذا تداركتُ الموقف وقلت بالنيابة عن الأمّين:

– «ماجيك»

فابتســـمت الحاضرات برضى تام عن الاســـم الأجنبي الســـاحر هذا، وبدأت كل واحدة تؤكد على كذبتي بأنها تبضعت منه، حتى إن إحدى الحاضرات نظرت لأســـفل كعبها العالي، وهي توهمنا أن حفرا لكلمة «ماجيك» موجـــود هناك، وتؤكد أن أحذيتهم فخمـــة جدا، ومتنوعة التصاميـــم وغير تقليديـــة وهذا يفسر غلاءها. بعد ســـاعتين من هذا، جلست رنيم بيننا وهي ترتدي فســـتانا أحمرا من النوع المقصوص على

الصدر وبدون أكمام، عرفت فيما بعد أنه فستان «صبحتها» هي وماجد، إذ أن عائلته العريقــة تحتفل لثلاثة أيام بأعراســها، فتوجب عليها أن تستعد بأكثر من فستان مكلف بعض الشيء لتلك المناسبات.
فستانها أنيق جدا، ضيق وبذيل صغير مطرز مشكوك بخرز ناعم بنفس لون الفســتان، تضع مكياجا خفيفا وتخطف الحــاضرات برقتها.كان حامد واقفا بين أخواتــه اللاتي يحاولن إيصاله لباب الخروج بعد انتهاء الزفة والتصوير، بينما يحاول هو جاهدا أن يعود ليجلس قرب عروســه التي لم يرها قبل اليوم بدون عباءة. ضحكت رنيم بتصنع باين جدا لمن يعرفها، وهي ترى أمها تمازح عريسها وتدفعه خارج صالة النساء، بينما ينفلت من يدها ليعود لرنيم، وهو يتوسل من أمها بعض الوقت، وسط ضحك الخالات لطرافة هذا العريس.
رافقتها إلى غرفتها، وبلغتها اعتذار غالية التي غادرت الســهرة مبكرة، لأن والدها أتى ليأخذها وكان مســتعجلا. ضحكت رنيم وهي تخلع عقد لؤلؤ على صدرها:
– هــه !! وحامد يقول رآها تركب سيارة مرســيدس حمراء صغيرة... ذكرتك بشيء؟
كان هاتف رنيم يرن متواصلا، وحــين حملت الهاتف إليها لأنها كانت منشغلة بخلع فستانها، كانت هذه المكالمة السادسة لحامد. نظرتْ إليها متجاهلةً، ثم أكملت خلع فســتانها بينما كنت أتصل بأخي محسن الذي سيعيدني للبيت. اتصال أخضر ينبعث من شاشة كمبيوتر رنيم قبل أن تنهي ارتداء ملابسها، جعلها تقفز من فوق فستانها الأحمر المفروش على الأرض، متجاوزة كعبها الذهبــي المقلوب، الذي عادت إليه مسرعة، ورفعته بهلع، لأن قلب الحذاء يجلب الحظ السيئ باعتقادها.
كبست زر الرد في ســكايب قبل أن ينتهي الاتصال، وهي تنزع حلقها

وتضع سماعة الأذن وتعتذر:
- وصلت..وصلت....تأخرت عليك حبيبي؟ إياد نام؟

الأمل يد طفل شبه مغلقة، تظن الحياة خيطا ممسوكا بين الأصابع، والفضاء فوقه بالونا ملونا.

(تنتصب أمامي لوحة حمراء مستطيلة، تشير إليها البنات بجملة: وصل حديثــا. وفي الجهة الأخرى لوحة تتجمع حولها الزبونات أكثر، وبدون أن يخبرني أحدهــم، أعرف أنها لوحة تخفيضــات ٪30. فهذه اللوحة تجعل عدد النساء يتضاعف داخل سدرة. وفي مواسم التخفيضات تزيد فرصي في رؤية وجه لا ينسى. ورغم أن وجه رنيم يفي بالغرض، إلا أنها منذ خطبتها صارت لا تنظر هنا. انتظرتُ خلال الأسبوعين الماضيين أن ينصرف هذا القزم لشــؤونه، لكنه انتظار بلا جدوى، هو حاضر هكذا طوال الوقت، ليشــغلها عن نفسها وعني، بنقاشهما الحاد الذي لا ينهيه إلا دخول زبونة إلى سدرة، ثم خروجه غاضبا وهو يلعن نفسه)

– الحق معه يا رنيم.

– أعرف يا أزهار...أعرف!

– طالما تعرفين سايريه، وتبضعي كعروس، وجهزي ما تجهزه العرائس عادة! من حقه أن يسأل ويستغرب تباطؤك وعدم اهتمامك، رغم قرب موعد الزفاف!

(يد رنيم ظلتْ تتردد في ملامســة خاتم الخطوبة في يدها، قبل أن تلتفت لأزهار، وهي تنظر بحيرة تكذب الكلام الذي جاء بعدها)

– أعرف يا أزهار.

(لم أرَ شــكلا أغرب من شــكل الشــجرة، مقبض خشــبي بالأسفل وأغصان لا حصر لها، ومع هذا يراها البعض جميلة، ومنهم حامد الذي

عاد لسدرة بعد نصف ساعة، ومعه حوض صغير أبيض، أسفله تربة، وأعلاه شجرة بطول ذراعه)

– شجرة يا حامد!

(من خلف طاولة المحاسبة، خرج وجه رنيم الضاحك، لتقترب من حامد، وهي تنظر للحوض من كل زواياه)

– الرجال يصالحون حبيباتهم بباقة ورد، وحبيبتي لا تشبه حبيباتهم، لذا أصالحها بغابة.. أو بعينة من الغابة.

(حبس حامد خطوة أخرى لو كان تقدمها لأصبح فوق رنيم، اقتربت مني أزهار، فحجبتْ بكتفيها العريضين الخطيبين عني، كانت تنظر إلي بتركيز وكأنها تسمعني، دمعة واحدة كبيرة عبرت عينها اليمنى، ذكرتني هذه الدمعة بالزجاجات المكبرة، رأيت من خلالها كل مسام مرت فوقه، وثلاث بقع بألوان مختلفة على خد أزهار. لابد وأن كلام حامد هو من أبكاها، فكم من مرة قرأتْ علينا بصوت عال من مجلاتها التي تعيش تحت ذراعها، كلاما سخيفا وغير مفهوم ككلام حامد هذا، وكنا نضحك منه أنا ورنيم، بينما تدافع هي عنه، وحين يتعبها الدفاع، وتشعر بالحرج، تحسم النقاش بقولها: إن الأسباب التي تدفعها للحكم على رنيم بأنها سطحية لا تنقضي أبدا.

بعد نصف ساعة من مغادرة حامد لسدرة محرجا بسبب تتالي الزبونات، كان هناك رجل يذرع الممرات جيئة وذهابا، أظنه ينتظر أحدا، دفع أزهار للخروج والوقوف تحت الأجراس لمراقبته، ثم صارت تنقل لنا من موقع الحدث ما تراه أمامها).

– رجل غريب يا رنوم... كتفاه يرتعشان وكأنه يرقص، أو أظنه يشعر بالبرد ويتدفأ بالمشي هنا؟

– من يهدي شجرة بالله عليك! أخجل أن أدخل سيارة والدي بها! وإذا

تركتها هنا سيجدها حامد سببا للخصام والغضب غدا، تأخذينها معك يا أزهار!

– رنيم اتركي الشجرة وتعالي هنا، هذا الرجل الغريب ينتظر شيئا!!

(كانت أزهار مغمضة العينين، وتشـــم الرائحة بصوت مســـموع من أنفها)

– رائحة هـــذا الرجل خليط بين المندرين والفلفل الأســـود... اقتربي وتأكدي من كلامي.

(تسللتْ رنيم خلف أزهار، فلم أرَ الممر ثانية)

– ملفت.. صح ؟

(قالت أزهار دون أن تلتفت لرنيم الملاصقة لظهرها الآن)

– المندريني تلقى اتصالا... حوّل حوّل...

(رنيـــم تنقل ما تراه في الممر لي، وللشـــجرة الغريبة التي دفعها الفضول للميلان يسارا جهة الباب)

– غسق؟

(التفتت أزهار عائدة إلى ســـدرة، بشفتها الســـفلى المقضومة تحت نابها المقلوب. وضعت يدها على صدرهـــا، وجاءت لتتكئ علي بظهرها... اللعنة عليها وعلى هذه المؤخرة المتراكمة التي تدعك زجاجي بها)

– غالية!! يا أزهار تعالي هنا، هذا وقت المرايا بالله عليك؟

(فهمـــت من رنيم التي تسرع بالكلام، أن غالية خرجت من غســـق تغطي وجهها كاملا، وهـــذا مالا تفعله أبدا، وأنها كانت تتشـــبث بذراع الرجل المندريني، وسلكا معا طريق الدرج للدور الأرضي)

راقبتْ أمي بصمت الحوض الأبيض الصغير، الذي تطل منه شـــجرة حامـــد. كأن أحدهم راهنها ألا تتحـــرك وألا ترمش بعينيها... قطعت عليها شرودها:

- أمي!!

رفعت مجددا أمام عينيها بطاقة الدعوة لعرس رنيم:

- قلت زواجها الثاني... هاه؟

- زواجَهـــا الثاني، وعندها ولد، وتصر هـــي ووالدتها على أن تحضري معي عرسها، لأنهما حضرتا عرس أحلام.

هذا منطق أمي في الحياة، كل شيء يشبه «سكبة الصحن» التي نستلمها أو نردها للجيران. ما نحصـــل عليه يجب أن نرده بنفس القدر وبفارق بسيط في الجودة، لا نبالغ في الســـكبة حتى لا يظن الجيران أننا نعلمهم كيف تكون الســـكبة الصحيحة، ولا نقلل من جودة السكبة وحبكتها حتـــى لا يقولوا هذا مقامنا عندهم ونحن قدرناهم بســـكبتنا؟ حســـنا المســـألة ليســـت ســـهلة على الإطلاق، وتحتاج لمراس وخبرة، لذا أمي وحدها من تقرر ماذا نرد في الصحن؟

ناولتني البطاقة وهي تثني قدمها وتمدها، وتكرر هذا ببطء، كتمرين في مكان جلوسها، كما نصحها الطبيب:

- خذي فلوس تكفيك، واشـــتري أحســـن فســـتان يعجبـــك لزواج زميلتك، واصبغي شعرك بلون فاتح وقصيه!

منذ ســقوطها في الصالة بيني وبين يوســف، وأنا أشعر بشيء مختلف تجاهها... إما أنها تغيرتْ، وإما أن قلبي صار كدلو طلاء أبيض، يفتش عن رسومات الجدران البشعة، والكلمات البذيئة، التي لطختْ بها أمي جــدران ذاكرتي ليمحوها. التصقتُ بذراعها الضخمة كما تفعل أحلام عادة:

- مجنونــة أنا أتزوج؟ وأترك للمارشــميلو جهات البيــت كلها، تجول وتصول بها، وتحتل ما بقي من غرف وتلفزيونات! يستحيل طبعا!

حسنا... من لم تضحك من نكات أبي وتعليقاته الطريفة طوال عمرها، لن أطمع بأن تضحك مني الآن، لذا تركت لصوت الغسالة الخارج من المطبخ، وهزاتها المعتادة حين تمتلئ بالمناشف أن تضحك بالنيابة عنها.

زواج رنيم ذكرني بالأغنية الوحيدة الناجحة في سي دي... كل ما قبلها وما بعدها سيئ، كحال هذا العُرس الجميل الليلة. لم تكن أمي مرتاحة، رغم أنني وضعتُ لها كرسيين متلاصقين تجلس عليهما، ووسادة ظهر محشوة بالريش، سرقتها من الكوشة، إلا أنها لم ترتح في جلستها، وكان هذا ظاهرا طوال الوقت على وجهها. أحلام أيضا كانت منشغلة بهاتفها، وبتلك الرنة التي لو سُمعت فهذا يعني أنها ستركض للخارج مسرعة كحال السندريلا، حين تسمع أجراس الساعة الثانية عشرة منتصف الليل. وهذا بالمناسبة اسمها الجديد، بعد أن خلعتُ عنها لقب لبابة الخبز، ووهبته لمن في بطنها.

لم أتعود على الرقص، لا بمفردي ولا أمام الناس. لا أعرف إن كان سبب رغبتي في الهروب من هذه الطاولة هو قدوم غالية الآن، أم أن السبب هو أمي المتململة، أم أختي التي يمتلئ وجهها بكلَف الحمل. كانت غالية توشك على الجلوس على نفس الطاولة التي نجلس عليها أنا وأمي وأحلام، صافحتها وأشرتُ ناحية الكوشة، وهذه الحركة تكفي لتكون اعتذارا مقبولا جدا، ولها معنى واحد: أريد التعبير عن فرحي بالمشاركة بالرقص في زواج صديقة عمري.

وجدت نفسي وسط صفوف مبعثرة من نساء وعطور... لكثرتها لم أعد أميز أي وجه أو رائحة. كن يرقصن على أغنية من «بعد مزح ولعب»... أغمضت عيني كي لا أخجل من حركات يديّ وقدميّ، التي لا تشبه

حركاتهن المتناسقة. سمعت ضجيج قلبي فقط ولحن الأغنية في أذني، حتى الكلمات لم أكن أسمعها، فلقد كنت أغنيها في داخلي أفضل مما تغنيها هذه « الطقاقة ». لا أعرف كم مرة درت، ولا كم مرة وضعت كفّيّ على وركي ومررتهما على امتداد خصري، ولا إن كنتْ نكتة الليلة أنا وأنفاسي المتقطعة على هذه الخشبة، أو أنني أمر كشبح لا يراه أحد.

حين عدت لمقعدي، كانت أمي منشغلة بحبة فستق تتحصن منها بقشرتها، فيما تعاجل هي بكسرها قبل أن يبرد الشاي أمامها. أوشكت أن أسألها كيف كان رقصي، لكن حين رأيت حبات الفستق مكومة على يمينها، ولازالت بقشورها، تأكدت أنها استغرقت وقت الأغنية في محاولة تحرير هذا الفستق من قشوره الصلبة.

قامت غالية لتجري اتصالا، أما أحلام فكانت تجلس في مكان آخر رغم التصاقها بكتف أمي. لم تتكلم هي الأخرى بقدر ما أكلت وراقبت النساء من حولها. كان هذا قبل أن تنشغل تماما بخاتم زفافها الذهبي والمحفور عليه «ع&أ حب إلى الأبد» كانت تراقب الخاتم شاردة الذهن وكأنها للتو تكتشف العبارة المحفورة عليه. تخلعه ثم تعود وتلبسه، تُقلّبهُ على الطاولة، تبرم منديلا تمرره من داخله وتعبر به للجهة الأخرى، تسقطه متعمدة، ثم تلتقطهُ وترفعه عن الأرض، وهي تنتظر بصبر قدوم الحب الأبدي المنقوش بباطن خاتمها.

في البيت كانت أمـــي قد بدأت عادة جديدة، غير الدوران باتجاه الجدار لمراقبة الســـاعة وانتظار اتصالات أحلام، وهـــي لبس جوارب ملونة ومبتلة لتبرد قدميها. نصحتها إحدى الجارات بهذا، وأمي تثق بجاراتها، لذا خف انتفاخ قدميها.

– وأخيرا واحد من عيالي جالس بالبيت.

هذه رقة أمي إن كنت لم تلحظ بعد، فهذا أرق أرق ما لديها! وبشـــكل وقائي ابتسم لها محســـن وهو يرفع عينيه عن شاشة هاتفه. رمى به فوق بطنه، وزم شـــفتيه بطريقة توحي بمحاولة الضحك. شرب من كوب شـــاي أمامه، وكأن عقله يأمره أن يستفيد من هذه المقاطعة بأقصى حد، ثم تخلى عن فكرة الكلام معها وعـــاد لهاتفه، وذلك حين رأى أمي ترد على اتصال يوسف الذي لم يرد على اتصالين منها سبقا اتصاله هذا:

– أها كنت تصلي! طيب صل بالبيت المرة القادمة! أساسا كثرة الأحذية أمام المسجد تُعفن به، وأجرك أكبر إن صليت هنا.

لأمي فتاواها الخاصة، وأســـبابها المقنعة لهذه الفتاوى. ولأخويّ سلمية أبي وهدوؤه، ولهما أيضا ضحكة أمي المتشـــنجة، ليس الآن فقط، ففي الأوقات الأخرى الأكثر طرافة مثلا، لابد أن تكون معرفتك بهما وطيدة لتميـــز أن هذه ضحكة. مؤكد أن لكل منهـــما مدخلا تعرفه بنت غريبة عنا، ربما هي هذا اللون الأحمر المعكوس في نظارة محســـن، وهو يبتسم للشاشة ويكتب لها، ربما الآن يمتدح فستانها الذي أرسلت له صورته،

وربما يمتدح أيضا ما تحت فستانها، لذا يبتسم بخبث هكذا ويحتضن الهاتف بين ركبتيه. لابد وأنها بنت جميلة كرنيم تتحرك في يومه بخفة سمكة، تعرف ذوقه في الأغاني، ومواعيد محاضراته، والأساتذة الذين يكرههم....فجأة استعاد محسن انتباهه، ونظر إلي وهو يستدير بكل جسمه، كي لا ترى أمي حركة شفاهه:

- يهمك أن أرسل لك صورا في الواتساب عن أقوى البراكين في العالم؟

لا أحد يتفوق على بكر حارس الأمن في توزيع الابتسامات، وفي افتعال الأعذار ليتحدث مع العاملات في محلات المول، ورغم نظرات النفور التي يتلقاها، إلا أن صبره محيط كما كانت تقول عنه رنيم.

– العريس وصل يا أزهار.

كان يرفع حزامه العريض للأعلى، وهو يمرر عود أسنان غير مرئي بين فكيه، إذ أنه يمتلك مهارة إخفاء الأشياء في فمه لوقت طويل.

كنت للتو أعبر البوابة رقم واحد حين أخبرني بهذا، ورغم كرهي للسلالم الكهربائية كما تعرف، إلا أنني سلكتها قفزا للأعلى متجاوزة بعض درجاتها. اندفعت دون وعي مني وأنا أحاول أن أُسمع غالية أن رنيم جاءت، فأسمعت أيضا بعض عملاء مكتب الرحلات المجاور لمحل غسق، والذين كانوا يصطفون في ركن بانتظار أن يفتح المكتب، ويبدو أنني بركضي هذا كنت تسلية جيدة لهم هذا الصباح.

تقدمتُ من باب سدرة المغلق، وأنا التقط أنفاسي، وأمسكُ ركبتي اليمنى لتهدأ هي الأخرى، أتكون ضيعتْ المفتاح وتشاغلت بشراء قهوة ريثما أصل إليها؟! تلفتُ في كل الجهات وأنا أخرج هاتفي لأتصل عليها، وحين لم ترد طمأنت نفسي بأن هذه عادتها، ونسيتُ أنني مصابة بداء الخيبات. تراكم المارة في عين واحدة وبالعين الأخرى كنت أفتش عن صديقتي في هذا الدور. ثم وجدتُ نفسي أمام محل حامد وإخوته، خلعت نقابي رغم أنني لا أفعلها خارج سدرة:

– ألف مبروك يا عريس.
لا أعرف إن كان أحد الأخوين لاحظ ارتعاش صوتي واصطباغ شفتي بالأبيض.
– أهلا بالغاليين...عقبالك يا حلوة.
– توقعت رنيم هنا!
سعد أخو حامد يقف على سلم قصير القامة، وهو يرص كراتين الأحذية الصغيرة في رف عال، بينما حامد يشرب شايا بالحليب، وينفث سيجارته أمامه ناسيا أمر وجهي، أو أنه لا يعرف أن هذا قلة ذوق منه:
– هنا؟
نظر لعيني وبدون أدنى دهشة من سؤالي، رغم تمثيلية الاستغراب هذه:
– أعني لأنني لم أرها في سدرة! توقعت أنها أضاعت مفتاحها، وتنتظر وصولي هنا عندكم!
كان سعد في الأعلى ينظر مغتبطا من فوق رأس أخيه، وحامد يختلس النظر وكأنه يؤجل قول شيء يصدمني:
– رنيم ست بيت متزوجة، لها زوج مسؤول عن مصاريفها، ولن تعمل بمكان به اختلاط بعد الآن.
أنهى سيجارته، وبما أنه قرر منذ بدأ يدخن في وجهي، أن اللياقة مضيعة للوقت، فقد رماها على الأرض ودهسها بنعاله.
– هي موافقة أن تستقيل؟
– هي امرأة متزوجة ، وتعرف كيف ترضي زوجها!!
تمنيت أن تطير كفي لتصفع وجهه، وتعود إلي قبل أن أخرج، ثم تذكرت أن رنيم لم تشترط العمل بعد الزواج، وتذكرت أيضا ولكن بحذر سبب زواجها منه، ولأول مرة لم أشفق عليه.
ابتسمت له... وأنا أعيد نقابي الذي خلعته بدون قصد، وأعدته كذلك

بدون قصد:
– لن يستمر هذا طويلا يا حامد..
في وقت لاحق من اليوم تأكدتُ أنني لم أقل هذا، أو أنني قلته ولم يسمع، إذ أنه مر أثنـــاء الأذان لصلاة الظهر، وأنا أغلق ســـدرة، وقال بمنتهى اللطف:
– تفضلي تغدي معنا.
كان أخوه في ظهره، يدفعه للأمام ممازحا وهو يضحك:
– غداؤنا سمك.
نزلا معا السلم الكهربائي الذي صعدته في ثلاث قفزات، حين وصلت هنا صباحا. راقبت نزولهما السريع، ولم أجرؤ أن أتبعهما فالبهجة تنقصني وهذا ليس عدلا، لذا وجدت نفسي وحيدة مرتابة، وأتجه كعادتي اليومية نحو سلالم الدرج العادية.

انســقتُ بعيدا في ظنوني، خصوصا أن رنيم كانت تكتب لنا في قروب ســدرة بحذر، وكل جملة مختصرة تبدو وكأنها قصة ســتقولها في وقت لاحــق. وحين ترد على اتصــال من بين عشرة أخــرى تتجاهلها، ترد أيضا بحذر وكأنهــا مراقبة. لذا قررت أن أزورها في بيت أهل زوجها. اعتذرت لحامد مقدما عن موعد زيارتي الذي ســيكون بعد دوام الفترة الصباحية، أي بوقت الظهيرة الغير مناسب للزيارات، وعذري أنني بلا إجازات حاليا. ورغم استغراب حامد المستفز حين قال:

– تنورينا في أي وقت يا رنيم... لم يوظفوا زميلة لك في سدرة حتى الآن؟

إلا أنني حاولتُ أن أختار الجيد من كلامه...«تنورينا»، وتجاهلت البقية.

سارت سيارة غازي خلف سيارة حامد وأخيه الذي يجلس إلى جواره، حتى وصلنا لبناية معظم عمرها خلفها لا أمامها، حتى طلائها الأبيض الجديد لم يُخفِ قدمها:

– الباب الأمامي مباشرة في الدور الأرضي.

دلني حامد وهو يرفع زجاج ســيارته التي لم أميز نوعها، فهي الأخرى مجــددة كبنايتهم هذه، ثم مضى وهو يودعنــي، فتذكرتُ ويده مرفوعة هكذا، حين دخل مرة إلى ســدرة، واقترب من طاولة المحاسبة، وسأل رنيم بمنتهى الجدية:

– تستمتعين بالدغدغة؟

حين فتحتْ أخت حامــد الباب، كنت لازلت أضحــك، وأنا أتذكر

حامد وهو يبرر سـؤاله لرنيم، بأنه لا يسـتمتع بالدغدغة، لذا أرد أن يعرف الطباع المشتركة بينه وبينها.
قادتني أخت حامد الأكثر شبها بأخيه سعد، وكنت سأقول لها هذا، لولا أنني خفت أن يكون هذا جارحا لها. أدخلتني لغرفة جلوس ألوانها باهتة ، وأثاثها قديم كأثاث بيتنا. دستْ تحت إبطي مخدة صغيرة لأستريح أكثر في جلستي، وكانت ودودة معي جدا. قدمت لي العصير، وصحنا مكدسـا بالحلوى التي بقيت عندهم مـن ليلة العرس. لازلت أتذكـر الأوراق الذهبية هذه وهي فارغة ومكومة أمام أختي. النصف الآخر مـن صالة الجلوس به تلفزيون، حوله حركة وأصوات لثلاثة أطفال، تعمدت تجاهلهم وهم ينظرون خلسة ويضحكون، فأنا لا أحب الأطفال. مكثتُ لربع ساعة مارسنا خلالها كل ما تقتضيه حوارات الضيافة من طقوس، كانت رائحة طبيخ الغداء تنبعث من المطبخ رغم بابه المغلق، وكل شيء كان طبيعيا باستثناء أمرين... والدة حامد التي تصلي منذ دخلتُ منزلهم، وأن تكون رنيم تسكن في مثل هذا البيت.
ادعيتُ الجهل حين سألت:
– رنيم في البيت؟
لم تفزعني العشر ثوان التي استغرقتها الأخت لتجيبني على سؤالي، ولا الوقت الذي اسـتغرقه المفتاح الثقيل وهو يدور في باب غرفة رنيم قبل أن تفتح لنا، بقدر ما أفزعني وجه رنيم الشاحب. أغلقتْ الباب خلفنا بكل هدوء، وكأن في البيت من تخاف إيقاظه! عانقتني وبكت بدون أن تسيل منها الدموع، رأيت ما كنت متأكدة منه في حينها... لعبتها بطريقة ما لم تنجح. ضممتها وشممتُ فيها رائحة سدرة الباهتة بدونها، وكأنني أضم نفسي. ظننتُ أنني بصدد لحظة عظيمة، سـتخبرني فيها رنيم بكل التفاصيل التي لا تستوعبها الهواتف الذكية. يدها فوق فخذها منشغلة ببرم طرف قميصها الأصفر حول إصبعها لتفكه ثانية، وتعيد الكرة:

– رنيم كلميني أنا هنا!
– اشتقت لإياد والله واشتقت لأزهاري.
كنت أجلس على كرسي صغير مقابل سريرها، بينما تجلس هي على كومة مجعدة في حافة السرير، ورغم انشـغالي بوجههـا المبالغ في صفرته، إلى حد أن أشـك أنها تضع بودرة بهذا اللون الباهت المتقن التوزيع، إلا أن صورة سـعيدة جدا تجمعها بحامد على قـارب صغير في البحر، معلقة على جدار حائطها، أخذتني من الشـك فقط بصدق وجهها الأصفر، للارتباك أيضـا من حياة تحاول أن تخبرني بها جدران هذه الغرفة. كنت أظـن أن المرأة التعيسـة في زواجها، لا تعلق صورا تذكرها بالمناسـبة هذه،كحال أمي مثلا!!
– يا رنيم، اشرحي لي، حامد فهم اللعبة؟
سألتها وأنا أعرف الجواب.
– حامد يحبني ويسخر وقته لإسعادي فقط، لكن أنا، أنا هي المشكلة.
ليـس هذا هو الجواب الذي أنتظره، لكنها أمهلتني بعض دقائق مثلتْ فيها الوهن، أو هكذا ظننت:
– أعرف... سـتقولين الوقت ليس في صالحي، أستطيع أن أسمعك يا أزهار... أليس هذا ما تفكرين به؟
لم يقلقني كلامها فلطالما سـمعت رنيم ما أفكر به، لكن ما أقلقني أنني أنا من لا تفهم كلامها.
– أنا أتورط في زواج مناسـب جـدا لي، ولا أعرف مـاذا أفعل به... تفهميني صح؟
كانت تقضم ظهر سـبابتها المقوس، فيما تنظر لعيني، وتحرك شفتيها بما ستقوله لي بعد قليل:
– عشت تجارب كثيرة قبل حامد، أشياء لا تعرفينها... أبدا لا تعرفينها

عني، ولا أفخـــر بها، لكنها حدثـــت بعد فوضى كبـــيرة بحياتي. هذه التجارب تجعلني أؤكد لك أن حامدا مناســـب لي بشكل لم أتوقعه قبل الزواج! بيننا توافق خرافي بأمور مهمة لاستمرار الزواج، ولأشرح... لم أمهلها وقتا، قاطعتها على الفور:

– لك عـــالم غير عالمنا يا أم التجارب الكثيرة !! قولي لي... ما المعنى من كل هذا؟

صوت البكاء الذي يلازمني عندما أنفعل يحرجني كثيرا الآن، خصوصا أنني لا أنوي أن أبكي مع كل هذا الغيظ تجاهها!

وقفتْ وهي تلتفتْ باتجاه سريرها، لتعيد ترتيب تلك العاصفة فوقه:

– أعرف...أعـــرف كلامي قريب من التفاهـــة لواحدة مثلك، لكن لو كنت متزوجة لفهمت كلامي أسرع.

وضعتْ مخدتين فوق بعضهما أعلى السرير، فبدت وكأنهما مخدة واحدة. عدلتْ ثنية اللحاف الأبيـــض للوراء قليلا، ليظهر جزء من لون بطانته الذهبية أعلى الجـــزء الأبيض الممتد بطول السرير، وهي تعتذر عن هذه الفوضى التي استقبلتني بها.

– تصفحي ألبوم الصور، بينما أعد لك قهوة تنسيك قهوة سايمون.

حتى أنها لم تقل «ســـايمون صليب الذهب» كـــما تعودنا، وطريقتها في العناية بسريرها ذكرتني بأناقتها في العناية بركن الهدايا في سدرة.

أتحب سريرها كما تحب ذاك الركن؟ حين فكرت لاحقا تأكدت أنه كان علي أن أشـــعر قبل كل شيء بالاشـــمئزاز من قولها قبل قليل: «لواحدة مثلك».

بدأت أفكر في حل الكلمات المتقاطعة التي ملأت بها رنيم جلستنا، قبل أن تشـــير للباب لتوهمني أن أحدا قد يتنصـــت علينا، وهي تغير الحوار بسؤالها:

– وطبعــا أضيف لك مع القهــوة، نص ملعقة حليب وقالبي ســكر كالعادة!

ظننتُ في زيــارتي الوحيدة لها، بأنها تحاول أن تكــون غامضة مخافة أن يسمعنا أهل زوجها خلف هذا الباب، أو هذا ما أقنعتُ نفسي به، لكنها كانت المرة الأخيرة التي أخطئ فيها فهم رنيم.

(ثلاثة أشـــهر تلت زواج رنيم، حُرمت فيها من الجـــمال. تعاقبت على العمل في ســـدرة فتاتان، إحداهما لم تترك حيزا بيني وبين الرف الهرمي المخروط الذي كان في وسط سدرة، سحبته اللعينة بمساعدة من عامل النظافة، ووضعت أعلاه الفواحات الكهربائية، ولولا أن أزهار أبعدته في الوقت المناسب، لاختنقت يومها بفعل تلك الأدخنة التي تصاعدت من الفواحات، وتلبدت فـــوق زجاجي. صارت أزهار مطالبة باليقظة أكثر، لذا هي صامتة معظم الوقت. وصفتها إحدى العاملات الجدد في سدرة في محاولة لتقليص المسافات بينهما، بأنها كتومة جدا ولا تضحك، فوصفتها أزهار بأنها غبية لا تطاق! وبهذه المكاشـــفات الحادة، أبعدتها عن فرع سدرة في هذا المول للأبد.

ورغم أن أزهار منزوعة الجمال، إلا أنني ما كنت أقدر أن أكف عن النظر إليها لساعات طويلة. وحتى حين يظهر نابها المقلوب من تحت شفتها، لم أكن أبخل بانعكاسي عليها. حالها هذا ذكرني بحال تلك المرآة المشـــطوبة التي عاصرتها، وكانت تهذي في أوقات الظهيرة اللاهبة في الميناء:

– أنتن لا تردن أن تعرفن ماذا يضمر الغد للمرايا الصادقة!!

ورغـــم أن المرايا اليافعـــات تناقلن فيما بعـــد العبارة وهن يســـخرن من هراء وصـــوت العجوز المشروخ، دون فهم دقيق لما حـــدث في تلك الفترة، إلا أنني أذكر ذاك الصيف جيدا. فبفعل الرطوبة عدونا الأول بعد الأطفال، ســـقطت على الأرض تلك المرآة المســـنة التي كانت تهذي كثيرا... تركت الســـقطة أثر

شرخ على جبينها. لو كانت شـــابة قليلا لأعادوا ترميمه، فالبشر بارعون جدا في التزييـــف، لكنها كانت كبيرة لذا جاؤوا بمطرقة من حديد، وبضربة واحدة في منتصفها، تساقط زجاجها وتناثر في مثلثات صغيرة، ثم كُنست ووضعت في حاوية زجاج كتب عليها: «تحذير يوجد هنا زجاج تالف». كلمة تالف بعد كل سنين الخدمة تلك، هي من جعلتها تفقد السيطرة على نفسها، وتخرج أمام البشر بصورتها الحقيقيـــة، فأخذت تتطاير كالحجارة، وهي تلمع تحت أعمدة الإنارة القليلة في الميناء، وتقذف بنفســـها فوق العمال، وتصيب هذا في صدره، وتطعن ذاك في عينه، وســـط صراخ وذهول العمال حتى صار رصيف الميناء يســـبح في الدم والمرايا الصغيرة. ولأن الوقت كان ليلا والعتمة أكثر من الضوء، فُسر هذا الاعتداء على العمال الأربعة بأنه فعل مـــن أفعال الجن. ولأن علينا نحن المرايا مواصلة الرحيل، تم تفريق تجمعنا في تلك المستودعات في موسم الصيف ذاك، وإفراغ أماكننا لشُـــحن الأحذية المســـتوردة. حال أزهار الساخط على البنات الجدد، وصمتها الطويل هذا، ذكرني بتلك المـــرآة العجوز، وبكل المرايا، فهي تشبهنا في صمتها هذا، وحتى في كرهها للأطفال.

الأمر لا يتطلب الكثير لتصير بغيضا عند البشر، فقط كن صريحا، وفعّل النظام... أعادت أزهار تفعيل نظام النســـبة بشـــكل صارم مع زميلتها الأخيرة، فصارت تتناهش الإجازات والزبائن أمام الآخرين وبشـــكل واضح لتحظى بنسبتها من كل عملية بيع.

انشـــغلت ســـارة بتفريغ الكراتين، وترتيب البضاعة الجديدة. مجتهدة جدا هذه البنت، أما أزهار فقد ســـحبت الكرسي الذي صار اســـمه كرســـيها، وجلست أمامي مباشرة وهذا حالها منذ ساعة، إلى حين وقفت فجأة وكأنها تســـمعني. التصقت بي تماما، حتى صار نهدها مضغوطا للخلف غاطســـا داخل جســـدها، ونظرت للجهة اليمنى وعيناها تركـــزان على أرنبة أنفها على زجاجي، ثـــم لليسرى كذلك، أظنها توازن بين الجهتين، ثم نظرت إلي

مباشرة وهي تهمس كي لا تسمعها زميلتها الجديدة:

– ما أصعب السير وحيدة في هذه الدنيا يا مرآتي، كيف تتحملين كونك المرآة الوحيدة هنا؟

بوسعي أن أؤدي نفس الدور هذا، أن أتحدث معها فجأة هكذا لأفزعها، لكنني مرآة عاقلة.

– هـــل أنا مرئية لك يا مرآتي؟ هل ترينـــي الآن، أم أنني أنا وحدي من ترى نفسي فيك؟

على مســـتوى وجهها في زجاجي، وفي الأثر الذي خلفته أنفاسها الحارة على سطحي الأملس، رســـمت بأصابعها الباردة دائرة تفصلها مسافة كبيرة عن دائرة أخرى.

– لو جاء أحدهم وسرقك من مكانك هذا للحقتُ بك وخلصتك منه، ولو تبعته إلى أبعد مكان... هل كنتِ ســـتلحقين بي أنت أيضا؟ أم أنك ستقولين هي بنت، هي مجرد حضور طارئ في سدرة وستتبدل بغيرها! هل نحن صديقتان هنا يا مرآتي؟

كل شيء تغير في سدرة في الأشهر الماضية، إلا أنا وهذه البنت الحاضرة دائما، وزاد الأمر بداهة أمامي، حين تســـلل نابها من تحت شـــفتها العليا وهي تبتسم، فرأيته وميضا جميلا، وحين ابتعدت لتســـتقبل زبونة طويلة قرعت الأجراس برأسها، لم تكن كعادتها لطخة مشـــوهة في ســـدرة، ولم يكن قفاها كبـــيرا ككل يوم، على العكس تماما... كانت شفافة جدا، وحقيقية كمرآة من سلالتنا)

الســـاعة تشـــير للعاشرة والنصف ليلا. أضأتُ النور في المقعد الخلفي لســـيارة غازي، كنت قد دهست شـــيئا أمام البوابة ولا أعرف ما هو، وبـــدأت بتفقد كعب حذائي وأنا أفكر بـــأن آخر إجازة حصلت عليها كانت قبل أسبوعين. قبل أن أنتهي من مسح حذائي، لفتني نقر خفيف على زجاج نافذة الســـيارة، كان نقر ظفر طويل، نقرا له إيقاع سميك، لـــذا خمنتها كفا تضع المناكير حين رفعتُ رأسي. فتحتْ الباب بكل ثقة، وكأنه شيء يتحتم عليهـــا فعله، بعد الاســـتئذان بالطرق على الزجاج هكذا:

– الحمد لله... تأكدت أنها سيارتك، وأنك أزهار حين أضأتِ النور.

لا أعرف ما الذي كانت تكتم أنفاســـها عنه في الخـــارج، لتتنفس بهذه القوة أمام الفجوة التي تفصل بين المقعدين الأماميين، أعادت رأســـها للخلف، ولاحظتُ أن صدرها ممتلئ أكثر من قبل، وكأنه ترضع أو أنها بدأت تُضيّق عباءاتها من أمام الصدر... لا أعرف.

– أكيد وجهك أصفر ... خفتِ من غالية حبيبتك؟

هـــززتُ رأسي لها نافية كلامها، مع أنني أوافقهـــا في داخلي. يبدو أنني صرت أشـــبه أمي في هذا! رأسي يقول شـــيئا، ولساني يقول شيئا آخر. عيناي منشـــغلتان بالأمر المتغير فيها، ولا أســـتطيع إمساكه لحد الآن. تشاغلت هي بترتب طبقات الدانتيل الرمادية اللون في كم عباءتها، قبل أن تلتفت وكأنها للتو تتذكر ماذا تريد:

– أأأأ... أزهار، يزعجك أن توصليني في طريقك!
– لا... لكن كنت فكرت أن أمر على البحر أولا، ثم أعود للبيت.
توقعتُ أنني بهذا تملصتُ منها.
– ياه... البحر! خذيني معك، أنا حصلت على إجازات كافية من غسق، لكني لم أجد الوقت، لأريح تعب جسدي بالمشي أمام البحر.
ضحكت وهي تكمل كتابة رسالة في هاتفها.
مضى غـــازي باتجاه البحر، حـــين انتبه للصمت في نهايـــة كلامنا. كان اهتمامي منصرفـــا كله لفكرة الجســـد الذي لم يســـترح في الإجازات، وكان هناك بالتأكيد سبب آخر يشـــغل غالية، إذ أنها مالت بخدها على زجاج نافذة الســـيارة، واختفت هي الأخرى في فكرة. بعد ثلث ساعة من الصمت تخللها بعض كلام، كان كله ذم في زميلتي الجديدة ســـارة، همستْ غالية كطفلة يدهشها ما ترى:
– البحر ..!!
كان غازي محظوظا إذ أنه وجد موقفا لســـيارته، ألصق رأسه في المقعد الذي يئن كلما تحرك، ومال للخلف قليلا، ثم ســـلم نفســـه لنوم عميق ما أن توقفت الســـيارة، وكأن هذا ما يتحتم عليـــه فعله كلما وجد وقتا للفراغ. خرجنا من الباب نفســـه، وهذا ما لم أحبـــه، فأنا أختلف عنها في كل شيء، لمَ أشـــبهها الآن؟! تخلل الضوء الأمواج فصار وكأن نجما ســـيخرج من الماء بعد قليل، حاولت أن أمشي وحدي لكنها جاورتني حتـــى تمازجت ظلالنا كعجينة ســـوداء أطول مـــن الرصيف. تجاوزنا عائلة كبيرة من النساء والرجال والأطفال، تجلس على ثلاث طاولات متلاصقة. هذا الجو العائلي أوحى لغالية:
– رنيم محظوظة يا أزهار، وجدت أخيرا رجلا يعتبرها كنزه!
– آه...صحيح.

– رنيم تكابر، لو رغبت بالطلاق لما كان هذا شهرها الثالث بعد زواجها، أنا متأكدة أنها أحبت حامدا بعد الزواج... شـــخص يحبها بكل تناقضاتها لابد وأن يُحب! ثم أنني رأيت إثباتا صريحا على حبهما.

رقّصـــتْ حاجبيها بخبث من يحمل سرا. أظنني لـــو رأيتها الآن مكبلة ومعلقة في ســـقف، لما سارعت بنجدتها. أنا غاضبة منها طوال الوقت، ولا أعرف لهذا ســـببا مقنعا، أو لعل الســـبب أن رنيم شاركتها بما كنت أظنه سرنا أنا وهي فقط! لمَ نخون بعض أنا ورنيم بإفشاء أسرارنا لغالية فقط؟ أكملت غالية كلامها وهي تلف يدها حول يدي، وتلصق كتفها بكتفي، وكأنها ستقول شيئا يمتعها تذكره الآن:

– في زيـــارتي الوحيدة لها في بيت أهل زوجهـــا، طبعا قبل أن تعزف لي موســـيقى كلاســـيكيه عند الباب، كانت تحاول فيهـــا أن تؤكد ولاءها لطليقها وولدها، وبنظرات حزن مصطنعة تبرع في تمثيلها رنيم، لتؤمن لنفسها أن تبقى هي الحدث الأساسي دائما!

كنت على وشك أن أسكتها هنا، لكنها عادت لتقول بسرعة وهي تتلافى مقاطعتي لها:

– دخل حامد من الباب ونحن واقفتان لتودعني.

ابتسمت غالية وهي تحرر دفعة واحدة كل نظرات اللؤم التي رأيتها بها منذ عرفتها:

– قـــد يكون العناق مجاملا يا أزهار، لكـــن القبلة!! آآه من القبلة، وتلك التـــي ترتجف بين الشـــفاه مضمومة بالذات، صادقة جـــدا يا صديقتي! يومها قبلته أمام الباب كاســـتجابة طبيعية لشيء هي متعودة عليه، وكأن فمها ينتمي لفمه منذ سنين. أرخى عنقه للأسفل قليلا ومال برأسه وكأنه يعرف ماذا سيلتقط، ثم اندفعت هي لفمه بدون تفكير، مغمضة العينين، غارقة في رجل هو بدون شك متعتها الأهم في الحياة، ناسية تماما وجودي

ومعزوفة الحزن تلك.
لم ألحظ أنني أحدق بغالية، وأن نظراتي أربكتها، إلا حين جلبني صوتها مرة أخرى:
- أزهار! بنت!
كانت تنتظر مني أي تعليق... أن أقول شيئا أو أن أكرر كلامها، لكنني كنت مشـــغولة بشيء يحدث لي ولا أفهمه. بالصور التي بدأت تتداعى أمامي، فـــرح حامد، وجهه الممتلـــئ بعد الزواج، ســـعادته في العمل وبهجته في التعامل مـــع الزبائن، حتى حين يصادفهـــم خارج محلهم، لابد وأن هذا انعكاس لســـعادته في تلك الغرفـــة الأنيقة في بيت أهله! صورتها المعلقة في جدار غرفتهـــا، اصفرار وجهها المصطنع، لعله كان تمثيلية بالفعل!! هروبها الطويل من «الواتســـاب» والذي لم تكن تهتم بـــه إلا لتكتب لماجد! ثم حذفها للبرنامج كله. مدت غالية يدها لكعب رجلها. أخرجته ونفضت شـــيئا علق به، ثم أعادته لقدمها وهي ترفع رأسها للأعلى، ولوجهي مباشرة:
- صدقيني... إذا صلح أمر الجنس في الزواج، صلح البيت كله.
قالتها وهي تزم شـــفتيها بثقة، وتحرك رأســـها بيقين من يستشـــهد بآية أو حديث صحيـــح. تذكرت علاقة أبي بأمي، أحـــلام وعمر. ما هذه الدوامـــة؟ تحليلها أربكني، وكأنني الوحيدة التي انتهى الفيلم ولم تفهم منه شيئا، أعلينا أن نجرب رجالنا قبل الزواج مثلا!!
- أيمكن أن نتشارك شيئا آخرا أنا وأنتِ غير سيرة رنيم يا غالية؟
تقدمتهـــا قليلا، كنت بحاجة لأن أكون لوحـــدي الآن تحديدا، تركتها خلفي تشتري « آيسكريم». عادت والتصقت بي، وهي منهمكة في لعقه بطريقة محرجة لســـيدة ترتدي العباءة وتقف وسط الناس!! كان ذقنها مبقعا بكريمة وردية اللون، وهي تضحك من نظراتي إليها:

- يــا ألله! ملامحك تشــعرني أنني عاريــة، ألا يوجد لديــك أي ميل لارتكاب المخالفات يا أزهار؟
عندما أُســأل عن شيء شــخصي لهذه الدرجة، أشــعر أننــي فتحة في الأرض، تقود لــسرداب طويل مغمور بالأكياس وآثار الأقدام، مكان لا أعرفه أنا أيضا.
- عندي ميل للمحافظة على مظهري أكثر.. هذا عيب بنظرك؟
قلت هذا وأنا أطبع منديلا على شــفتيها بيدي، لتمسح تلك الفوضى.
أعرف أن جوابي لم يكن ذكيا ولا مدهشــا، كان هذا واضحا من هزها المتكرر لرأسها بلا مبالاة:
- أعــرف أنني مخطئة يا أزهار... كنتِ هنــاك طوال الوقت، وكان من العدل أن آتي إليك وأخبرك بالأمر كله منذ البداية، كما أخبرتني وحدي عن الأسمر حسن، لكنني ترددت!
أردتها ليلة هادئة ليــس إلا، أردت أن نغادر هذه الزاوية، لبقعة تزدحم بالأطفال كي نكتفــي بالضحك من طرق لعبهم، رغم أنني لا أحبهم.
وضعت سبابتي داخل أذني مرورا من تحت طرحة رأسي، وتعمدت أن تراني غالية:
- لا أحتــاج أن أعــرف أي شيء جديد هذه الليلة، أنــا في إجازة من الثرثرة.
مر رجل يجر عربة العاب للأطفال وهو يقول: على خمســة، على خمسة، على خمسة...
لا أعرف إن كان وجودي قرب موقد فحم تتقافز منه شرارات شــواء الذرة، هو الذي مدني بكل هذه القســوة عليها، لأسألها بشكل صريح هكذا:
- مــاذا يمكــن أن يقول محرّج يحــرَج عليك يا غالية! كم التســعيرة

المخصصة لك مثلا!
سألتها سؤالا لم أجرؤ يوما أن أسأل رنيم عنه، فابتسمت وكأنها لم تسمعني، وهي تشير بإصبعها إلى حركة تشدها في البحر.
– هناك... مباشرة على امتداد هذه الأسرة، مقابلهم تحركي.. تحركي بنظرك عشرة أمتار للأمام، هناك هناك..
– رأيتُه.. اخفضي صوتك! فضحتينا!!
كانتْ تلف وجهي بقوة، وتشيرْ باليد الأخرى لجهة في وسط البحر، مشيتُ مبتعدة عنها قليلا، كنتْ أحتقرها أو مشمئزة منها بطريقة لا أعرف لها سببا محددا، ولأنني أفهمها جيدا، شعرتُ أنها تريد أن تلمح، بأنها ستبدأ من جديد، مثل هذا الغطاس الذي أشارت إليه قبل قليل، وأطل برأسه الآن من البحر. ستترك مالا تجرؤ على قوله في أعماقها، وستتغير من هذه اللحظة، وكل هذا سيجري بعد أن تبكي دموع الحسرة والتضرع من هاتين العينين المشبعتين بالكحل. توقفتُ عن المشي مبتعدة عنها، التفت إليها وأنا أنفخ كل تململي في وجهها، لتخلصني وتبدأ بالكلام، ولننتهي من هذه الليلة:
– لا تجعليني أطاردك يا أزهار! وعلى فكرة أنت من النوع الذي لا يمكن أن يكون مفاجئا، فلا تفتعلي الهروب، وتركضي مبتعدة هكذا!
– الحمد لله إذا!
– لا... قصدت أن تجربي شيئا فيه مجازفة. مثلا... أن تفتحي الباب لأمر نصفك يريده، ونصفك الآخر يخافه.
نبرتها متفاخرة، لا تشبه من هو مقدم على اعتراف مخجل. وجهها المبقع بالآيسكريم لا يحرجها، ولا حتى ما هي غارقة فيه منذ أشهر.
– عندك كلام قوليه مباشرة يا غالية، أنا مرهقة وهذا الالتفاف يضيع وقتنا المتأخر أساسا!

وبما أنني تعودت على توجيه الإهانة لها هذه الليلة أضفت:
- عندك فخر عجيب بنفسك يا غالية؟
- لا فخر ولا خجل... أنا سعيدة فقط !!
أسندت جسدها بهدوء على عمود إنارة على الرصيف.
- سـعيدة !! ولم قلت قبل قليل كان يجـب أن آتي إليك، وأخبرك منذ البداية! وأعترف ووو
صار وجهها مزدحما بعينيها الصغيرتين، لفرط اتساعهما وتحديقهما بي في هذه اللحظة:
- يا بلهـاء... يزعجني أنك فتحت لي صدرك يومـا، وأخبرتني بما لم يعـرف به أحد من قبل، لذا كان من الإنصـاف أن أعاملك بالمثل وأنا لم أفعـل، لأني أخاف على نفسي من الحسـد! لا أعـرف إن كان يجدي التحصين مع قلة الصلاة، لكن أنا فعلا صرت أتحاشى سدرة، ومشاكل الصديقات ووحدتهـن، لأني أكره أن أكذب عـلى صديقاتي، وبنفس الوقت أخاف على سـعادتي منكن، واحدة مطلقـة، والأخرى تواعد رجلا متزوجا سـيتخلى عنها في أي لحظة لصالح زواجه! هل أخبرهما بأنني أسعد إنسانة في الوجود!
لابد وأن وجهـي كان مذهولا، وغبيا لدرجة أن تشرح لي غالية بلهجة أخرى:
- يعني على قول المصريين «داري على شـمعتك تقيد»، وهذه شمعتي التي خفت عليها منكن.
أخرجت هاتفها من حقيبتها وهي تبتسـم، وتعض على شفتيها فرحا، أرتني صورا متتابعة، لرجل أعد لنفسـه هـو وأخواته مكانة كبيرة في جـوال غالية، ويخطط معها لحياة كاملة. كنت قد رأيت هذا الوجه قبل أشهر، وهو ينتظر أمام باب غسق، وتفوح منه رائحة المندرين.

ألم أقل أن بين الاثنين اللذين يتراهنان بعملة معدنية يقذفها أحدهما للأعلى، يكون نصيبي دائما الوجه السفلي من العملة، فأنا من تخسر في أي رهان مهما دارت العملة أو سكنت في الهواء. ها أنا خسرت الرهان من جديد...

لم تفر النوارس من صوت غالية الذي علا فجأة، على العكس... كانت واقفة على الكراسي الخشبية المجاورة للبحر، مصغية لنا بمناقير منكسة للأسفل.

– وهذه الصورة ونحن في الملاهي، وهذه في مقهى اللؤلؤة، وهذه يوم عيد ميلادي، والمجنون احتفل بي بطريقة مجنونة مجنونة يا أزهار، وزين طاولة المقهى قبل وصولي، بكل الأحمر الذي يخطر ببالك...

أخذت ترينـي كيف أن قصصي الخيالية جدا، صارت واقعا جميلا في حياتها. ثم سكتت وهي ترفع هاتفها عاليا، وتوجهه على نفسها. ابتسمت وهي تزم شفتيها للأمام والتقطت صورة لها «سلفي»مع وجهي التعيس، ثم صورة أخرى، وكثيرا من الصور تلتها، لم أميز فيها إلا صوت التقاط الكاميرا في هاتفها. بينما أنا لا أذكر أنني تجرأت يوما على تصوير نفسي في هاتفي، مخافة أن يضيع الهاتف، أو يسرق فتنتشر صوري!! وإذا سُرق؟ من أنا لأخاف إلى هذا الحد من انتشار صورة لي!! أرسلت الصور لكنزها الجميل، ثم جاء الرد الذي لم تخجل من أن تريني إياه، وكأنها تكفر عن تكتمها في الأشهر الماضية، بمشاركتي أدق وأتفه تفاصيلها. كان ردا ممطوطا يتمدد فيه حرف الباء على ثلاثة أسطر:

– أحبك.

عيناها تلمعان، وخداها يكادان يقفزان من وجهها، وهي تكتب ردا ينسيها أنني أقف بجوارها. بعد أقل من دقيقة، مر طفل مربوط في دراجته بالون على شكل ساعة دائرية تضحك، انطلق أمامنا والبالون

المبتهج خلفه، تتطاير منه شرائط ملونة، حتى صار نقطة صغيرة في آخر الرصيف. شـــعرت وأنا أراقبه وكأنه منحنا وقتا إضافيا في هذه الليلة، خصوصا أنني لم أرَ بعد ســـيارة غازي في مكانها الذي وقفنا عنده قبل ساعة. مرت بضع دقائق أخرى لم أسمع فيها إلا نقر أصابع غالية فوق حروف جوالها، فأردت أن أقاطعها بلحظة صدق ولو لمرة واحدة:

– نزل في ســـدرة عطر جديد، مكوناته من التوت الأســـود والبرقوق وعبير المســـك، وإذا برد العطر بعد أول بخة بدقائق تشـــمين المســـك الأبيـــض والفانيليا...عجيب، عجيب...تمرين بعـــد بكرة لتجربيه في سدرة!

– أمر طبعا... ليش لا؟

– والدي كان يتحسس من التوت، وفور أكله له، أو شمه لرائحته، يبدأ أنفـــه بالاحمرار والعطاس... عامة العطر أعجبني، ومن راتب الشـــهر القادم سأشتريه لنفسي.

أدخلت غالية هاتفها في حقيبتها، وتشـــبثت بكتفي وهي تميل برأســـها عليه:

– أشتريه طبعا، لم أشم فيك منذ عرفتك إلا رائحة الياسمين.

ولأن رأسي كان متعبا أيضا، وينتظره ليل طويل وســـهر، ملت به فوق رأس غالية المرتخي فوق كتفي:

– أخبرتك في الســـيارة أن زميلتي الجديدة في سدرة لا تحسن التصفير، ولا تحفظ من الأغاني إلا أول كلماتها، وتخلط لحنا بلحن أغنية أخرى... صح؟

ضحكت غالية وهي تسحب رأسها من تحت رأسي، وتضيف مسرعة:

– وأنها غبية وتخلط بين الأصل والنســـخة المصورة، في الفواتير المعطاة

للزبائن.
– صحيح... لكن رفقتها ممتعة، وتروى النكات أفضل منا جميعا!
:
:
:
من كل بد، سأعرفك على سارة بعد انقضاء يوم إجازتي غدا.